ماذا فعل المسلمون بالإسلام؟!.

(التاريخ السرى للمسلمين)

د.محمد الملاح

ماذا فعل المسلمون بالاسلام؟!.

(التاريخ السرى للمسلمين)

المؤلف : د محمد الملاح

الغلاف :

الإخراج الفنى :أيمن رياض

الطبعة الأولى : نوفمبر ٢٠١٤

رقم الإيداع : /2014

الترقيم الدولى : - -978-977-5163

توزيع السودان: أمانى أبو الريش

00249118776697

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : **أوراق للنشر والتوزيع**

awraaq@live.com

٤٤٦ شارع الهرم – أبراج نصر الدين – عمارة ٣ – الدور ١١

٠١٢٢١١١٠٤٣٥

إهداء

الى من حملت معى الأمانة..

زوجتى..

"اذا خرج المسلمون من سجن ماضيهم فسوف يحلون مشكلات حاضرهم اليوم في اطار المجتمع الذى أسسه محمد صلى الله عليه وسلم، وسيدركون أن الوفاء للماضى يكمن فى نقل مقر الأسلاف لا على شكل رماد، ولكن على هيئة لهيب، عندئذ سوف يتأتى الانفتاح ليس للمسلمين فحسب؛ ولكن للعالم أجمع" . .

روجيه جارودى

مقدمة

آلت الخلافة فى أعقاب القرون الوسطى الى تركيا، وانفضت الخلافة منها فى العصر الحديث فهاج المسلمون، وماجوا كالعادة - خاصة فى مصر - لقيام "كمال أتاتورك" بانهاء حياة الرجل المريض الذى ظل يحتضر أكثر من نصف سنى عمره؛ بعد أن فقد السيطرة على أرجاء الامبراطورية المترامية الأطراف، والكثيرة النفقات، وقبل خلفاؤها المتأخرون رشاوى المنتفعين من حكم الخلافة، والطامحين للسلطة على ولاياتها الكثيرة، والطامعين فى الولاية حتى الوفاة، واهتزت الولايات بالثورات، والحركات الانفصالية، وتحركت قوى الحداثة فى مصر بقيادة محمد على باشا لتهدد الخلافة فى عقر دارها، فتهدر مدافعه، وتزمجر قاذفات نيرانه على أبواب الأستانة عاصمة الخلافة المقدسة، ثم تبعه الشريف حسين والى مكة ليجهز على جيوشها، ويستأصل شأفتها من الجزيرة العربية، والعراق، والشام ليسيغها لقمة هنيئة للقوى الاستعمارية المسيحية الصاعدة(وعلى رأسهم الانجليز)، وقد تعلقت بهم جحافل اليهود الذين جنوا ثمار التبعية، والمساعدة الانجليزية حتى أيامنا هذه..

عندما سقطت الخلافة مجندلة بأيدى أتباعها من المسلمين - قبل أعداءها من الروس، والأوروبيين - بالموت المريح الذى يعتبره العقلاء نعمة لمن كانت هذه حاله من الضعف، واليأس من الحياة، ولأن الأزهر كان يعتبر المؤسسة الدينية الوحيدة الموجودة، والمعتمدة فى العالم الاسلامى، وموقعه فى مصر - قلب هذا العالم - اجتمع بعض علمائه بعد أربعة أيام من قرار أتاتورك، والكماليين بالغاء الخلافة، وأصدروا بيانا أعلنوا فيه بطلان ماقام به الكماليون لأن الخليفة بويع من المسلمين ولايمكن خلعه - كيف بويع وقد كانت الخلافة ورائية؟!.. - رغم

الحديث الموضوع أن "الخلفاء من قريش"، ولايقر عاقل أن خلفاء بنى عثمان كانوا من العرب لكى يرتبطوا بقريش العربية القُحة، أو ينتسبوا لها بزواج مثلا، ومايقدح فى هذا الحديث السياسى البحت قول عمر بن الخطاب وهو يعين أهل الشورى بعده:

-"لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لأستخلفته"..

وسالم هذا لم يكن قرشيا عن يقين، ولم يكن للنبى أن يجعل لقريش درجة على المسلمين، وهم الذين أخرجوه من بلده مكة، وهو الذى قال:

-"من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"..

فصل كمال أتاتورك الدين عن الدولة ليتحول الخليفة الى سلطة دينية، وروحية(كما فى الفاتيكان بالنسبة للمسيحيين الكاثوليك)، على أن يتولى الوزراء تصريف شئون الدولة، ثم ألغيت الخلافة أثناء ولاية السلطان عبد المجيد الذى غادر البلاد مع أسرته بطلب من حكومة الكماليين..

ان الطريقة التى تنازلت بها تركيا عن الخلافة زمن الكماليين من قبل جمعية الاتحاد والترقى حتى صدور قرار الجمعية التأسيسية التركية سنة ١٩٢٢م بفصل الخلافة عن الدولة، ثم اتيانه على كل مظاهر هذه الخلافة أثار ضده حفيظة المسلمين، فاتهموه - كالعادة - بالعمالة عندما تمادى فى قراراته فألغى وزارتى الأوقاف، والمحاكم الشرعية، وحول المدارس الدينية الى مدنية، وأعلن صراحة أن تركيا دولة علمانية(ولو انتهز الفرصة وأعلن نفسه - هذا العميل الفاسق - خليفة لتغير الحال، ولدعى له المسلمون الحائرون من فوق المنابر)، فأحس المسلمون فى بقاع الأرض باليتم، والضياع لفقدهم الخلافة(كانت كل الدول الاسلامية متخلفة، وأغلبها مستعمر)، وكأن الخلافة كانت تدفع عنهم الدول الاستعمارية التى قسمت بلاد المسلمين بينها، ولم تكن الخلافة هى الأخرى الا مستعمِر أرهقت تكاليفه الشعوب الاسلامية؛ بما كانت تحصلة دولة الخلافة من بلادهم كضرائب، وجزية دون أن تقدم لهم أى

شىء سوى الفقر، والجهل، والمرض، والتخلف عن ركب الحضارة، ثم الاستعمار الأوروبى الثقيل..

تحدثت تركيا، ولحقت بالعصر بعد أن تركت أمور الخلافة، والهيمنة، وتنصلت من تبعاتها، وتكاليفها الباهظة، فكان خيار الدولة التركية الوحيد هو الاعتماد على نفسها فى تدبير أمورها، ومواردها، وتفرغت لنفسها بعد أن عاد أبناؤها الى قوميتهم الطورانية التى بدأوا بها دولتهم أيام عثمان الأول، ولكن دون توسعات هذه المرة، أما الدين فمن الممكن أن تتولى أموره هيئة مستقلة من هيئات الدولة كمشيخة، أو وزارة، ولاداعى لاستنزاف أموال المسلمين فى بهرج الخلافة، وأبهة الخليفة، وشراء ولاء من يحيطون به، وأخذت باقى الدول الاسلامية على عاتقها التخلص مما جثم عليها من استعمار يستنزف ثرواتها، ويستبيح شعوبها المسلمة، بسبب الخلافة التركية الضعيفة التى تركتها فريسة سهلة للذئب الغربى ينتزعها واحدة تلو الأخرى(فرنسا احتلت تونس، والجزائر، وبريطانيا احتلت عدن، ومصر)، والخليفة التركى المغلوب على أمره ينظر، ولايملك لها سوى الرثاء، والشفقة اذا كان من المتميزين بالشعور، والحس العالى، ثم قامت هذه الدول مرة أخرى لتبنى نفسها، وتنهض بشعوبها التى وقعت فريسة الفقر، والجهل، والمرض، والتى لو قامت فيها النهضة فى عهد الخلافة التركية لأضحت دولا حديثة، وربما متقدمة كما فعل محمد على فى مصر..

يصف الجاسوس الانجليزى همفر العراق(احدى الولايات العثمانية) فى مذكراته زمن الخلافة فيقول:

-"لاتجد قارئا، ولاكاتبا واحدا فى كل ألف انسان، الاقتصاد منهار، ويعيش الناس فى فاقة شديدة، وفقر مدقع، والنظام غير مستتب؛ فالفوضى هى التى تسود كل شىء، والصحارى أغلبها جرداء بلا زراعة رغم مرور نهرى دجلة، والفرات عبر أراضيها، والبلاد خراب يعيش فيها الناس وسط

القذارة، والطرق غير مأمونة، وعصابات اللصوص تترصد القوافل"..

بعد أيام من المأتم سال لعاب الورثة على التركة المفقودة، والورثة هم حكام المسلمين الذين كانوا أتباعا للخلافة، أو متربصين بها على المنصب الشاغر، "الملك أمان الله" ملك الأفغان، و"الملك حسين بن على" ملك الحجاز، و"الملك فؤاد" ملك مصر الذى اختص نفسه بالآمال الكبيرة فى هذا المنصب معتمدا على تأييد الانجليز لنقل الخلافة الى مصر لثقلها الحضارى، والثقافى، والتاريخى فتبقى تحت سيطرتهم الاستعمارية التى يمكن بها الهيمنة – كلية – على العالم الاسلامى المتخلف اعتمادا على وجود مؤسسة دينية كبرى فيها كالأزهر الذى نسى، أو تناسى شيوخه بيانهم النارى ضد الكماليين، واهتموا بطموحات الملك الانجليزية(فالموضوع سياسة بحتة، ومصالح، وغنائم، وليس هناك أى التزامات دينية، بل هو مشروع دنيوى بالدرجة الأولى بدليل دخول الانجليز غير المسلمين على الخط)، فقرروا دعوة ممثلى جميع الأمم الاسلامية الى مؤتمر يعقد فى القاهرة برئاسة شيخ الأزهر لبحث من يجب أن تسند اليه الخلافة، ومكان وجوده – طبعا الملك فؤاد ملك مصر بلد الدعوة – وحددوا شهر شعبان من العام التالى لانعقاده..

لقد استخدم سلاطين بنى عثمان "لافتة" الخلافة لحسابهم الخاص طوال خمسة قرون، فلماذا لاتستخدمها بريطانيا العظمى(الامبراطورية التى لاتغيب عنها الشمس) لحسابها قرونا أخرى من عمر هذه الأمة البائسة التى سيطرت على مقدراتها بالتقدم العلمى، والسياسة، وقوة السلاح، والآن الفرصة مواتية – ومن علماء المسلمين أنفسهم – لتضم اليها قوة الدين ليصبح الاحتلال دينا، وعقيدة لافكاك منه الا بالمروق من الدين، والملك فؤاد تابعا لبريطانيا العظمى، وعلماء الأزهر تابعين للملك التابع لبريطانيا العظمى، وكانت البيعة تؤخذ من قبل بالسيف للخليفة الجديد، والظروف فى هذا الوقت لاتسمح بأخذ البيعة للملك الا بالاقناع، وحتى لايأخذ الاقناع شكل المطامع الشخصية، والمصالح

الدنيوية؛ استقر الرأى على أن يقوم الأزهر بهذه المهمة بالدعوة الى المؤتمر، والهدف الظاهرى منه بحث موضوع الخلافة بعد تخلى تركيا عنها، أما الهدف الحقيقى فهو اقناع ممثلى الأقطار الاسلامية(المحتلة من أوروبا) بمبايعة الملك فؤاد خليفة للمسلمين..

يقول فؤاد فى الخطاب الذى أرسله فى اليوم التالى لتنصيبه سلطانا الى حسين رشدى باشا رئيس الوزراء:

-"يعلم رعايانا أننا تولينا بالاتفاق مع الدولة الحامية(بريطانيا) عرش السلطنة المصرية".. ومن هنا كان حرص فؤاد على ارضاء الانجليز بكافة الطرق كما يبدو فى الوثائق التاريخية الانجليزية، والأمريكية..

وهو الذى وصفه الانجليز فى هذه الوثائق بعد ذلك بعدما حولوه من سلطان الى ملك، فيقول عنه "جاك مورى" رئيس القسم المصرى فى الخارجية البريطانية آنذاك:

-"ملك مصر ماهر، وطموح متآمر، وعديم الضمير، يفتقد أى احساس بالتناسق؛ كما يفتقد كل خصال رجل الدولة"..أما اللورد "جورج لويد" المندوب السامى البريطانى فى مصر فقد قال عنه:

-"ان الملك يعيش فى نعيم من الحماقة"..

وتلك هى مواصفات خليفة المسلمين التى يريدها الانجليز، ولا أكثر..

صدرت نشرة أسموها "المؤتمر" فى ربيع الأول ١٣٤٣هـ -أكتوبر ١٩٢٤م كدعوة لحضور المؤتمر، وانجاحه، وتحديد أهدافه، وتصدر العدد الأول مقال للشيخ "رشيد رضا" - مؤلف كتاب "الخلافة" الذى أصدره سنة ١٩٢٢م-يدعو لضرورة عقد المؤتمر لوضع قواعد للحكومة الاسلامية المدنية؛ يظهر فيها علو التشريع الاسلامى، واختيار خليفة، واماما للمسلمين(وهو نفس الكلام المعاد هذه الأيام من نفس القوى، والذى يتمحور حول أفكار لاتلتقى، ولاتتجانس؛ وهى: الدولة المدنية-الشريعة- الخلافة)، وقد تكاتفت قوى عديدة من كل

الطوائف – حتى من حلفاء الملك فؤاد– لافشاله، فانعقد المؤتمر فى ١٣ من مايو ١٩٢٦ وولد ميتا من هزال الحضور، وتهافت النتائج التى خرج بها المؤتمر؛ ففشل، وفشل معه مشروع الملك فؤاد – الذى يجهل اللغة العربية؛ لغة القرآن، ويجيد التركية، والفرنسية – الطامح للخلافة، وبقى الصراع الفكرى، والسياسى..

فى هذه الأثناء جاء كتاب الشيخ علىّ عبد الرازق "الاسلام وأصول الحكم" ضربة قاصمة لأوهام الخلافة، وزلزالا فكريا لعلماء الأزهر، فكانوا كالمريض النفسى فى عالمه الافتراضى، يعانى هذيان العظمة، ويرفض الواقع، ولايقبل العلاج فيلجأ لمهاجمة الطبيب المعالج، وربما قتله، فيتحول الى قاتل؛ وهو ماحدث مع هذا المسكين الذى جردوه من مؤهلاته العلمية التى أقرتها الدولة له من قبل؛ كيف؟.. وفصلوه من وظيفته بالمحكمة الشرعية، ورموه بكل الاتهامات – وهم الشيوخ الكبار – فهو طفل، أعمى الله بصيرته، أبله، يعبث بالأمن العام، يسعى فى الأرض بالفساد، يطعن الملوك، يعتدى على الأمة، ظالم، معاند، كاذب، ملحد، كافر، فاسق، هكذا فى صراحة مطلقة؛ حتى وصل الأمر الى المطالبة باحراق الشيخ ومؤيديه، تتبعوه فى كل شاردة، وواردة حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وكل ماجناه أنه جلس فى هدوء يتصفح القرآن، ويراجع الأحاديث الشاردة، والواردة، حتى الضعيفة، والموضوعة فلا يجد أثرا لهذا الداء الذى أصاب المسلمين، ولاشفاء منه، ولما جاهر بذلك أصابه ماأصابه، انه يفكر، وهذه مصيبة..

يقول الشيخ عبد الرازق فى كتابه:

-"الواقع المحسوس الذي يؤيده العقل، ويشهد به التاريخ قديمًا، وحديثًا أن إقامة الشعائر الدينية لا تتوقف على ذلك النوع من الحكومة الذي يسميه الفقهاء خلافة، ولا على أولئك الذين يلقبهم الناس خلفاء، والواقع أيضًا أن صلاح المسلمين في دنياهم لا يتوقف على شيء من ذلك، فليس لنا

حاجة إلى تلك الخلافة لأمور ديننا، ولا دنيانا، بل إنما كانت الخلافة نكبة على الإسلام، وعلى المسلمين؛ فمعاذ الله أن يجعل عز هذا الدين، وذله منوطًا بنوع من الحكومة، وتحت رهن الخلافة، ورحمة الخلفاء"..

والأمر أوضح من الشمس فى رابعة النهار، فالخلفاء الراشدون، والفتنة قبل الثلاثين من الهجرة فى قوله صلى الله عليه وسلم البات الصريح:

-"الخلافة بعدى ثلاثون عاما، ثم يصير ملكا عضوضا، ثم يكون جبروتا وفسادا فى الأرض"..

جفت الأقلام، وطويت الصحف، ولكن العجب فيمن يتكلم بالخلافة حتى يومنا هذا، وهى لم تتجاوز ثلاثين عاما كما نبأنا الرسول الكريم، وكما حدث تاريخيا بالفعل، ولم يوص الرسول الكريم بخلافة أصلا، ولكنه فقط ينبىء بماسيحدث بالضبط، أكثر من ١٤٠٠ عام، الخلافة ٣٠ عاما منها فقط، ثم يبدأ الملك العضوض (الدولة الواحدة، ثم الدول الكثيرة التى يتربص بعضها ببعض) يتخللها الجبروت، والفساد فى الأرض كما وصف..

وعلى مدى ثلاثة عشر قرنا من الزمان لم يعرف المسلمون سوى نظام سياسى واحد هو نظام الخلافة التى جسدت القوة، والغلبة فى الذهن، والوجدان الاسلامى، ورغم عدم استمرارها سوى ثلاثين عاما؛ الا أن المسلمين ملأوا بها تاريخهم الذى لم يخل فى أى فترة من فتراته من الاقتتال فيما بينهم حتى فى أيام الرسول نفسه، ولم يتوقف اقتتال المسلمين فيما بينهم الا فى خلافة عمر، وعثمان ربما لانشغالهم فى الفتوح، وماعاد عليهم من كنوز، وعبيد من هذه الفتوح..

ومن الطبيعى أن يترنح هذا الملك العضوض على حسب القاعدة الالهية فى اتيان المُلك، ونزعه بمشيئة الله فيثور بعض الغيورين على الاسلام لتوهمهم بأن الاسلام هو الخلافة، والخلافة هى الاسلام، لأنهم لم يسموها بما أسماها به رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها ليست خلافة بعد الثلاثين، ولكنها مُلك

عضوض كأى مُلك معاصر لها، فنجد مثالا لدى "الماوردى" فى كتابه الذى أفرده لذلك، وهو "الأحكام السلطانية" بعد تفكك الدولة العباسية الى دويلات تتحكم فيها، وضع فيه منهجا عمليا لكيفية استمرار الخلافة، نجد مثالا مشابها له أيضا عندما زالت الخلافة العثمانية فى العصر الحديث عندما نشر د. عبد الرزاق السنهورى بحثا باللغة الفرنسية(لماذا؟!!!..) سنة ١٩٢٦ وهو "فقه الخلافة وتطورها" مقترحا فيه أن تصبح عصبة أمم شرقية..

برر الماوردى واقع الخلافة العباسية التى آلت اليه تحت حكم البُويهيين، وغيرهم من الأمراء دون أن يؤدى ذلك الى زوال شرعية الخلافة، كما وضع التبرير الشرعى لقيام "امارة الاستيلاء" التى تجاهلها كثير من الفقهاء، ويضع السلطان، أو الامام فوق الاسلام فيجيز له الغضب، والاستبداد..

والماوردى متهم بالاعتزال، مكروها من أهل العلم، والفقه فى زمانه، مطعونا عليه فى أمانته، وعلمه، بينما ينسبه آخرون الى الأشاعرة فى الحاحهم على استمرار الخلافة؛ رغم كل الصعوبات التى تواجه المدافعين عنها، وهناك من لاينسبه الى أى من الفرق الاسلامية؛ بل يرى أنه من فقهاء الشريعة المستقلين الذين لايرتبطون بأى اتجاه فكرى، ويعتبر بعض المتخصصين - وبعضهم أزهريين - كتابه أصلا من أصول التشريع الاسلامى فى جواز الحجر على الامام من وزير مستبد، وجواز مايسمى "بامارة الاستيلاء"، و"امارة التفويض"، و"امارة التنفيذ" مما يعتبر خروجا على المفاهيم الاسلامية المتعارف عليها فى الخلافة الراشدة..

عاصر الماوردى "القادر"، و"القائم" من الخلفاء العباسيين، وارتفع نجمه فى عهد القائم، كما كانت له علاقات طيبة مع الأمير "جلال الدولة" المنافس للخليفة العباسى من الدولة البُويهية، ولكنه فى عام ٤٢٩هـ مال نحو الخليفة القائم، ورفض شرعية منح الخليفة لقب "ملك الملوك" للأمير البُويهى جلال الدولة لأنها من صفات الله تعالى، فمنحه الخليفة لقب "أقضى القضاة"، وفى

عام ٤٣٤هـ وقف مع الخليفة عندما أراد جلال الدولة مصادرة نصيب الخليفة فى الجوالى(نوع من الضرائب النقدية)؛ فأوفد الخليفة الماوردى للتوسط لدى جلال الدولة لاسترجاع حق الخليفة، ولكن محاولات الماوردى لاقناع جلال الدولة باءت بالفشل..

أما السنهورى الذى نشر كتابه عن فقه الخلافة بالفرنسية!!! ولم يأبه حتى الى ترجمته فى حياته الى لغة الفقهاء، والمتلقين عنهم باللغة العربية، واهتم فيه - غالبا - بنقد كتاب الشيخ علىّ عبد الرازق، وهو اتجاه لانفهم منه قصدا معينا؛ خاصة أنه لم يوضح فى كتابه لماذا اتجه به الى الأمة الفرنسية، والمتحدثين بلغتها الا أن جامعات فرنسا هى ما خرّجت لنا هذا الزخم البشرى من القانونيين المصريين الذين صبغوا القوانين المصرية بالقانون الفرنسى، وجعلوه أحد المصادر المهمة للتشريع، والقانون المصرى، حتى استدرك منهم من استدرك فتذكر أن له أصولا اسلامية يمتلىء تراثها بالالآلف المؤلفة من الأحكام، والقوانين التى وضعها الفقهاء المسلمين فى كل مجالات الحياة تقريبا، فرجعوا اليها، وكتبوا عنها الكتب، وأشادوا بها كل الاشادة، ولم يتقدم أحدهم لصياغة أقل القليل منها، وطرحها فى البرلمان الذى كانت تنعم به مصر - كما يدعون - قبل ثورة يوليو ١٩٥٢..

ولكى يكون موضوعيا فى دفاعه عن فكرة الخلافة الضائعة فى العصر الحديث أطلق على الحكم الاسلامى بعد الخلفاء الراشدين "الخلافة الناقصة"، معترفا بهذا النقص، فاذا مادافع عنها، ودفع حجج المناهضين لها، وجمع عنها الأسس، والأدلة من كتب الفقهاء، والمعنيين بها فلا يخرج ماكتبه عن يوتوبيا لاتبعد كثيرا عن جمهورية أفلاطون فى الفلسفة الاغريقية، ولاتخرج عن مدينة الفارابى الفاضلة فى الفلسفة الاسلامية، وهو مأدى به فى النهاية الى اليأس من اجتماع المسلمين مرة أخرى فى خلافة فاقترح عصبة أمم شرقية، ولم يوضح أيضا - من فرط يأسه - لماذا لم تكن عصبة أمم اسلامية؟!..

ولايعدو الكتاب أن يكون ضمن الكتب الكثيرة التى خرجت تندد بالشيخ غبد الرازق، وكتابه، والتى ألفت فكتبت، وروجعت، وطبعت، ونشرت فى غضون أيام قلائل بعد صدور كتاب الشيخ الذى أخرجوه من وظيفته، ومن عقله، وحتى من دينه فى وقت كانت فيه مصر تموج بالأحزاب، والاتجاهات الفكرية المختلفة، وتنعم بالمؤسسات، والبرلمان وهو الوقت الذى يتيهون علينا فيه بما وصلت اليه مصر من حريات، وتعددية حزبية..

ولعل الفترة التى قضاها الرئيس المنتخب الاسلامى "مرسى العياط"(سنة واحدة ٢٠١٢ - ٢٠١٣) عشناها كمسلمين، وعاشها العالم كبيان عملى لما كانت عليه الخلافة المزعومة منذ قيام الدولة الأموية سياسياً(وليس دينياً) فى دمشق بعد أكثر من ٣٠ سنة من وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكانوا أول من اتخذ الدين ذريعة للحكم، وقد كانوا من الطلقاء الذين عفا عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأطلق سراحهم بعد دخوله مكة فاتحاً، فلم يقهر أحدا ليسلم، ولم تخرج الخلافة المزعومة عن كونها صراعاً على الحكم، وشحن لكل موارد الدولة للحفاظ على هذا الحكم بإعداد الجيوش، وحشد الأسلحة، وصرف الرواتب، ودفع الرشاوى، والأموال الطائلة من بيت مال المسلمين، ومع ذلك كانت الدولة دائماً آيلة للسقوط، لأن دعائم الدولة من موارد تضمحل باستمرار؛ مثلما كانت الامبراطورية الرومانية التى قامت على العسكرية البحتة، ثم أضحت صيداً سهلاً للجيوش الاسلامية الفتية التى قامت اليها لتنتزع منها الأجزاء العربية التى ظلت تحكمها ردحاً من الزمن..

وقد اعتمد حكم مرسى على القوة، قوة الجيش، وقوة البوليس، ولم يأل جهداً فى تحويل موارد الدولة نحو جماعته، وكل من انتسب اليها، هاتين القوتين اللتين انقضتا عليه مع الشعب الثائر الذى كان من السهل عليه الانقضاض على هذا الحكم مع هاتين القوتين، الشعب الذى لم يستفد شيئاً من هذا الحكم سوى الهرتلة، والمهاترات المكشوفة، والأزمات تلو الأزمات،

والاحساس باضمحلال الدولة، وموارد الدولة، والزج بها لصالح تمكين جماعته فى الداخل، والخارج بالرشاوى، وشراء الذمم، والأتباع تماما كما فعلت الخلافة الأموية التى بدأها معاوية..

فى الحوار الذى ذكرته هيلارى كلينتون الوزيرة السابقة للخارجية الأمريكية فى مذكراتها المنشورة حديثا باسم "خيارات صعبة" مع الرئيس الاخوانى مرسى العياط أثناء صياغة الاتفاق بين حماس، واسرائيل سألته:

- ماذا ستفعل لكى تمنع القاعدة، ومتطرفين آخرين من زعزعة استقرار مصر، وتحديدا فى سيناء؟.. فأجاب:
- لماذا سيفعلون ذلك معى؟.. نحن حكومة اسلامية!..

وتعلق الوزيرة السابقة:

- قلت فى نفسى اذا كان هذا الشخص يتوقع تضامن الارهابيين معه فهو اما ساذج جدا، أو شرير..

وهو قد تضامن مع الارهابيين فعلا عندما جمعهم من كل مكان فى العالم باستاد القاهرة، وجماعته على رأسهم، وهددوا كل من تسول له نفسه من المصريين بالثورة على الحكم الاخوانى بالويل، والثبور، وعظائم الأمور، وأنزلوا لعناتهم على كل مصرى يدعو الى الثورة، ثم أعلن هو شخصيا قطع العلاقات مع سوريا الشقيقة، وهى الدولة العربية المسلمة..

هؤلاء الارهابيون الذين يسمون أنفسهم بالجهاديين لمواراة اجرامهم، وخداع شباب المسلمين التائهين، لايحاربون الا من كان مسلما، أما اسرائيل فلا يقترب منها أحد لسبب بسيط؛ وهو أنهم مرتزقة يعملون لحسابها، ويعيشون على اعانات المخابرات الاسرائيلية، والأمريكية، والغربية التى تقذف بهم فى أوجه المسلمين ليبيد بعضهم البعض بأسلحة الغرب الذى يتسلى بمشاهدة مستهلكى الحضارة الغربية وهم يتصارعون، ويهدمون بلادهم بأيديهم حتى الموت، والابادة..

وكان من السهل جدا توقع سقوط هذا النظام الفاشى بإسم الدين فى هذا العصر، بعد سقوط مجلس الشعب التشريعى ذو الأغلبية المدعية للاسلام؛ بعد أن أمضى نصف عام لم ينجز فيه حدا واحداً قننه من حدود الشريعة الاسلامية، وعرضه على المجلس ذى الأغلبية الاسلامية من أجل "تطبيق الشريعة" التى صدعوا رؤوسنا بها عقودا طويلة، تماما "كقميص عثمان" الذى احتج به معاوية، والأمويون للقفز على السلطة باسم الخلافة الاسلامية – وبعد أن تولى الحكم لم يذكر عثمانا – وكأنها سلعة بائرة يروجونها لمصالحهم وقتما يشاءون، أو عندما تقل مواردهم من النهب، والتسول، والاتجار بالدين..

انتصروا جميعا لمصالحهم العليا فى الأساس؛ بينما يسقط الوطن صريعا بينهم، فكانوا من الفائزين وقت القهر، والعمل فى الخفاء بالتعاون مع الدولة فى التجسس على بعضهم البعض، وتسليم بعضهم البعض، وفازوا عندما برزوا فوق الأرض ليجنوا الثمار من الأموال، ومقاعد الحكم..

يقولون ان برامج الأحزاب يضعها البشر لأنها أحزابا بشرية، لكن حكم الاسلام مستمد من القرآن، والسنة لأنهما منهج الله فى الأرض، فهو برنامج موضوع فعلا طُبق فى عهد الرسول، والخلفاء الراشدين، فهل نضع نحن البشر برنامج؟.. وهل منهج الاسلام مجهولا للناس؟.. فكل مسلم يعلم ماأمر الله به، ومانهى عنه..

فماهى آليات تطبيق الشريعة فى ظل المتغيرات العصرية، والنظم التى تحكم المسلمين، وغير المسلمين؟.. وماهو الطرح الاسلامى، والاجتهاد الفقهى الذى توقف عند القرن الثانى الهجرى، وتحدد كل شىء فى القرآن بأقوال السلف دون تدخل من أى مسلم حتى المفسرين أنفسهم، والا اعتبروا مشككين، أو رافضين للشريعة، وعزلوا من سياق الدين..

هل شمل الاجتهاد وضع برنامج سياسى، واقتصادى متكامل يليق بمستجدات العصر، ومصبوغا بروح الدين، ومتمشيا مع الشريعة مثل شكل الحكم، وصفات

الحاكم، وشروط ولايته، وكيفية توليه، وشروط عزله، ومن هو الذى له هذه السلطة، ومن هم مساعدوه، ومستشاريه، وبطانته، ومدة حكمه؟..

وماذا عن معاملات البنوك الربوية التى لاغنى عنها فى الاقتصاد المعاصر؛ فى ظل استخدام العملات الورقية التى أصبحت مخزنا للقيمة، وماذا عن التضخم الذى يترتب على انخفاض القوة الشرائية لهذه العملات، وماذا عن الأجور، وربط الأجر بالانتاج، والاستدانة، والادخار، والاقراض، وماهو الموقف الشرعى من التاجر، أو رجل الأعمال الذى يدير أعمالا دائنة، ومدينة فى نفس الوقت، وكيف تبرأ ذمته المالية اذا مات مديونا للأفراد، أو البنوك، أو الاثنين معا؛ وهو مالابد منه فى ادارة الأعمال التجارية المعاصرة..

ولانجد لديهم سوى اطلاق الرصاص تعبيرا عن عجز الكلمات التى تبذل الموعظة الحسنة المنطلقة من الحكمة، والصوت العالى الدال على قصور الحجة، وسوء قناعة الدليل..

ينادون بالدولة الاسلامية(تجارة بالدين)، يدعون أنهم يملكون نظرية حكم اسلامية كاملة، والاسلام أعم، وأشمل، وماكان ليفصّل، ولكنه أجمل، والا لأصبح الدين عبارة عن كميات من التعاليم من الأسهل أن تترك كلها، ولكان مركّزا فى عصره لايتجاوزه مع تغير الزمان، والأماكن، والناس، ولزم عليه أن يحسم كل الأمور فى وقتها دون اجتهاد من أحد، ومع ذلك تراهم يدخلون من النظم التى رفضوها كلية، وكفّروها - كلية - لأن الاسلام لم يأت بها، فاذا طولبوا بالبرنامج السياسى فلا يحيرون جوابا، واذا أجابوا اختلفوا - ولا اختلاف فى الدين - والا دخلوا دائرة الكفر، ولكنها السياسة البحتة؛ كما فعل الأولون فى أول عهدهم بالدين، واذا تكلم أحدهم فى ذلك فلا يصدر عن رأى الدين فى أمور الحكم المتروكة للمسلمين، وظروفهم، بل عبروا عن رأيهم المحدود الذى لايصدر عادة عن خبرة، ودراسة بل الهوى النفسى، والمصلحة الشخصية..

انهم اذا أخذوا من الدين مبدأ الشورى مثلا اختلفوا في اذا ماكانت ملزمة أو غير ملزمة، مع تكفيرهم للنظم الديمقراطية الحديثة لمجرد أن الاسلام لم يأت بها، فهل جاء الاسلام بالدوواين، وسك العملة، والبنوك التى يملكون فيها الأموال الربوية الطائلة، وهل جاء بالسيارات الفارهة التى لايركبون الا أحدثها، وأفخمها، وهل تدخّل الاسلام فى الأساليب الحربية، وتجييش الجيوش الا مااشترطه من معاملة الأسرى، وعدم الاعتداء، وعدم المُثلة، واستباحة المدن، وأهلها، وغيرها كثير مما يلتزم به المسلمون فى حروبهم مع غير المسلمين؛ ناهيك عن بذل طاقاتهم الدعوية فى حروب ذات البين على طول التاريخ الاسلامى بداية من عهد أبى بكر، وحتى أيامنا هذه بما يشنوه من قتل، وتخريب، وارهاب، واستحلال لدماء المسلمين، وأموالهم، وهو مبدأ اسلامى تصدّر تعاليم الاسلام الواضحة:

-"المسلم على المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه" حديث شريف..

أخذوا من القرآن، والسنة نصوصا بلا تمحيص، ولاتخصيص كانت سندا لمن حكموا فى أول عهده، واختلفوا؛ فتقاتلوا، فأساءوا الى الاسلام الذى جاء ليوحدهم، ولماذا يحيلونا لنصوص لايكلفون أنفسهم عناء تفسيرها، ومشقة بيانها، وتحديدها للناس، أم يخشون -كما يدعون- التدخل بجهدهم البشرى فيفسدوه كما أفسده من كان قبلهم، ولو كان الأمر كذلك فلمن نزلت هذه النصوص؟!..

واذا أحالونا الى الرسول، وهو نبى يوحى اليه؛ فكيف بنا ونحن مسلمون تابعون له، أما الراشدون فمن نتبع منهم بالضبط؟.. - اذا كان مافعلوه فى الحكم دينا يُتبع - فلكل منهم ظروفه، وأحداث زمنه، فهل نتبع عثمان مثلا الذى ثار عليه الصحابة أنفسهم، فدعت السيدة عائشة لقتله، ودعا عبد الرحمن بن عوف عليا بن أبى طالب قبل وفاته قائلا له:

- "ان شئت أخذت سيفك، وأخذت سيفى وخرجنا عليه، فقد خالف

ماأعطانيه"..

فلابد أن ابن عوف أحس بذنب اختياره له..

ومازماننا، وزمانهم بدون اجتهاد بفارق السنين الذى يبلغ أربعة عشر قرنا؛ اختلف فيه أسلوب الحياة، وطبيعة العلاقات الانسانية المحلية، والدولية، وأصبحت شديدة التعقيد، فهل لايستحق كل هذا برامج جديدة تتماشى مع العصر، وتتفق مع أصول التشريع..

وهم بذلك يثبتون أنهم فى عزلة عن الحاضر، وكذلك جهل مطبق بالماضى، وجهل أفدح بروح الدين، وأساسياته فكل منهم لم يخرج عن كونه خادما فى مسجد لايجيد الا الآذان، واقامة الصلاة، وخدمة المسجد، ونظافته وكفى، فلا هو أهل لما هو أكثر من حدود المسجد، فلايدرى عن خارجه شيئا مع أنهم يتهمون الدولة بحصر الاسلام داخل المسجد فقط، فها هم المسلمون يسيرون خلفك داخل المسجد فى الوضوء، والصلاة؛ فهل يستطيعوا أن يسيروا خلفك خارج المسجد؟..

وماذا على رئيس الدولة المسلم هذه الأيام فهل يسير سيرة أبى بكر فى محاربة المرتدين، أين هم؟.. أم يجوب المدينة كعمر ليطعم مسكينا هنا، أو امرأة عائلة هناك، وعنده فى دار الرئاسة مئات الملفات التى يجب بحثها، والبت فيها بقرار، عدا اللقاءات بقادة الدول، ومبعوثيها، وقبول سفرائها، أو يعلن رفضه الاستقالة، أو الاقالة لأن الامارة جاءته من الله، وليس من الشعب الذى يحكمه كما فعل عثمان فقُتل، أو قاتل معارضيه، والخارجين عليه بالسيف كما فعل علىّ، وقُتل أيضا..

فالأمر هو الدين، وليس الدولة، وأمر الله الرسل باقامة الدين، ولم يطلب منهم اقامة الدولة، حتى "داود"، وابنه "سليمان" كان كل منهما نبيا قبل أن تتهيأ لهما أسباب المُلك الذى منحه الله لكل منهما، وزال عنهما بعد موتهما، وبقيت لهما النبوة، وشرف النبوة، وأحتسبهم الله فى زمرة الأنبياء، لا فى عداد الملوك،

فمناط الملك هو العدل فى الرعية، والعدل فضيلة خلقها الله، وجعلها من أركان الدين، ومن الممكن أن يحكم الملك الوثنى بالعدل، ومن الممكن أن يظلم الملك المسلم رعيته، والدين يختص بالفرد حاكما، أو محكوما، ولايختص بالدولة، فاذا كان الحاكم متدينا فانه لايستطيع أن يهدى من يحب من الناس، أو يجعلهم ملتزمين مثله، ومادخل الدين فى الدولة اللهم الا الخلط، والتهويم، وارهاب الناس باسم الدين، فيجعلون دين الله الذى نزل رحمة بالعباد سيفا مسلطا على رقابهم؛ فكيف سيحافظ هذا الحاكم القاصر - عن مراقبة نفسه - على الدين فى نفوس الناس؛ وهو لايعلم من سرائر النفوس شيئا..

فاذا أمرهم بالصلاة، وضرب الناس عليها، وهو يسوقهم الى المساجد سوقا كما يساق الأنعام؛ فكيف له أن يعرف من خشع فى صلاته ممن أداها لكى يرضى عنه الحاكم، دخل عمر بن الخطاب على رجل وهو يصلى فلم تعجبه صلاته، فأمر الرجل أن يعيدها ففعل، فلما جلس الرجل ابتدره عمر:

-"أى الصلاتين أفضل؟".. فظن عمر أن الرجل سيختار الثانية لأنها فى رأيه أفضل من الأولى، ولكن الرجل أجابه:

-"الأولى أفضل لأنى صليتها لله، والثانية لك(أى بناء على طلبك)"..

فكيف يكون هو الحاكم المتحكم الذى ترك انشغاله بأمن الرعية، وكفايتها من الأحوال المعيشية من أكل، وشرب، وغيره ليقعد للناس عند باب المسجد يراقب الداخل، والخارج، أو يرسل البصاصين، والعيون لمراقبة الناس، وبذلك فقد شغل نفسه بعمل خالق العباد، وترك وظيفته الأصلية؛ كأن يوفر الماء للناس بحفر الآبار للشرب، والوضوء، والاغتسال من أجل نظافة أفراد الرعية، وحثهم على الصلاة، والطهارة..

لايدرك أحد منهم أنها حقبة تاريخية كانت ولن تعود، ولن يرضى أحد منهم العودة اليها الا اذا أراد الانتحار بالخروج من التاريخ، أو الهروب من الواقع المعاصر، فهل قبل الأقدمون الهروب من واقعهم، وتحدياتهم كما يريد

المعاصرون؟!..

يقولون ان الرسول قضى سنوات الدعوة بمكة دون برنامج سياسى (لماذا؟!..)، وعندما ذهب بالمسلمين الى المدينة، وأمن الخوف، والفزع فيها أقام البناء، وكان البرنامج، فهل كان النبى المرسل زعيما سياسيا، أو رئيسا لحزب؟!.. أم اعتبروا التنزيل برنامجا سياسيا؟!.. وهل كان الرسول، والمؤمنون فى المدينة آمنين فيها، أم زاد أعداؤهم، وزادت تحدياتهم بعد أن كانت مقصورة على المشركين فى مكة؟.. فزاد المشركون فى تأليب قوى الجزيرة العربية عليهم من يهود، وأعراب، ومنافقين..

وهل وضعوا أنفسهم فى مقارنة مع الرسول المرسل، والمتصل بالسماء، فيطلبون منا التوقيع لهم فى صك على بياض حتى نمكنهم من التصرف فينا كما يشاءون، وهم غير المتصلين بالسماء -مثل الرسول الكريم- ولاأمل فى ذلك..

ثم ماذا عن معاذ بن جبل حينما بعثه الرسول الكريم الى أهل اليمن، معلما، وقاضيا فيهم بالدين الجديد، فجلس النبى ليطمئن منه كيف سيحكم بينهم؛ فأجابه: بكتاب الله، وسنة نبيه، فابتدره النبى صلى الله عليه وسلم؛ فان لم تجد؟.. فقال معاذ: أجتهد رأى، بمعنى علم الرسول بمشاكل دنيوية قد تطرأ عليه، وعلى الناس قد لايجدها فى قرآن، أو سنة، فالوحى لم يكتمل بعد، والقرآن ليس سجلا لحالة كل فرد من البشر، ولكنه جاء بأحكام مجملة تنطبق على الكل كأحكام الصلاة، والصيام مثلا التى جاءت عامة للمقيمين، ولكنه خصص منها أحكاما للمسافرين، والمرضى لاتنطبق على المقيمين..

واذا أخلفوا الظن فجاءوا ببرنامج تجد أن غالبيته العظمى لاتخرج عن برامج الأحزاب الأخرى التى هى أحزاب دنيوية - بزعمهم - وصموها بالبشرية، فاذا تكلم عن المشكلة السكانية وذهب الى القرآن، والسنة لم يجده يذكر شيئا عن هذه المشكلة التى تحتاج الى خبراء فى هذا المجال قد لايكونوا

من المسلمين أصلا، بل نجد أن القرآن يأمرنا بسؤال أهل الذكر فى أى مجال:

-"**فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون**" الأنبياء ٧.. على الرغم من:

-"اذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله" حديث شريف..

فالاستعانة بالله مطلقة، ومنهاج حياة، والتزام الاستعانة بالخبراء خاص بشئون الحياة وهو فرض على المسلم، كأن يستعين بالطبيب اذا مرض، وبالمهندس المدنى لبناء المسكن، وبالخباز للحصول على الخبز، ولم يشترط الاسلام فى الطبيب، والمهندس، والخباز، ولكنه فرض علي المسلم فقط أن يكون حصيفا فى تخصصه لينال محبة الله:

-"ان الله يحب أحدكم اذا عمل عملا أن يتقنه" حديث شريف..

واذا تحدثنا عن مشكلة القمامة، والفضلات فلا نجد حلولا لها فى القرآن، والسنة؛ ولكنهما حثا المسلم على النظافة، والطهارة، ولابد من حلول بشرية دنيوية تناسب الزمان، والمكان، ولانجد هذه الحلول الا عند الكفار الفجار الذين نستعين بشركاتهم، واستغلالهم لنا من أجل نظافتنا؛ مع أن النظافة فرضها علينا ديننا، ولاتصلح عبادتنا الا بها، ولم أصادف يوما من تكلم منهم فى هذه المشكلة الا خطبة جمعة حضرتها فى الريف، يوبخ فيها خطيب المسجد من يقوم بقضاء حاجته بجوار جدران المسجد، والقاء النساء للقاذورات، ثم يتشدقون بمصطلح المشروع الاسلامى، فهل يعتبرون الاسلام سلعة، أو مشروعا مربحا لهم؟!..

يعترى ذهنهم، وتفكيرهم الخلط فى الأمور، فهم يفكرون فى الشىء، وضده فى وقت واحد، فيقارنون مثلا بين النظام النيابى، وأحكام الشريعة، مع أن النظام النيابى يمكن اخضاعه لخدمة الشريعة، فلايمكن تنفيذ أحكام الشريعة كما كانت تنفذ من قبل فالتحريات، وثبوت الأدلة القطعية، وشهود النفى، والاثبات، والتحقيقات، مع أدلة البحث الجنائى بالأجهزة، والتحاليل فى النظام النيابى، والقضائى الحديث أفضل كثيرا فى الاجراءات التى تقدمت كثيرا عن

ذى قبل، ويجب الاستفادة منها فى تطبيق أحكام الشريعة، حيث كانت تقام الحدود بناء عن الاعترافات، وهو مانفتقده فى هذا العصر، فلا نجد الا أن هذا الخلط، والاختلاط تجارة بالدين ربما كانت أربح كثيرا من تجارة المخدرات، وتجارة السلاح..

والقاضى الذى تصدر لتنفيذ الأحكام منذ أكثر من ألف سنة اختلف كثيرا عن ذلك الذى ينفذها هذه الأيام، فالأول كان يذهب الى مكان المحاكمة مثلا بالحمار، أو الحصان، أو الجمل، أما الآن فهو يأتى بسيارة الدفع الرباعى، كما تشعبت المحاكم، وكثرت أنواعها، ودوائرها، وكذلك القاضى نفسه..

يحرمون على المسلمين كل شىء، ويختزلون الحضارة الحديثة فى الكفر، والفجور مع أنهم من أكثر المستفيدين من معطيات هذه الحضارة من أول الأمن، والأمان الى السيارات، والطائرات الفارهة المريحة، وأغلى الهواتف المحمولة، وأحدث الحلل الافرنجية التى يحرصون على ارتدائها، كما يحتفظون بكل وسائل صلة الود، والاحترام مع دول الكفر، والفجور فى الخارج، ويحرمون ذلك على كفار الوطن..

فهل يوجهون أفكار المجتمع المسلم الى المستقبل، أم يشدونه الى الخلف بصورة مرضية؟..

هل يطرحون الأفكار لحل المشكلات القائمة، أم يغوصون بالمجتمع المسلم حتى النخاع فى أبهة التاريخ القديم، والماضى الخلاب؛ فيبدو الأمر كما لو كان لعبا بأحاسيس الجماهير بتأجيج حنينها للماضى التليد الذى لم يكن كذلك فى كثير من عهوده..

لقد أوقعوا العالم الاسلامى فى دوامة الأفكار بين صراع المادحين للتاريخ، والفكر الاسلامى بزعم التمجيد، والحياد، وبين المفندين لهذا التاريخ بالرد المفحم، أو المضحك..

يقول مالك بن نبى فى كتابه انتاج المستشرقين:

-"لو حاولنا اليوم أن نضع تقويما لهذا الانتاج الفكرى نراه يعبر أحسن تعبير عن تبديد طاقات فكرية ثمينة لم نحسن استخدامها، وبمقارنة هذا الانتاج بما أنتجه "لوثر"، و"كلفان" أبان حركة الاصلاح فى أوروبا، وانتاج "ديكارت" الذى وضع أقدام أوروبا على طريق التطور التكنولوجى، أو انتاج "ماركس"، و"انجلز"، و"لينين" الذين وضعوا أسس مجتمع جديد يغزو الفضاء اليوم"..

فهل نستطيع الخروج من هذه الدوامة التى دخلنا فيها طواعية بين الجمود، والمديح بصورة جديدة تتماشى جنبا الى جنب مع سمو الاسلام، ومنطق العلم؟.. بحيث لانحذوا حذو مشايخ القرن العشرين الذين راحوا ينقبون فى القرآن عن سفن الفضاء، وغزوه بالأقمار الصناعية، أو تفتيت الذرة، ولم يستنبطوا من القرآن روح العلم، واستقلال التفكير، وبمعنى آخر لماذا لم يبحثوا فى القرآن عن المناخ المناسب للروح العلمية دون الاجابات المعدة سلفا، والجاهزة من مشايخ لايمتون للعلم الحديث بأى صلة، ولا للأسلوب العلمى القائم على التجربة، والمشاهدة؛ وليس على الدرس، والتمحيص؛ ومن ثم التلفيق..

يقولون قبول أى حكم غير حكم الله هو شرك بالله مثل حكم الشعب نفسه بنفسه كما فى الديمقراطيات الحديثة، فما هو وجه الاعتراض؟..

فاذا أجمع الشعب على زراعة محصول ما، أو عدم اقامة مشروع ما قد يضرهم، فما دخل الشريعة فى ذلك؟.. مادامت المشاريع لاتتضمن مايغضب الله، وهو واضح لأى مسلم بسيط؛ ربما كان أحرص على دينه من فقيه قد يجد مبررا فى بعض النصوص الضعيفة لاثم يريد أن يرتكبه كالرشوة مثلا، واستجداء الحكام..

ومنهم من يطرح أهل الحل، والعقد فى تدبير أمور المسلمين، واختيار الحاكم، وهو مانجده هذه الأيام من المستشارين فى كل المجالات التى اتسعت، وتشعبت، ولم يقتصر الأمر على ستة، أو حتى عشرة منهم كما اقترحها عمر

الفاروق وهو يُحتضر..

يتكلمون عن حرية العقيدة التى تكفلها الدول الديمقراطية الكافرة – بزعمهم – ولا يكفلونها هم لأحد ممن ليس على مبادئهم التى وضعوها لأنفسهم، رغم أن القرآن كفلها لكل البشر:

-"**من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**" الكهف ٢٩ ..

أما حرية الفعل الفاضح فى الطريق – وهو مايرمون به دول الديمقراطيات – فلا يقره الطبع الشرقى عموما، ويلتزم به أرباب الأديان الثلاثة فى المنطقة العربية – منطقة الرسالات – وكذلك الزنى، وحرية اللواط، والزنا فيه كلام لأن الأصل فيه الستر..

وهم يعدون الاباحية، والحرية الجنسية من مقومات النظام الديمقراطى أيضا، ولكنهم يتجاهلون تماما أن الصدق، والأمانة، والشفافية التى هى من دعائم الاسلام، ومن أساسيات تبليغ رسالة الاسلام من رب العالمين على لسان الرسل، والأنبياء هى أيضا من دعائم هذه الأنظمة فى هذه الدول حتى قال الامام "محمد عبده" فيهم عندما زار أوروبا:

-"وجدت اسلاما ولم أجد مسلمين، وفى بلادنا مسلمين ولاأجد اسلاما"..

فهم أول من يفتقدون الصدق، والأمانة، والشفافية حتى فيما بينهم، ومع أقرب الناس اليهم..

ويتحدثون عن حرية الاقتصاد، واكتساب الأموال، ولايتحدثون عن الضرائب التصاعدية التى تقررها هذه النظم على رجال أعمالها من أجل فقرائهم، وهم يشكلون الغالبية العظمى من المسلمين فى البلاد الاسلامية، ويتحدثون عن النظام الربوى فى الغرب، ولايتحدثون عن أرصدتهم فى بنوك الغرب، والدعم الذى يتلقونه من أجهزة مخابرات هذه النظم الربوية، وانقسموا فى التعامل مع البنوك الربوية من حيث علة هذه البنوك، وهى الفائدة المحددة سلفا، فمنهم من أفتى بترك الفائدة للبنك، واستخدام رأس المال فقط، ومنهم من تدارك فقال:

-"ولم تتركون الفائدة لليهود الذين يملكون هذه البنوك، فهل يقوى اليهود بأموال المسلمين؟"..

وهم أول المضطرين للتعامل مع البنوك الربوية، فأين يخفون الأموال الطائلة التى تنهال عليهم من كل مكان من أجل تخريب أوطانهم باسم الاسلام؟..

ان أى منهم يملك الملايين من الدولارات، ومن باقى العملات؛ فهل يحتفظون بها فى قصورهم المنيفة؟..

وهم لم يتجاوزا الأولين كثيرا فى فهم الدعوة الاسلامية على أساس:

-**"ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة"** النحل ١٢٥..

-**"فذكر انما أنت مذكر(٢١) لست عليهم بمصيطر(٢٢)"** الغاشية..

ان فكر المعتزلة، والخوارج المبتكر نحو تنصيب الامام عن طريق الاختيار، والبيعة، والعقد من الأمة لم يكن مطروقا - بل أن الأمة هجرت كلية ماذهب اليه المعتزلة، والخوارج لاعتبار آرائهم خارجة عن الشريعة - فهم يرون أن سند الامام هو الأمة، لاالسلطة الغيبية، لأن السلطة الغيبية لم تمنحه سلطة أصلا، كما لم تمنح النبى الذى جاء بالرسالة هذه السلطة - الا سلطة تطبيق الحدود الدينية، ورعاية مصالح الرعية بمقتضى الشرع الحنيف، وتوفير المناخ لاقامة شعائر الاسلام، وآدابه بما لايخرج به عن نطاق النبوة..

والأمة عندما هجرت الفكر، والعقل أسلمت قيادها الى الفقهاء الذين فرقوا أولا بين الدين، والسياسة، وعندما تنمرت لهم الدولة عادوا الى خلط الدين بالسياسة مرة أخرى فافترض الفقهاء "السياسة العقلية"، و"السياسة الدينية" كما سماها "ابن خلدون" - وهو فقيه فى الأصل - وسماها "ابن تيمية" "بالسياسة الشرعية"، المهم الحرص على كلمة "سياسة"، فالناس يجتمعون حول رجال الدين، ولكنهم لايجتمعون حول الحكام الا بالهبات، والعطايا، فرجال الدين يعملون لحسابهم الخاص، ويتركون الدولة وشأنها، فلا بد من دخول الدين على الخط كى ينصاع الناس للحكام، يقول الامام أحمد ابن حنبل:

-"السمع، والطاعة على الأمة لأمير المؤمنين البر، والفاجر، ومن اجتمع عليه الناس، ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف، وسمى أمير المؤمنين، والغزو ماض مع الأمراء الى يوم القيامة البر، والفاجر، ومن خرج على امام من أئمة المسلمين وكان الناس قد اجتمعوا عليه، وأقروا له بالخلافة بأى وجه من الوجوه كان؛ بالرضا، أو الغلبة فقد شق عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"..

هذا على الرغم من أنه كان لايتصل بالخلفاء، ويرفض عطاياهم، ويأبى مناصبهم رغم حاجته الملحة للمال لأنه اعتبرهم ظالمون، وقد هاجمه معاصروه من المفكرين الذين اتهموه بأنه ينسب الى الرسول، والصحابة نقيض آرائهم، وأفعالهم، فالرسول يأمر بأنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق، كما أنه حذر المسلمين من السكوت على الظلم، والقهر لأنهم اذا سكتوا عمهم الله بالعقاب، وقوّم الصحابة أولياء الأمر منهم، وردوهم الى الصواب، أو حذروهم، أو اعتزلوهم..

ولم يكن الامام أحمد بدعا بين من سبقه من الفقهاء، والأئمة الثلاثة أبى حنيفة، ومالك، والشافعى الذين رأوا الطاعة للحاكم الظالم، مع بذل النصح له خير من الثورة عليه؛ التى تكون مصحوبة عادة بالاعتداء على الأنفس، والحريات، والأموال رغم تأييد الامام أبى حنيفة لثورة الامام زيد بن على، وكاد أن يخرج معه مجاهدا ضد مظالم الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك..

اذن لابد من خضوع الناس للحاكم مهما بلغ ظلمه، مالم يكن كافرا، أو آمرا بكفر، أو معصية واضحة، وبديهى لم يوجد قط حاكم يأمر الناس صراحة بمعصية الله، فاذا ماقتل، واغتال خصومه، ونهب أموال الرعية فانه بمنطوق الفقهاء ظالما، وليس كافرا، فهى معاص منه لله، وسيحاسبه الله عليها، أما الرعية فلتذهب حيثما أمر الحاكم، وأراد، لأن ارادة الله فى خلقه مرهونة بارادة الحاكم كما يريد الفقهاء الذين قصروا الأمر على النصيحة له فقط رغم توعد

أحد خلفاء بنى أمية بساحة الكعبة المشرفة ذات يوم بقتل من قال له اتق الله..

وأيامها لم ينبس أحد الفقهاء ببنت شفة، ولم نقرأ فى أى رواية أن أحدا منهم علق على ماقاله الخليفة بخير، أو بشر خوفا منه، ورعبا من السيف البتار، حتى النصيحة التى سوف لاتضر الحاكم فى شىء؛ بل ربما تُحسب له، ولمن قالها له على سبيل التغيير لم يكن مسموحا بها، فربما تتحول الى طلب، والسيف أقرب، وأنفع فى هذه الظروف التى جعلت كل مؤلفات المسلمين فى السياسة عبارة عن مواعظ، ونصائح للحكام بالعدل - على استحياء - وكثيرا من الأوامر للناس بالطاعة؛ فكتاب "السياسة الشرعية" لابن تيمية مثلا ماهو الا رسالة فى اصلاح الرعية، أما اصلاح الراعى فخارج عن ولاية الفقية الذى ماكان الا حلقة فى سلسلة الظلم، واضطهاد الرعية تبدأ بالفقيه المفوه، وتنتهى بالجلاد المجندِل، فلاعجب أن يطال جلاد الحاكم ظهور بعض الأئمة فى تلك العصور، ولم نقرأ تعليقا من أحد..

وقد اشترط هؤلاء الأئمة البيعة، والعدالة فى الامام، بينما تنازل من جاءوا بعدهم عن شرط البيعة عند اجتياح الصليبيين للعالم الاسلامى، واحتلال أجزاء منه، ثم المغول منهم الامام أبى حامد الغزالى(٤٥٠ - ٥٠٥هـ)(١٠٥٨ - ١١١٢م)، والفقيه محمد بن ابراهيم بن جُماعة(٦٣٩ - ٧٣٣هـ)(١٢٤١ - ١٣٣٢م)، ولم يروا بأسا بولاية الظالم، والجائر، والفاسق مادامت له القدرة على حماية الحدود، والسيطرة على الناس نزولا على حكم الضرورة، وأن الضرورات تبيح المحظورات، وهو مايعكس مدى تدهور الفكر السياسى لدى المسلمين، فاذا تولى الفاسق، والظالم، والجائر؛ فلماذا اشترطوا عليه أن يكون مسلما؟!.. فالأولى أن يكون كافرا حتى لايُتهم فى اسلامه بالظلم، والفسق..

ولايشذ ابن خلدون عن الأولين، والأخرين، ولكنه كان أدق فهما منهم، ففرق بين "المُلك"، و"الامامة"، فالمُلك ضرورة يفرضها الاجتماع الانسانى، بينما الامامة تختص بالاسلام، واقامة أحكامه، وابن خلدون "فقيه" قبل أن يكون

منظرا، ومؤرخا، والفقهاء همهم تنفيذ أحكام الشريعة التى يتفانون فى استنباطها، ولايستطيعون اقامتها الا عن طريق الخلفاء - والا أثاروا عليهم العامة باسم ضياع الشريعة - فالخليفة مضطر أن يؤيدهم، ويعطيهم درجاتهم، ومراتبهم خوفا من شعبيتهم، والتفاف الناس حولهم، ولذلك لم لايصبح لديهم حاكما مقبولا، طاعته واجبة على الرعية حتى لو كان فاسقا، قاتلا، سفاكا للدماء، فالمنافع متبادلة حتى لو أعرض الفقيه عن الخليفة، وانشغل الخليفة عن الفقيه..

أما الشيعة فلم يختلفوا كثيرا عن السنة فى هذا الأمر، ولكنهم أجلوه؛ فيرون أنه لاطاعة لحاكم ظالم، ويجب على الرعية الثورة عليه، فان سكتت الرعية فليس سكوتها طاعة له واجبة؛ بل اتقاء لظلم أفدح، وانتظارا للفرصة المناسبة..

لم يهدف الاسلام لخلافة، ولامُلك، ولم يقم رسول الله دولة، وماينبغى له، فالدولة تحمل معنى السلطان، والاستحواذ، والقوة، والغلبة، وهى كلها لله تعالى، وليست لأحد من البشر الا ماشاء الله، ولم يكن أبو بكر، وعمر خليفتين قط؛ وانما كانا امتدادا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتطبيق العملى لها فيما جد من أمور المسلمين فجمعا بين القيادة، والتوجيه بالزهد، والقدوة الحسنة، فكانت سلطة الأمة هى ضميرها الحى متمثلا فى الخليفة رمز العدالة، وحسن الخلق..

خطب أبو بكر فى الناس بعد أن بويع بالخلافة:

- "لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فان أحسنت فأعينونى، وان أسأت فقومونى، أطيعونى ماأطعت الله فيكم، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم"..

وفى خلافة عمر أكد أيضا حق الرعية فى مراجعته:

-"من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه".. فيرد عليه أحدهم:

-"والله ياعمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا"..

جعلها أبو بكر خلافة لرسول الله يثبت بها أركان الدين(فى غياب رسول الله)، ولم يجعلها مُلكا، ولا سلطانا، ولا دولة، ولا امبراطورية كسروية، أو قيصرية، أساسها الأمة المترابطة بالايمان بالله، والجهاد فى سبيله للدفاع عن الدين، فليس هناك مجالا لقيادة، أو سلطة، فيلقى أبو بكر بمفهوم الولاية - كما فهمه من القرآن والسنة - على الأمة بأن دورها لم ينته بالمبايعة، والاختيار بل هو ممتد فى ظهر الحاكم ان أحسن استخدام السلطة التى خولتها له الأمة، وتقويمه ان أساء استخدامها تقويما قد ينتهى بالعزل اذا استدعى الأمر ذلك، فالسلطة هى الأمة، أو من تقوم بتفويضه..

وعندما جاء عمر أقر نفس المبدأ، وسار فيه الى حد التقويم بالسيف، بل كان أول قراراته الادارية هى عزل القائد المعروف بمهاراته العسكرية خالد بن الوليد، وتولى أحد القادة العاديين من الأمة، فليس هناك فى الأمة مجال لمراكز القوى، والزعامات، واستغلال النفوذ، أليست هذه ديمقراطيتنا الأصلية أهملها فقهاؤنا، فاستوردنا غيرها؟!.. عندما جاءوا ليتفقوا كلهم على حق الخليفة على الأمة التى كرمها الله بالاسلام ليجعلوا منها قطيعا من الغنم أطلقوا عليه - مجازا - اسم الرعية..

من المصطلحات الأربعة فى القرآن وهى "الرب"، و"الاله"، و"العبادة"، و"الدين" يشكو "أبو الأعلى المودودى" فى مقدمة الكتاب من أن معانى ألفاظ القرآن قد حُصرت فى المعانى الضيقة، والمبهمة فى كتب اللغة، والتفسير فى القرون الأخيرة، فان الاله من يُعبد، والرب من يُربى، والعبادة هى الخضوع، والدين هو الملة، وهكذا حدد كل لفظ بالمفهوم الروحى، والدينى، وغابت المفاهيم، والمعانى المدنية، والسياسية التى كانت فيها؛ ذلك أن القدامى لم يفهموا الدين فهما صحيحا(على حد قوله)..

ويعلق وحيد الدين خان:

"لقد شرح المودودى فى كتابه معانى المصطلحات القرآنية الغامضة بأسلوب

سياسى، وفى ضوء مقدمة الكتاب يتبين لنا أن الناحية السياسية هى الهدف الحقيقى من القرآن، وهى ثلاثة أرباع تعاليمه، بل السياسة هى روحه الحقيقية، وهى المبدأ الأساسى فى القرآن، وغايته القصوى"..

ان الاسلام فى الحقيقة ينظر الى السلطة السياسية على أنها شىء مرغوب فيه، الا أنها انعام الهى لايستحقه أهل الايمان الا عند الوفاء بمسؤلياتهم من الايمان بالله، والعمل الصالح، والعبادة لله:

-**"وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا"** النور ٥٥..

يقيم عدد معتبر من المسلمين الدين الالهى فى أنفسهم أولا، حتى تظهر الفرصة السانحة(وهى ستأتى أيضا من الله منحة منه) لاقامة القوانين الدينية التشريعية، لكن هؤلاء الذين يقدمون أنفسهم- بهذه الطريقة الهمجية - هم فقط الذين يمكن أن يكافؤا بالتمكين من السلطة السياسية لكى يجلدوا الآخرين على ظهورهم، وهم بذلك يدخلون دائرة الفساد فى الأرض بغير حق، وهم حتى غير مستعدين لتحمل نقد الآخرين..

فى الآية ١٣ من الشورى:

-**"شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه"..**

يفسرها أبو الأعلى - بخلاف كل المفسرين - باقامة "الحكومة الاسلامية"، وتطبيق كافة القوانين الاسلامية باعتبارها نظام شرعى كامل، ولما كانت العقبة فى سبيل ذلك هى الدولة القائمة فلابد من معارضة حكومة هذه الدولة، وانتزاع السلطة منها، وهو ماسيؤدى محالة الى الحرب الأهلية بين المسلمين، والخسائر الفادحة فى الأرواح، والممتلكات فضلا عن تفرق المسلمين، فهل يصدر هذا التفسير عن رجل دين؟!.. أم رجل مخابرات أجنبية يعمل لحسابها،

فلو كان الأمر تطبيق القوانين الاسلامية؛ فلا بأس من طرحها للنقاش المجتمعى فى الدولة القائمة عن طريق المجالس النيابية، ولادعى اطلاقا الى معاداة الدولة القائمة الا اذا كان عميلا لمخابرات الغرب التى تريد القضاء على الاسلام، والمسلمين من داخلهم، فهم فى كل الأقطار الاسلامية ينتقدون الحركات التقدمية، والتجديد، وفكرة القومية، ويضعونها فى مقابل الدين حتى تصبح كفرا بواحا، فيحرضون الشعوب ضد دولهم لازالتها كما يحدث هذه الأيام فى بلاد المسلمين فقط..

وفى سبيل ذلك يقول أبو الأعلى المودودى فى "دستور الجماعة الاسلامية ١٩٤٨":

-"يضطر المؤمن الى القتال ليزيل كل مايعرقل سبيل اقامة الحكومة الالهية".. ويقول:

-"والذى يستسلم أمام حكم العباد فهو أيضا مجرم طاغ قياسا عليه، ومهمة المؤمن استئصال جذور هؤلاء الطغاة حتى لايبق على وجه الأرض الا حكم الله".. ويقول فى "المسلمون والصراع السياسى الراهن":

-"فى الحقيقة جاء الرسول بنظام دولة من عند الله؛ لامجال لخيار الانسان فيها، ولامجال لشخص أن يحكم على عباد الله فالحكم، والأمر لله".. ويقول فى "التفهيمات":

-"وتقوم الجماعة الثائرة العالمية التى يسميها القرآن "حزب الله" بالجهاد فى سبيل الله لنيل بغيتها، ومطلبها بأن تقتلع جذور أى حكم غير اسلامى ليؤسس مكانه بنيان حكومة مدنية اجتماعية متزنة".. ويقول فى "الخطب":

-"الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة فرضهن الله عليكم، وجعلها أركان الاسلام، انها فرضت لتربيتكم، واعدادكم لغاية مهمة، وعمل جاد وهو القضاء على سيطرة الجبابرة، والفراعنة"..

فهو يرى فى نظرته التحليلية للعبادات الاسلامية من زكاة، وصوم، وحج، وصلاة خاصة صلاة الجماعة خمس مرات كل يوم ماهى الا توحيد الجهود من أجل مجابهة طوائف الطواغيت الباغين على الله..

ويعلق وحيد الدين خان:

-"ان الغاية المقصودة أن يأخذ الدين طابعا سياسيا فبعثات الأنبياء كانت لأهداف سياسية، والأمة الاسلامية مع اعتباراتها السامية أصبحت جماعة سياسية، وظلت العبادات كتتمة للسياسة حتى التقوى، والاحسان ماهما الا نوعان من السياسة، وشهادة الحق هى شهادة السياسة، ومعراج النبى ماهو الا سَفر سياسى، بمعنى أن الدين بأسره أصبح مجموعة من الأجزاء التى لايعقل معناها، ولااعتبار لها الا بالسياسة"..

يقول الندوى فى "التفسير السياسى للاسلام":

- "تفسير اقامة الدين باقامة الحكم الاسلامى هو تفسير خاص يتميز بالطابع السياسى، ويدور حول حاكمية الاله، وسلطان الرب، ويحدد العلاقة بين العبد وربه فى مفهوم خاص، وفى حدود معينة، وينحصر به غرض نزول القرآن، والدعوة الاسلامية برمتها فى تأسيس الحكم الاسلامى، واقامة الحكومة الالهية فحسب، فالاله الحاكم، أو الاله الرسمى الذى ليس له لدينا سوى الطاعة الكاملة، والولاء، والاخلاص القهرى ليس هو الاله الرحمن الرحيم الذى نحبه، ونكثر من ذكره".. وهو تعالى يقول:

-"**فلا صدق ولاصلى**(٣١) **ولكن كذب وتولى**(٣٢)" القيامة..

والآيات تدل صراحة على أهمية العبادات، وأركان الدين التى يؤاخذ عليها المسلم، ويحاسب عليها يوم القيامة، أما اقامة الحكومة فلا شأن له بها كفرد، وكأمة فى حساب الله لعباده..

ان وجود الانسان لايتم الا بالله، وليس مرهونا بقانون، أو مؤسسة، أو دولة،

ولايمكن سيره فى الحياة الا وفق ميوله الشخصية، وارادته الحرة التى خلقه الله عليها، فهو اذن محكوم من نفسه، وعليه تجاه ذلك اقامة الدين فى نفسه، وفيمن حوله بقدر مايستطيع لينال رضى خالقه، وهو حر فى ذلك، ولايخضع لأحد، الا لخالقه، أما القول بمسئولية الحكومة القائمة عن ذلك فمحض هراء يتذرع به الطامحون للحكم لجلد ظهور الناس، أو الوقوف فى صفوف المعارضة باسم الدين، والتظاهر بالدين..

أبو الأعلى الهندى الجنسية هو المنظِّر لكل أطياف مايسمى بالاسلام السياسى، أو خلط الدين بالسياسة، ويتمحور فكره - على العموم - فى "الحاكمية"، و"التكفير"، و"التحريض" على دولهم بما يشى أنهم كانوا عملاء للمخابرات الغربية لتنفيذ أغراضهم، فهم رغم انتقادهم للغرب تكاد لاتجد أحدهم - وهم منهم بالتأكيد - الا أرسل أبناءه ليعلمهم الحياة الغربية، ونظم الغرب التي ينتقدونها ليل نهار أمام المسلمين المعدمين..

لقد كان أبو الأعلى من الداعمين الأساسيين لانفصال باكستان عن الهند حين قسمت بريطانيا شبه القارة الهندية عند الاستقلال سنة ١٩٤٧مع "محمد اقبال"، و"محمد على جناه"(الشيعى الاسماعيلى) مما تسبب فى مجازر شنيعة أسفرت عن مقتل أكثر من مليون نفس، واغتصاب مئات الآلاف من النساء، كما أُحرقت بيوت، وقرى، بل وأحياء بكاملها من المدن، وكلما مرَّ الزمن على تأسيس باكستان وفُتحت ملفات، وكُشفت أوراق تبين أن انفصال، و قيام دولة باكستان كان خطأ فادحاً، فلم تستطع باكستان أن تحل مشاكل المسلمين لا داخل باكستان، ولا خارجها، بل أصبح صراع السنة، والشيعة، والأقليات الأخرى أكثر منها في أي دولة من دول العالم، وإذا بالمسلمين في الهند الذين هم أقلية يبلغ تعدادها حوالى مائة وأربعين مليون نسمة في ظل صعود الديمقراطية الهندية ونجاحها، لا يعاملون بأسوأ مما تعامل به باكستان مواطنيها المسلمين، وهي الدولة التي قامت أساساً لحماية المسلمين، بل على العكس فدماء المسلمين التي

أهدرت في باكستان بين جناحها الغربي(باكستان) اليوم، وجناحها الشرقي(بنجلادش) أكثر مما أهدر من دماء المسلمين في الهند، وصار أبو الأعلى من أول من استعانت به المخابرات الغربية فى هدم الدول المسلمة التى تحررت من الاستعمار، ثم تبعه سيد قطب فى مصر بنفس الأفكار..

وفى العصر الحديث هاجم "قاسم أمين" نظام الخلافة فقال:

-"انها نظام يقوم على أساس خليفة، أو سلطان غير مقيد؛ يحكم موظفين غير مقيدين، فهو صاحب الأمر، والنهى، ان من أسباب نكبتنا أننا نسند حياتنا على التقاليد التى لم نعد نفهمها، ونحافظ عليها فقط لأنها من الماضى"..

أما "محمد عبده" فقد قال عنها:

-"ان السيادة قسمان؛ سيادة عليا يختص بها الله تعالى، وسيادة أقل درجة يختص بها الشعب، وعليه ممارستها، ومن هذه السيادة تكتسب الأمة شرعية دورها كمصدر للسلطة؛ أما الحاكم فيكتسب سلطته من الشعب، ومن الضلال القول بتوحيد الاسلام للسلطتين المدنية، والدينية، فهذه الفكرة خطأ محض، ودخيلة على الاسلام، ومن الخطأ القول أن السلطان هو مقرر الدين، وواضع أحكامه، ومنفذها، ولم يعرف المسلمون فى عصر من العصور السلطة الدينية"..

والخلاصة كما يقول:

-"ان الايمان بالله يرفع الخضوع، والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية، وهى دعوى القداسة، والوساطة عند الله؛ دعوى التشريع، والقول على الله بدون اذن الله؛ فالمؤمن لايرضى أن يكون عبدا لبشر مثله"..

ورد حوار فى كتاب "الكامل لابن الأثير" دار بين "عمر بن الخطاب" فى أول خلافته، و"المغيرة بن شعبة" الذى ناداه:

-"ياخليفة الله".. فأجاب عمر:

-"ذاك نبى الله داود".. فقال المغيرة:

-"ياخليفة رسول الله".. فأجاب عمر:

-"ذاك صاحبكم المفقود"(يقصد أبى بكر).. فقال المغيرة:

-"اذن أناديك ياخليفة خليفة رسول الله".. فقال عمر:

- "ذاك أمر يطول".. فما كان من المغيرة الا أن ناداه ياعمر، فقال عمر:

- "لاتبخس مكانى شرفه، أنتم المؤمنون، وأنا أميركم"..

ومن هنا دعاه المسلمون "أمير المؤمنين".. ومن الحوار نستنتج أن اللقب جاء باقتراحات بشرية بحتة، واثر مناقشات طويلة حتى استحسنوه، واتفقوا عليه، فانتشر بينهم لدلالته القريبة، وسهولة تداوله على الألسنة، ثم تحول المنصب السياسى من بعد عمر الى صراعا قبليا، وطائفيا، ومصالح بشرية بحتة أدت الى صراعات دموية خلت من الوازع الدينى رغم اقحام الدين ظلما، وعدوانا لافتعال القداسة، واستنفار البسطاء ليكونوا وقودا شرعيا لهذا الصراع السياسى البحت؛ وتفادوا الأحاديث الصريحة، والقاطعة فى هذا الأمر، والتى منها:

-"اذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل، والمقتول فى النار"..

وقد أدى التمسك المرضى بالخلافة الى:

- صراع سنى شيعى..
- استهلاك طاقة الدفع الاسلامى، والدعوة الى الدين فى حروب بينية، وأمراض، ومجاعات أدى الى طمع القوى المحيطة فى بلاد الاسلام بالغزو، والاحتلال كالمغول، والصليبيين..
- استنفار القوى الخارجية بسبب تصرفات بعض الخلفاء باستظهار الحماس الدينى ضد الطوائف غير المسلمة فى الداخل، والخارج لجهل مستشاريهم، وبطانتهم من سفهاء الفقه، وجهلة الدين؛ كما حدث من "خوارزم شاه" من استعداء للمغول بغير سبب، ومن الحاكم بأمر الله

الفاطمى من استعداء للصليبيين الأوروبيين عندما هدم كنيسة القيامة بالقدس، ومنع حجاجهم من الوصول اليها..

وكانت المعاملة بالمثل فالقوة ليس هناك من يستحوذ عليها طوال التاريخ، أو طوال دولته، فكما كان المسلمون يفعلون فى قوتهم من قتل، وأسر يُفعل بهم فى ضعفهم لأنهم اتخذوا القوة سبيلا فى الدعوة الى الله، وليس الموعظة الحسنة كما أوصى تعالى فى كتابه؛ فكان البيزنطيون اذا غزوا بلاد الاسلام سَبُوا كثيرا من أولاد المسلمين، وربوهم على النصرانية، ثم جعلوهم جندا يقاتلون المسلمين؛ فعندما استولى "نقفور فوكاس" على حلب سبى عشرة آلف ولد من أهلها، ورباهم فى دار ملكه، وعمّدهم، وجعلهم من أفضل جنوده، وعندما استولى البطريق "ميخائيل بورسيزيس" على أنطاكية سبى من أولاد المسلمين عشرة آلاف، ورباهم فى القسطنطينية على الجندية فصاروا نصارى يحاربون المسلمين..

ولم يدرك الأولون، والآخرون التفريق بين مصطلحين، أو تعريفين سارت عليهما البشرية منذ فجر التاريخ، وهما "الحضارة، والقيم Civilization"، و"المدنية، أو التمدن Modernization"، ولم يفهموا أن الحضارة، والقيم تسرى بالدفع الذاتى الداخلى، وفى سبيل هذا الدفع تمتطى صهوة المدنية، أو التمدن؛ وتتجلى الحضارة، والقيم هنا فى تعاليم الدين الاسلامى القائمة على العدل، والمساواة التى كانت البشرية فى أمس الحاجة اليها فى ذلك الوقت، كما تجلت المدنية، أو التمدن بالأخذ بما كان موجود فى هذا العصر من انشاء للدووابن، وتنظيمها، وتعريبها، واستخدام المتاح من غزو، واقتناء للسلاح، وتصنيعه من سيوف، وخلافه، واعداد السفن، والركائب من خيل، وغيره، فنشروا الاسلام بالفتوح، ثم ظلوا فى البلاد المفتوحة، ولم يخرجوا منها؛ بل حكموها، ولم يدخل فى الاسلام كل سكان هذه البلاد، لأنهم لم يكونوا قدوة حسنة للاسلام كما كان أبو بكر، وعمر، ولكنهم اكتفوا بالجزية، وطمعوا فى

أموالها(كان نظاماً مفروضاً على المهزوم فى الحروب التى قامت طوال التاريخ، ولم تكن تفرض للاذلال، ولكنها فرضت لدخول المهزوم فى حكم المنتصر الذى أصبح فى عداد من يدافع عنهم بجيشه؛ لأن المهزوم تفرق جيشه الذى كان يدافع عنه)، ولم تكن أبداً نظاماً اسلامياً الا للعقوبة، وتصغير الشأن لمن سولت له نفسه التطاول على القيم الاسلامية فقط من غير المسلمين مثل شرب الخمر، وقطع الطريق، وخلافه كما نصت الآية:

-"**قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**" التوبة ٢٩..

ومن هنا تتناقض طبيعة الدولة الدينية مع مبدأ التسامح الدينى، فصاحب الدين عادة مايراه حقا مطلقا، ويرى المخالفين لدينه على باطل، ويجب استمالتهم الى دينه، فان لم يستجيبوا وجب قتالهم، وجهادهم حتى يدخلوا مرغمين، والا فرضت عليهم الجزية التى ماكانت الا أمرا مفروغا منه على المهزوم فى عصر نزول القرآن، ولم يبين القرآن، ولا السنة الهدف من أخذ الجزية بعدم تجنيدهم فى الجيوش الغازية، أو المدافعة لابعادهم عن تحديد مصير الدولة الاسلامية كما ذهب الفقهاء، وهو أمر مردود عليه؛ فاذا كانوا هملا لاقيمة له فى الدولة الاسلامية فلماذا تأخذ منهم الجزية؟!.. ولكن الجزية التى قصدها القرآن ماهى الا اذعان من أهل الكتاب الذين يثيرون القلاقل، والمشاكل فى الدولة الاسلامية مجاهرين بأخلاقهم الفاسدة التى تخالف أخلاق الدولة، فقد كان الواقع التاريخى وقت انتشار الاسلام يحدد هوية الأفراد، والتزاماتهم، وحقوقهم فى المجتمعات المختلفة بحالتهم الدينية، أى معتقدهم، فلم يكن هناك بعد مفهوما محددا للدولة، أو الحكومة، أو المواطنة(بمدلولها العصرى) فالدين هو الوطن(ينادى البعض هذه الأيام بهذا الشعار ممن توقف نموهم العقلى عند العصور الوسطى)، لأن المسلم فى البلاد

المسيحية غيره فى البلاد الاسلامية والعكس، فكانت هويته تتحدد بناء على صلته بالراعى أميرا، أو حاكما، أو واليا(كما فعل المسلمون عندما هاجروا الى الحبشة، وذهبوا مباشرة الى النجاشى الحاكم)، ولاتتحدد بناء على الوطن، أو المدينة الا اضافة الى اسم الشخص تمييزا له عن غيره مثل المعرى، والقفطى، والنيسابورى..

وطوال التاريخ الهجرى اندفع الاسلام فى الفراغ القيمى حول مركزه فى المدينة المنورة، وكان يقوم، ويقع بالغزوات المباغتة فى الاتجاه المعاكس للغزوات من مغول، وصليبيين حيث عملت الفتوح الاسلامية على التحفز للاسلام، والعمل على تحجيمه فى بلاده التى انتشر فيها، والطموح فى القضاء عليه، ولكنه كان يقوم بالدفع المدنى، أو التمدنى على الأرض، فالسيف بالسيف، والحصان بالحصان، والمنجنيق بالمنجنيق، وهكذا، فساعدت المدنية الاسلام فى العصور الوسطى حتى أصبح الاسلام يهدد كثيراً من الشعوب، وهو ليس دين هجوم، بل هو دعوة، وموعظة حسنة للناس لم يحملها الفقهاء، والمفكرين من الأمة بل دخلوا بها فى دهاليز الفلسفة، والتعقيد، فحملها الفرسان على أسنة الرماح فخاف منها الناس، وبدأوا يعملون على حصار هذه الموجة التى تتقدم بالمدنية، أو التمدن فقط، حتى سقطت نهائيا فى العصر الحديث حيث سقطت المدنية الموجبة للمسلمين، وبدأوا فى استخدام المدنية السالبة الآتية من الغرب الذى تقدم عليهم، وجاءت معها القيم الحضارية الغربية التى يرفضها دعاة الاسلام هذه الأيام، ويريدون أن يحيوا الاسلام بالمدنية مرة أخرى، وهم لا يملكون من أدواتها شئ فى العصر الحديث كالأسلحة الفتاكة المتقدمة، ومظاهر المدنية الأخرى من طائرات، وسيارات أصبح المسلمون مستهلكين لها فقط، ومع ذلك لم يرجع مرة أخرى للقاعدة الالهية فى نشر الاسلام وهى "الحكمة"، و"الموعظة الحسنة"، بل ساروا بها كما سار الأولون الذين أخطأوا فى حق الاسلام كدعوة عالمية، بالحكمة، والموعظة الحسنة..

ولم يكن الدفع بالفرسان من أجل اعلاء كلمة الله، والشهادة فى سبيله فقط، فما كان يحدث هو اعتداء واضح لم يكن يعرض فيه الاسلام على أحد قبل اعلان الحرب، والغزو؛ كما كان يوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ارسال السرايا، وقد نهى الله تعالى عن الاعتداء، وكرهه لهم لأنهم أصحاب دعوة لدينه، فكل البلاد المفتوحة يقل فيها عدد المسلمين عن تلك التى أسلم أهلها عن طريق التجار، والصوفيين؛ فنلاحظ أن النذر اليسير من سكان هذه البلاد لم يدخلوا فى الاسلام، بينما نرى أن هذا العدد يزيد كثيرا فى البلاد المفتوحة، بل أن البعض منهم ارتد عن الاسلام لأنه أسلم خوفا من دفع الجزية، أو خوفا من مضايقات بعض المتعصبين من الطارئين على البلاد، كما كان الدفع بالفرسان فى الفتوحات يخفف من حدة الخلافات السياسة، والانقسامات داخل الخلافة الناشئة، ويشتت الأصوات المعارضة للحكم السياسى بصرف الأنظار خارج البلاد بعيدا عما يحدث فى الداخل، وهو ماتمارسه بعض الدول حتى يومنا هذا..

ولقد ابتدأ المسلمون بطور المبادرة، والمبادأة، ثم انتقلوا الى طور انتظار الفعل، ليبدأ طور رد الفعل بعد ذلك، ثم الطور الأخير الذى نعيشه هذه الأيام، وهو توقع الفعل، وانتظاره، ولارد، ولاأمل أيضا فى أى رد، وهذا مافعله المسلمون بالاسلام عندما جعلوه مقترنا بسيوفهم، وقوتهم الحربية فى انتظار المغانم، وهى ليست مستمرة على الاطلاق كسنة كونية لقوله تعالى:

-"**وتلك الأيام نداولها بين الناس**" آل عمران ١٤٠..

فهى بين "الناس" كافة، ولم يقل بين "المؤمنين"، فلو ظل الاسلام دعوة مثل زمن النبى صلى الله عليه وسلم لتغير وجه العالم:

-"**وماأرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا**" سبأ ٢٨..

ومن هنا دخل المسلمون فى سنة الخلق، فداروا مع الزمان، والحوادث مثل غيرهم، وأصبحوا لايتميزون بما يطلبونه من الله دون غيرهم..

وعندما انحصر الدفع الاسلامى خارجا،؛ أصبح منحنياً على نفسه فدارت المساجلات بين علىّ، ومعاوية، حتى استقرت دولة بنى أمية لتشغل الناس مرة أخرى بالفتوحات التى ماان فترت حتى قامت الثورات فى أركان الدولة، بما ينم عن الغليان، وقسوة الحياة، وظلم الدولة..

اتخذ الأمويون الأسلوب البدوى الصارم دون الالتزام بالقيم الاسلامية السمحة نظراً لطبيعتهم البدوية الجافة، فكانت القبائل العربية، وسيوفها هى عماد الدولة، بينما لم يجد حملة الدين من يبشرونهم بالدين إلا أهل الحرف، والفلاحين، والغوغاء..

ثم حاول العباسيون الرجوع بالدولة إلى الدين فلم يفلحوا فى ذلك إلا ظاهرياً فقط بأن قربوا الفقهاء، وأهل الحديث، ولكنهم تصرفوا فى الحكم كأسلافهم الأمويين..

ولاأعتقد أن المتشدقين بالخلافة من أجل وحدة الأمة قد أحاطوا بشىء من تاريخ هذه الأمة، الذى نشأ فيها كثيرا جدا من الدول المتناحرة، والمتمذهبة بالمذاهب المتنافرة، ولم نعرف بينها اتحاد يذكره التاريخ لهم فى يوم من الأيام، بل العجيب فى التاريخ الاسلامى نشوء دولة فى قلب الدولة، وهى نادرة من نوادر التاريخ، يعنى الدول المتراكبة فى المكان الواحد من شدة النزاع على الحكم، كما حدث فى بغداد أبان حكم أواخر الخلفاء العباسيين..

وهم لايدركون كثيرا فلسفة التاريخ فربما قرأوه منفصلا، أومتقطعا كما كان حال الدول الاسلامية المتناحرة دوما، والتى كانت تجد مصالحها الكبرى مع أعداء الأمة، والمتربصين بها أكثر من الدول الاسلامية التى على دينها، والمحيطة بها، ولكنها مختلفة معها فى المذهب، كما كان الأمر بين الدول الشيعية، والدول السنية مثلا؛ فقد كانت القدس تسقط فى براثن الصليبيين بقسوة، بينما كان العباسيون السنة فى بغداد، والفاطميون الشيعة فى القاهرة يكيد كل منهما للآخر، ولايعير أى منهما أدنى التفات لمن يُذبحون ذبح الشياه

فى البلدة المقدسة، ولاللمسجد الأقصى الذى حوله النصارى بين يوم وليلة الى كنيسة، ومذبح، واسطبلا للخيول، وبات المسجد، ورواده المذبوحون ينعون مجد الخلافة فى كل من القاهرة، وبغداد الغارقين فى الشراب، والنغم، والرقص، وخلفاء الندامة على الأمة المنكوبة فيهم يعتلون ظهور الغلمان، وبطون الجوارى..

ان الدول التى سيطرت على مساحات كبيرة من الزمان، والمكان بالجيوش، والسياسة كالامبراطورية الرومانية، والامبراطورية العثمانية الاسلامية، والامبراطورية البريطانية العظمى التى لاتغرب عنها الشمس لم يكن لها نتاج حضارى معروف اللهم الا المدنية، والتقدم التكنولوجى المحدود من نهب المستعمرات، وجهود الشعوب المحتلة قهرا لانشغالها باخطاع شعوب المستعمرات، والحفاظ علي مواردها من أجل الحشد العسكرى، والتسليح الذى كان يستهلك طاقة الامبراطوريات، فلا نكاد نعثر كثيرا على انجازات حضارية مؤثرة فى أى من الامبراطوريات المذكورة الا فى الغزو، والفتح، واخماد الثورات، ولانكاد نعثر لها على مزية تاريخية سوى اعداد الجيوش، وانفاذها من أجل الاستعمار، وقهر الشعوب، والحصول على قوت جيوشها الزاحفة على بطونها، والكل يعرف مدى الانحطاط الحضارى الذى بلى به المسلمون طوال سنوات الامبراطورية العثمانية، وهو مشهور فى التاريخ فى كافة المجالات، بل لم يكن العثمانيون ممانعين للحضارة فقط كالامبراطوريتين الرومانية، والبريطانية للأسباب التى ذكرنا، ولكنهم كانوا سالبين لها من مواطنها - رغم ندرتها - عندما اقتاد سليم الأول من مصر بعد احتلالها كل أرباب الصناعات، والفنون الى عاصمة ملكه فى الأستانة..

لم يعتمد الانتاج الحضارى يوما من الأيام على الدول، والامبراطوريات - كما يظن البعض - ولكنه اعتمد فى الأساس على رعاية القوميات، والعصبيات، والعائلات مثل العائلة الأموية، والعباسية فى دمشق، وبغداد فى عهد الخلفاء الأقوياء، وكذلك اعتمدت على آل مديتشى فى ايطاليا أبان عصر النهضة رغم

تطلع ايطاليا الى من يوحدها فى ذلك الوقت، كما اعتمد الانتاج الحضارى على الأفراد، والزعماء فى بعض المناطق، ولم تكن الحضارة الاسلامية يوما من الأيام وليدة الاتحاد، والامبراطوريات، ولكن المتصفح للتاريخ يجد أن أصحاب الانتاج الحضارى الاسلامى كانوا متناثرين على مساحة كبيرة من الزمان، والمكان، ولم نعثر فى التاريخ الامبراطورى الاسلامى على مجامع للعلماء فى مكان ما، أو زمان ما على طول التاريخ الاسلامى..

بدعة الخلافة وانحسار الدعوة الى الاسلام:

مالخلافة الا انتهازية مغرضة، ونهبا استعماريا لصالح طبقة ميزت نفسها من الأمة باكتساب القداسة الدينية، للسيطرة على مقدرات الشعوب المطحونة بشظف العيش، وماهى الا كهانة سياسية ورثت الكهانة الدينية التى حرّمها الاسلام عندما أصبح الأمر توفيقا، وتلفيقا للنصوص المقدسة فى غير مانزلت من أجله، فلم تبعد الخلافة كثيرا عن حكم كسرى، وقيصر الا فيما طرأ من مظاهر اسلامية لاتفيد العوام المحرومين فى شىء؛ حتى أن فقهاء هؤلاء الخلفاء كانوا يحتقرونهم، وينتقون لهم أحط المصطلحات اللغوية مثل "العامة"، و"السائمة"، و"الرعاع"، فلم تكن هذه المصطلحات من اختراع الشعراء، ولا المغنيين، ولاالندماء، ولكنها مصطلحات الفقهاء، الذين يعلمون جيدا أن الناس كأسنان المشط، لافرق بين عربى وعجمى الا بالتقوى، وظلت تستخدم الى يومنا هذا، وكأن الله عفى هؤلاء الرعاع من حسابه لهم، وجعلهم فى جملة الهمل من الخلق المسخرين مثل الهوام، والحشرات، والطير، والوحش، ولم يكن فى الخلافة مايمت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعصره بسبب، وهو الذى مات فقيرا قد رهن درعه عند أحد اليهود، فهل حدثنا التاريخ عن خليفة مات فقيرا؟.. أو رهن شيئا من متاعه؟.. ولم يكن متاعا بل درعا، هذا الرسول النبيل الذى كان يتخلى عن ما فى يده، أو ماعلى جسده من متاع الدنيا راضيا اذا أأومأ اليه أحد أصحابه الفقراء، أو غير الفقراء بأنه معجب به، أو يتمناه..

ان الذين يخلطون السياسة بالدين كمن يخلط السم بالعسل، ويتصورون - جهلا، وغباء - أن الدولة الدينية، والحكم الدينى يقضى على الرذائل، ويقيم الحدود، وكأن الدين وحده لايستطيع أن يمنع الرذائل، ويقيم الحدود بواسطة القضاء، والتشريع فى الدولة الوطنية، فكم فى الرذائل كانت موجودة فى حياة النبى الكريم، والا لما نزل عليه القرآن منجما حسب حاجة المجتمع، وحاجته لحل مشاكله المزمنة، والطارئة مثل التبنى، واكراه الجوارى على البغاء، فلم يجرد الرسول لذلك الجيوش، ولا وقف موقف المراقب المرتاب فى الناس، ولاعيّن البصاصين، والرقباء، حتى الحدود التى أقامها فى حياته ماكانت الا اعترافات أصحابها - طهرة، وسموا أخلاقيا - حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستدرك عليهم، ويتأكد من خلوهم من التهور، والجنون، والميل الى الانتحار، وجلد الذات فيمن يعترف على نفسه، ورد احدى المعترفات بالزنا، وأمهلها حتى تلد، وتتم الرضاعة قبل أن يقيم عليها الحد، وهو بذلك لم يخرج عن كونه الرحمة المهداه للعالمين:

-"**وماأنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**" ق ٤٥..

-"**فذكر انما أنت مذكر**(٢١) **لست عليهم بمصيطر**(٢٢)" الغاشية..

يقول الشيخ محمد الغزالى فى كتابه "الاسلام والاستبداد السياسى":

-"الخلافة فى الاسلام نيابة عن النبوة فى رعاية شئون الدين، والدنيا؛ فهى زعامة روحية، ومدنية لاتتوفر خصائصها الا فى قلة من الرجال الموهوبين الممتازين"..

ولم يذكر الشيخ ماهى الأدلة التى استند اليها من القرآن، والسنة على أن الخلافة جعلها الله، أو الرسول نيابة عن النبوة، وكأنهم يرون الدين ناقصا من غير الخلافة، ويستدركون على الله - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا - الذى أكمل الدين بلا خلافة، أو يستدركون على النبى الكريم الذى ترك فينا القرآن، والسنة وطالبنا بالتمسك بهما لأنهما هما الدين وليس سواهما، ولم يشر الى الخلافة من قريب، أو من بعيد ولو حتى بحديث ضعيف..

ألم يؤدِ الرسول رسالته التى شهد ربه - الذى أرسله - أنه بلغها على خير مايرام، بعد أن تحمل فى سبيلها مالايطاق، وأشهد الرسول الناس على أنه بلغهم هذه الرسالة، فان كان الرسول قد تحمل فى الرسالة ماتحمل فكيف يوكل أمرها الى مجنون، أو طفل عليه أوصياء، أو أهل عقد، وحل لايخلو اختيارهم من المجاملة، والمصلحة، ناهيك عن العصبية القبلية التى لازالت موجودة الى يوم الناس هذا، ويتركها لهم صائغة سهلة للمتعة، والمصلحة ناهيك عن الأبهة، والاختيال بها على الناس وكأنها قطعة أرض، أو قطعة قماش، أو جمعية، أو مؤسسة، أو حتى دولة لدين لم يأت لدولة أصلا، وبنبى لم يبعث ليقيم دولة؛ فقد كانت الدول وقتها، وقبلها، وبعدها من أقوى مايكون، وقد أجاد الانسان تنظيمها بعد قيامها، وقام بتوطيدها، والحفاظ عليها من أعدائها، والمتربصين بها، أما الرعية فقد تركوها هائمة بلا روح تهديها الى خالقها الذى سترجع اليه يوما لامحالة، ليحاسبها على مااقترفت من أعمال، فلا حاجة لله تعالى فى اقامة دول هدى البشر الى اقامتها؛ كسبب من أسباب حياتهم على الأرض كالأكل، والشرب، وارتضوها لتنظيم حياتهم، وتأمينها؛ ولكنه تعالى فرض لهم ميعادا يرجعون اليه من عناء الدنيا، فبعث الأنبياء، والرسل بدينه، وكتبه، ليثابوا بأعمالهم المخيرين فيها..

فالله تعالى أراد الدين نبوة، لامُلكا، وهداية، لاحكومة، وموعظة، لاسوطا، وقد أعطانا مثلين مختلفين للمُلك، والحكم لذلك القائد العسكرى الذى ملك الأرض فى زمنه بدينه، وأخلاقه، وحسن معرفته لله؛ ففوضه الله حقه فى الحكم بين عباده لعدله، ورجحان عقله:

-"**قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا**" الكهف ٨٦..

وفرعون الذى استهزأ بالدين، وتنكر لله، ورسله، بل تجاوز، وفرق بين عباد الله فى رعيته التى جعلها شيعا، وعذب طائفة منهم، واستعبدهم..

وبعد فليس هذا المؤَلف كتاب تاريخ، ومجد، ولاقصدنا به التأريخ المتداول

للمسلمين من عدل عمر، الى تقشف عمر بن عبد العزيز، الى صوائف وشواتى هارون الرشيد، الى كفاح صلاح الدين، الى فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح، ولكنه كتاب يستجلى تاريخ المسلمين المطمور فى الصحف، والمدفون فى مراجع التاريخ الكبرى الذى قُصد أن نعلم منه شذرات ناصعة تكاد تنطمر تحت ركام هائل من الأحداث الذى يندى لها جبين الزمان، ولايصح أن تصدر عن دول، وأفراد دينها الاسلام، فلم نجد دولة فى التاريخ تمزقت شر ممزق الا الدول الاسلامية التى تكونت فى فجر الاسلام، أو فى التاريخ المعاصر، حتى الدولة المغولية التى كانت جيوشها كالسيول الجرارة تشرزمت عندما دخلت فى الاسلام، وتمزقت شر ممزق، ولابد له من ذلك فهو دين البشر فى كل زمان، ومكان، والبشر خلقهم الله مختلفين، فاذا دخلوا فى الاسلام اختلفوا لتفرق الأهواء، والمصالح، والسياسة التى دخلوا بها فى الدبن، ولم يستطيعوا التخلص منها الا من رحم ربى:

-"**وماالختلف فيه الا الذين أتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم**".. البقرة ٢١٣..

فالبغى هو مناط الاختلاف عندما تتداخل السياسة، والمصالح، وصراع الحكم فى الدين القويم..

وما محمد إلا رسول
(٥٢ق.هـ - ١١هـ) (٥٧٠ - ٦٣٢م)

يقول المفكر "روجيه جارودى" فى احدى محاضراته:

"-وقد بهرتنى للغاية قدرة الرسول صلى الله عليه وسلم على انشاء مجتمع مثالى لايستقى أسسه من أى من المجتمعات السابقة له، فلا هو أقامه على صلة العرق، والدم التى كانت تقوم عليها القبائل، ولاعلى ملكية أرض كالامبراطوريات، ولاعلى مجتمع الأسواق كالمدن الاغريقية، ولاحتى على وحدة الثقافات التى لم تظهر فى عهد الرسول، وأين كان الاسلام بعد وفاته؟.. انتشر فى دول كانت تزخر بثقافات متباينة، فأعاد احياء تلك الثقافات، ووحد شملها بوحدة العقيدة، واللغة"..

لقد خُير محمد صلى الله عليه وسلم بين أن يكون بشرا رسولا، وبين أن يكون ملكا رسولا؛ فاختار أن يكون بشرا رسولا، يجوع يوما، ويفطر يوما مصداقا لقوله تعالى: -**"ومامحمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم"** آل عمران ١٤٤..

ولم يعيَن القرآن له خليفة، ولا عيَن لنفسه صلى الله عليه وسلم، ولاجعل الله له ابنا يرثه، ويحمل رسالته؛ كما ورث سليمان داود عليهما السلام..

فليس النبى ملكا، ولا رئيس حكومة، ولا جبارا فى الأرض؛ فعندما عرضت قريش عليه المُلك، والجاه، والسلطان قال لهم:

-"لست كأحدهم انما أنا رحمة مهداه"..

وعنما دخل عليه عمر يوما ليجده مضجعا على حصير أثرت فى جنبه فقال له:

-أفلا تتخذ لك فراشا وطيئا لينا يارسول الله؟.. فأجابه:

-"مهلا ياعمر أتظنها كسروية؟.. انها نبوة، لامُلك"..

رأته عائشة يتألم من الجوع فقالت:

- يارسول الله ألا تستطعم الله فيطعمك؟.. فقال:

- "والذى نفسى بيده لو سألت ربى أن يجرى معى جبال الدنيا ذهبا لأجراها حيث شئت من الأرض، ولكنى أخترت جوع الدنيا على شبعها، وفقر الدنيا على غناها، وحزن الدنيا على فرحها، ياعائشة؛ ان الدنيا لاتنبغى لمحمد، ولا لآل محمد، ياعائشة؛ ان الله لم يرض لأولى العزم من الرسل الا الصبر على مكروه الدنيا، والصبر على محبوبها، ولم يرض الا أن يكلفنى ماكلفهم فقال: "واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل".. والله مالى بد من طاعته، وانى والله لأصبرن كما صبروا جهدى، ولاحول ولاقوة الا بالله"..

كما قال لأصحابه:

-"ان أقربكم منى مجلسا يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ماتركته فيها"..

فلم يكن النبى الكريم حريصا على أن يكون حاكما لأن مقام الرسالة أرفع، وأجل، وماكان النبى الكريم ليفاوض، ويعقد المعاهدات، ويقود الجيوش، ويمارس كثيرا من مظاهر السلطة لولا موقعه المتقدم فى جماعته المسلمة، والمسئول عنها، وعن وضع أسس للفرد المسلم الذى سيتقدم قومه يوما فى المفاوضة، والمعاهدة، والمسئولية المدنية، وقيادة الجيوش فيكون لهم الأسوة الحسنة فى ذلك:

-**"لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا"** الأحزاب ٢١..

لقد بكى رسول الله عندما مرت به جنازة أحد اليهود، ولما سئل عن سبب بكائه قال:

-"نفس أفلتت منى الى النار"..

ومن قوله هذا يتضح احساس النبوة، والرسالة، وليس احساس الحاكمية، والمُلك فيقول:

-"ان مثلى ومثلكم كمن أوقد نارا وانى لآخذ بحجزكم حتى لاتقعوا فى النار، ولكن منكم من يقع"..

هكذا كان الرسول الكريم يعى دوره، ورسالته..

عن الحارث بن مسلم قال:

- بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية، فلما بلغنا المغار اسحثثت فرسى فسبقت أصحابى، فتلقانى أهل الحى بالرنين فقلت لهم:

- قولوا لااله الا الله تحرزوا فقالوها، فلامنى أصحابى وقالوا:

- حرمتنا الغنيمة..

فلما قدمنا على رسول الله أخبروه بما صنعت فدعانى فحسن لى ماصنعت ثم قال لى:

- "أما أن الله تعالى قد كتب لك بكل انسان منهم كذا وكذا من الأجر".. وقال:

- "أما أنى سأكتب لك بالوصاة بعدى".. ففعل، وختم عليه، ودفعه الىّ..

يعنى كتب له وصية للخلفاء، والأمراء من بعده ينتفعوا بها عن سياسة الحرب، والدعوة فى الاسلام..

وقد احتوى القرآن الكريم على كثير من الآيات التى حددت بدقة متناهية توصيف المهمة التى بعث من أجلها النبى، والأنبياء عموما:

-"**ياأيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا** (٤٥) **وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا** (٤٦)" الأحزاب..

-"**وماأرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا**" سبأ ٢٨..

-"**انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا**" البقرة ١١٩..

-"**ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا**" النساء ٨٠..

-"**وماأرسلناك عليهم وكيلا**" الاسراء ٥٤..

-"**انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا**" فاطر ٢٤..

-"**وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا**" الاسراء ١٠٥، الفرقان ٥٦..

-"**انما أنت منذر ولكل قوم هاد**" الرعد ٧..

-"**وان تولوا فانما عليك البلاغ**".. آل عمران ٢٠..

-"**أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**" النحل ١٢٥..

وقد جاء الوحى مفصلا قاطعا فيما يختص بالله، ووحدانيته، وصفاته، وكيفية عبادته، ولم يكن كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للأسرة، والقرية، والمدينة، والدولة، وعلاقة كل منهم بالآخر لعلمه تعالى بتغير الأزمان، والبيئات، ومايستجد من أحوال الناس..

وعلى الذين يتقولون على الرسول الكريم فى أنه أقام الدولة فى المدينة أن يثبتوا ذلك من القرآن الذى حثه، وحثنا على اقامة الدين بآيات صريحة واضحة، ولم يطلب منه، ولا منا اقامة الدولة، وأرى أنهم بذلك ينقصونه نبوته، ورسالته التى بعث فقط من أجلها، أو يتهمونه بأنه خالف الوحى الذى أنذره بالعذاب الشديد اذا هو غير فيه:

-"**ولو تقول علينا بعض الأقاويل** (٤٤) **لأخذنا منه باليمين** (٤٥) **ثم لقطعنا منه الوتين** (٤٦)" الحاقة..

وأين هى الدولة التى لم يكن لها جيوشا نظامية، ولا حكومة، أو وزيرا، ولا بيتا للحكم كما هو معروف عن الدول، وكانت جيوشه صلى الله عليه وسلم تعد - على كره منه - كجهاد من الفقراء، وتبرعات، وهبات من الأغنياء مثل جيش العسرة، وغيره؟..

ألم يكن من الحكمة فرض ذلك على المسلمين فرضا من أموالهم، وأنفسهم؟.. ولكن جعلها الله قربة اليه اذا اضطروا الى هذا الجهاد للدفع عنهم دون اعتداء، وقد جعل لرسوله، وللمحتاجين نصيبا مفروضا من غنائم الحرب، ولم يترك الأمر كله للمحاربين حتى لاتكون ارتزاقا، ووظيفة لملك عضوض كما فعل المسلمون بعد ذلك، فلو كانت مُلكا، ودولة ماقبل رسول الله أموالا من أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، ولكنها دعوة خالصة يجود فيها كل بما عنده، وليس الزاما، وشرعا كالصلاة، والصوم..

وهل عرض الرسول الكريم دعوته على الملوك، ورؤساء الدول حوله كنبى، ورسول؛ أم حاكما للجزيرة العربية؟..

ولماذا تقبلوها منه، أو رفضوها كدين، ورسالة؟.. وليست دعوة ملك، أو حاكم يريد المُلك عليهم، أو غزوهم فوجب عليهم نزاله، واقافه عند حده، وهو مالم يحدث..

-"**ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**" **الأحزاب٤٠..**

نفى الله عنه البنوة لأحد، أو التبنى لأحد، وحدده فقط فيما انتدبه له من الرسالة، حتى وهو رسولا هاديا كان باذن الله:

-"**انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء**" القصص ٥٦..

ولو أقام دولة فهو رئيسها المطلق، وقائدها العسكرى بلا منازع، وعليه الفوز فى المعارك حتى لو قتل الأبرياء، ودمر المدن، ودك الحصون، ولكنه لو حارب بين صحابته، وانتصر فباذن الله:

-"**ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى**" الأنفال ١٧..

ومقيم الدولة ماكان ليطيق البقاء فى أهله بمكة ثلاثة عشر عاما لم يؤمن معه الا العبيد، والبسطاء، وحوله دولة النجاشى بجيوشه، وكان بدوره صديقا لامبراطور الروم، فلماذا لم يستعن به - كمتطلع الى الدولة، والرئاسة - لقهر المكيين، واذلالهم، واقامة دولته بينهم بدلا من مشقة الذهاب الى مدينة لايعرف عنها، ولا عن سكانها شيئا، ولماذا لم يوجهه الوحى لذلك الا لأنها كانت فى الأصل دعوة، وهداية موجهه من رب العالمين الى خلقه برحمته المهداه صلى اله عليه وسلم:

-"**وماأرسلناك الا رحمة للعالمين**" الأنبياء ١٠٧..

ولو أقام الدولة فهو رئيسها الآمر الناهى، ومن هم دونه مرؤوسيه ليس عليهم الا الاذعان، والطاعة دون مناقشة، فلماذا أمره تعالى بالشورى بينهم، واشترط عليه شروطها بما لايتوافر فى ملوك زمانه فى فارس، والروم، والحبشة:

-"**فبما نعمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر**" آل عمران ١٥٩..

فهل يكون ملكا، أو رئيسا الا اذا كان فظا غليظ القلب؟.. لايحيط به الا خاصته المقربين فقط، وهل يعفو الملك، أو الرئيس عن من أخطأ من الحاشية، أو

الرعية، أو تجاوز حدوده؟.. أما الاستغفار فهو خاص بالنبى فقط، وينفى عنه المُلك، والرئاسة، وبعد ذلك عليه ألا يبت فى أمر بدونهم؛ فهل كان من الملوك، أو الرؤوساء من يفعل ذلك؟.. وهل جرى على سنته هذه من الخلفاء سوى أبى بكر، وعمر اللّذَين كانا بحق خلفاء نبى مرسل؟..

لماذا انتشر الاسلام فى المدينة؟.. ولم ينتشر فى مكة والطائف:

لم يستطع الاسلام الانتشار الحركى على مر العصور(منذ آدم) فى الظهير الصحراوى الكائن حول المدن ربما لقسوة الطبيعة، والظروف الصحراوية ذات المناخ القارى شديد الحرارة، وشديد البرودة التى تصبغ حياة الانسان الذى يعيش فيها بطابعها شديد التقلب، كما أن الصحراء لاتجمع الناس كمناطق الزراعة، فالناس فيها متناثرين، فلم ينتشر الإسلام فى مكة الصحراوية طيلة ثلاث عشرة عاماً؛ بل انتشر فى المدينة خلال عشرة أعوام فقط نزل فيها التشريع الإسلامى كله شاملاً احياء شعائر الإسلام منذ آدم عليه السلام من صوم، وزكاة، وحج حيث لم يفرض فى مكة من شعائر الإسلام سوى الشهادة، والصلاة، فكانت السور المكية من القرآن تركز على العقيدة، وقصص الأنبياء، أما الصيام، والزكاة، والحج فهى تحتاج إلى تكاليف معيشية لم يكن يملكها المسلمون فى مكة، فضلاً عن اضطهادهم فيها، فكانت مجتمعاً طارداً للمسلمين، وللنبى نفسه، وهو منهم:

-"**وأنذر عشيرتك الأقربين**" الشعراء ٢١٤..

فرض عليهم الصيام فى المدينة لأنهم كانوا لا يجدون الطعام أصلاً فى مكة؛ فكيف يفرض الله عليهم صياماً، أو زكاة، أو حجاً مثلا وهم ممنوعين من البيت الحرام، غير ما يحيطه من أصنام بلغت ٣٦٠ صنماً، وظلت مكة بعد الفتح أيضا موئلا لعصبية الكفر، والشرك، وهو مااختصث به سورة التوبة فى آخر مانزل من القرآن ..

لم تكن مكة مهيأة لإستقبال، وانتشار الدين، وأفكاره الجديدة حتى أن فتحها تم فى آواخر بعثة النبى صلى الله عليه وسلم؛ وكان الفتح فقط لكون أهل

مكة(وهم أهل النبى المرسل أيضا) سدنة البيت الحرام، وحماته؛ فاسلامهم يعنى اسلام كافة العرب الذين يجلون هذا البيت، ورب هذا البيت الذى طواه النسيان، وأصبح ذكرى حيث لم يكن ثمة مايحفظ عليهم تراثهم من كتابة، وتوثيق، فلما فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة عاد توا الى المدينة مرة أخرى، ولم يقل هذه بلدتى، ومسقط رأسى، ولم يوصى بدفنه فيها، ولم يعد اليها مرة أخرى بعد حجته الوحيدة، والأخيرة، فالاسلام ازدهر فى الحضر - فى المدينة - رغم أن الطائف القريبة من مكة كانت تشبه الحضر بما فيها من حدائق، وبساتين الا أن الثقافة الشائعة فيما بينها وبين مكة كانت واحدة، وكانت الأعراف مشتركة، فلم يختلف المجتمع المكى عن مجتمع الطائف كثيرا فى تركيبته القبلية المغلقة..

أما المدينة فكانت مدينة حضر، وتنوع يتقاسمها العرب، واليهود الذين نزحوا اليها من دول ذات حضارة، وثقافة انفتاحية، فكانت الأوس، والخزرج قبيلتين من أكبر، وأقدم قبائل العرب حضارة فى اليمن يقتسمان السلطة في المدينة أيضا، فاشترك العرب مع اليهود كلاجئين فى المدينة التى جاءوا اليها من مدن الحضارات الزائلة فى مصر، والشام، فهذه صفة مدن الحضر ذات المجتمعات المفتوحة، والمتنوعة تستقبل الهجرات، والدعوات، وتستطيع استيعاب الأفكار الجديدة ولاتلفظها مثل مكة، والطائف ذات المجتمع الواحد، والمغلق، كما كانت المدينة تقع فى ملتقى طرق التجارة، بينما كانت مكة فى منتهى طرق التجارة، ولايستطيع أهلها العيش بدون رحلتى الشتاء، والصيف(سورة الفيل)، خاصة أنهم كانوا رعاة للبيت الحرام، ومضيفين لزواره، فلم يكن لأهلها مورد الا التجارة، والتجار يخشون تغيير الظروف، والأوضاع فتتأثر تجارتهم، وتذهب مكاسبهم، علاوة على انتشار الأمية فيهم، أما المدينة فأهلها يقرأون، ويكتبون، ويمارسون أعمالا رئيسية مثل الزراعة، والصناعة خاصة من اليهود الذين احتكر منهم بنو قينقاع الحدادة، والصباغة، ومن أهم أعمال الحدادة صناعة السلاح من دروع، وسيوف حتى اشتقوا اسمهم من القين(الحداد)..

الدعوة والمؤسسة:

جهل من قال ان الاسلام كون به الرسول صلى عليه وسلم دولة، فالدولة ماهى الا مؤسسة، أو عدة مؤسسات؛ فالعمل المؤسسى عادة مايُخضع الأفراد لمصلحة هذه المؤسسة أولا، وأخيرا؛ حتى لو كان تأسيس هذه المؤسسة بغرض الدعوة الدينية؛ لأنه يبدأ عادة بالحماس للدعوة حتى اذا دخلت فى الطور المؤسسى تحولت الدعوة الى كيان نابض بالحركة، والنشاط يخيف، ويقتحم، ويداهن، ويتحالف، ويصطدم، ويحرز المكاسب، ويخضع للمصالح الوقتية، وحين ذلك تشيخ الدعوة حتى لو بقى منها الأشباح، والشيوخ، والرسوم، والطقوس للايهام بأنها لازالت موجودة، وهذا لايحدث أبدا فى الدعوات الدينية، والرسالات السماوية..

الاسلام والدولة:

لم يكن مصطلح "الدولة" معروفا وقت ظهور الاسلام فى بدايات القرون الوسطى؛ بدليل خلو معاجم اللغة العربية(لسان العرب - القاموس المحيط - مختار الصحاح) من هذا المصطلح، ولكن المعاجم ذكرت لفظ "دُولة" الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم:

-"**كى لايكون دُولة بين الأغنياء منكم**" الحشر ٧..

-"**وتلك الأيام نداولها بين الناس**" آل عمران ١٤٠..

ويبدو من الآيتين معنى "تداول" الأموال بين الأغنياء خاصة دون الفقراء، والمحتاجين، و"تداول" الأيام بين الناس جميعا بحلوها، ومرها..

ولم يتبلور المصطلح بالمعنى الحديث فى اللغة العربية الا بعد اندلاع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م عن طريق ترجمة اللفظ الفرنسى Etat، واللفظ الانجليزى State، وأقره مجمع اللغة العربية فظهر فى المعاجم الحديثة مثل "المعجم الوسيط" مصحوبا بتعريف الدولة بجمع من الناس مستقرون فى اقليم ذى حدود معينة، ومن هنا انسحب المصطلح بأثر رجعى على الامارات، والولايات

التى ظهرت فى التاريخ فسميت دولا(مجازا)، مع أنها لم تكن كذلك لاشكلا، ولامضمونا، فلم تكن ذات نظم سياسية، واقتصادية، واجتماعية محددة، ولم تكن سوى سلطة سياسية تهيمن على الناس(الرعايا)، ترسم لهم الالتزامات أولا نحو الحاكم، ثم تأتى الحقوق بعد ذلك بكثير، أما المجتمع، أو الجماعة فان أفرادها يتعاملون فيما بينهم وفقا للأعراف، والتقاليد المتوارثة، والدين ان وجد، كما تحدد البيئة ملامحهم الجسمانية، وسماتهم العقلية، وأنشتطهم المعيشية..

ولم يكن لفظ "الحكومة" بمدلوله المعاصر(Government) معروفا لدى العرب، ولاغير العرب فى بدايات الاسلام، ولم يكن هناك مصطلحا يعبر عن ذلك، ولكن لفظ "الأمر" كان يعبر عن "الحكومة"، و"شئون الحكم"، و"السياسة"، وقد ذُكر اللفظ فى القرآن، واذا ماورد لفظ "الحُكم" فى هذا العصر - كما ورد فى القرآن - فكان يعنى "الفصل فى الخصومات"، ولم يكن "حُكما سياسيا" كالمتعارف عليه فى العصر الحديث، وهو ماينخدع به السذج هذه الأيام من دعاة الدولة الدينية عند تفسير:

-"**ان الحكم الا لله**" الأنعام ٥٧..

ولم يكن للسلطان، أو الحاكم أى التزامات تجاه رعاياه سوى الأمن الخارجى (الجيش، أو شبه الجيش) لحماية سلطانه، والأمن الداخلى(الشرطة، أو رجال الحاكم) من أجل جباية الأموال، والضرائب التى يستعين بها على شراء ولاء رجاله فى الشرطة، والجيش، ولادخل له فى شئون التجارة، والزراعة، والتعليم، والصحة، والتموين، وغيرها الا اذا أثرت كلها، أو احداها(بحفر الآبار، وشق الترع مثلا) على جباية الأموال، وفرض الضرائب، وظل هذا النظام متبعا طوال الحكم العثمانى فى الولايات التابعة لهذا الحكم، فكان المسلمون، والمسيحيون، واليهود الموجودون فى هذه الولايات هم رعايا السلطان العثمانى فى الأستانة..

ولم يذكر القرآن "دولا"؛ بل ذكر "قرى"، وهو الوصف الدقيق لما كانت عليه هذه الامارات، أو الولايات، ولم يذكر "مدنا" الا لفرعون، وثمود الذَين كانت لهما جيوشا نظامية كمثلين:

-"**هل أتاك حديث الجنود(١٧) فرعون وثمود**(١٨)" البروج..

وهى فترة حددوها من القرن السادس الى القرن الثانى قبل الميلاد، فاشتهرت فى بلاد اليونان مدنا مستقلة تسمى Polis مثل "أثينا"، و"اسبرطة"، وغيرها، وهى التى أطلق عليها المؤرخون السياسيون مجازا "دولة المدينة State City"..

اعتمدت الدول القديمة فى مصادر دخلها على الجباية، ومكوس حركة التجارة التى كانت هذه الدول وسيطا لها بين الشرق، والغرب سواء كانت فى البر، أو البحر بحكم الموقع، وكانت هذه الأموال تخضع كلية للملك، أو الخليفة، فلم يكن للدولة تجارة خاصة بها على المستوى الرسمى، ولم يكن هناك ترسيما دقيقا، أو متفقا عليه للحدود بين الدول؛ فكان من الصعب بمكان سيطرة هذه الدول على أطرافها الحدودية، ومن ثم كانت حرية التنقل متاحة لكل سكان المعمورة خاصة التجار، والعلماء..

كانت موارد الدولة الاسلامية لاتختلف كثيرا عن موارد الدول المعاصرة للدولة الاسلامية – والتى أخذ منها المسلمون الكثير من أنظمة الحكم مثل الوزارة، وتدوين الدواوين، فلم تكن الوزارة فى عهد النبى، ولا الخلفاء الراشدين، ولكنهم وجدوا لها أصلا فى القرآن عندما طلب موسى عليه السلام من ربه هارون أخاه وزيرا – فكان هناك خراج الأرض، والغنيمة من الحروب، والفىء من غير الحروب، والمكوس على التجارة التى تعبر أرض المسلمين، وزكاة المال على المسلمين، والجزية على الرعايا من غير المسلمين(يهود، نصارى، فرس مجوس)، مثلما فرض اليونانيون الجزية على سكان سواحل آسيا الصغرى؛ من أجل حمايتهم من هجمات الفينيقيين باسم ضريبة الرؤوس، كما فرضها الفرس، والروم على الشعوب الخاضعة لهم..

ولم تختلف مصارف الدولة الاسلامية أيضا عن تلك التى كانت موجودة فى هذا الزمن من رواتب الخليفة، وموظفى الدولة، والجند سواء للحرب، أو حفظ النظام(لم يكن نظام الأخماس فى الاسلام الا فى ظروف الحرب فقط، وقد تتحمل الدولة التسليح، ومعدات القتال فى الغزو، والدفاع)، كما تنفق الدولة على المشروعات العامة كحفر الآبار، ومد الطرق، واقامة الجسور، والسدود، واستراحات الخيل، والبريد، واقامة المساجد، والمدارس، والمؤسسات الاجتماعية

مثل المستشفيات، والسجون، وفرض الأوقاف للانفاق عليها، وعلى مرتاديها، والتكافل الاجتماعى من بيت المال لمن تعولهم الدولة من الفقراء، واليتامى، والأرامل، وفرض الاسلام العدل (وهو قاعدة عامة فى الاسلام فرضت على الحاكم، والمحكوم فى كافة أمور المسلم بموجب نصوص القرآن)، والمساواة فى الحقوق والواجبات، والتكاليف، وحرية الفرد، وحق المجتمع على الفرد، والشورى بين الحاكم والمحكوم، فاذا دب الخلاف بين الراعى والرعية احتكموا الى الكتاب والسنة، فتفاوتت الدول، وتفاوت الحكام فى الاسلام فى الالتزام بهذه القيم..

قام الفكر الاقتصادى للدول الحديثة على استحواذ الدولة للمعادن النفيسة، والموارد الطبيعية، وسيطرة الدولة على الاقتصاد عن طريق توجيه الانتاج نحو الخارج(التصدير)، والحد من الواردات(الحماية)، وتشجيع الصناعة المحلية لمواجهة المنافسة الخارجية عن طريق دعم الأسعار، وضمان الجودة، وخفض التكلفة، والبحث عن أسواق جديدة، واقامة الشركات التجارية الكبرى، وسن القوانين لحمايتها..

جدت قيم جديدة كانت هى الأساس فى الدولة الحديثة تميزت بها عن الدول القديمة مثل تفكك الامبراطوريات، وتبلور القوميات، والأخذ بالعلوم التجريبية الحديثة، والعلوم السياسية التى تعتمد على المصلحة العليا للدولة، وضمان أمنها القومى، والمواطنة، والمساواة فى الحقوق، والواجبات، وعدم التمييز، والحداثة، واستيعاب التقنية الحديثة، وحرية الفكر والابداع، كما جدت مفاهيم الدولة المدنية غير الدينية(استقلال الكنيسة عن الدولة، وعن الملك فى العصور الوسطى)، وغير العسكرية (ليس المقصود الجيش النظامى للبلاد، ولكنه الجند الخاص بالملك، أو الخليفة فى هذه العصور والتى كانت داعمة لسلطته، وحكمه)، فظهرت المؤسسات المتخصصة، والمستقلة عن بعضها البعض، وظهرت السلطة القضائية التى تختص بالمحاكم، والفصل فى القضايا، والسلطة التشريعية لسن القوانين بواسطة ممثلى الشعب، وتراقب عمل الحكومة التى تشعبت وظيفتها، وأوكل اليها ادارة مؤسسات الدولة المختلفة، وعندما تعددت الاتجاهات الفكرية ظهرت الأحزاب التى تطمح الى السلطة لتنفيذ برامجها،

وسياساتها من أجل دعم الدولة، وتقدم الشعوب؛ ففرضت الديمقراطية نفسها من أجل تداول السلطة بين هذه الأحزاب..

لم تجمع الكنيسة فى العصور الوسطى بين السلطة الزمنية، والروحية - كما يقال دائما - والا فلماذا كانت المنافسة بين البابا والملك على أشدها بسبب المصالح؟.. ولكن انتشار منهج الحداثة، والعلم التجريبى، ورواج أفكار الدولة المدنية فى كافة الاتجاهات بين مواطنى الدولة، واحترام القانون، أدى الى الفصل بين السلطتين سلطة الكنيسة، ويمثلها البابا، وسلطة الملك الذى يمثل الدولة، وظل البابا فى كنيسته، والملك داخل قصره فى حكمه الوراثى الى يومنا هذا، ولم يتم الفصل بين الدين، والدولة - كما هو مشاع - ولكن استقل كل عن الأخر حتى تزول المنافسة..

واستجد فى الدول الحديثة كثير من الخدمات التى استحقت تحصيل مقابل لها وهى الجمارك على السلع الداخلة، وأعشار السفن لدخول موانىء الدولة، أو العبور من مياهها الاقليمية مثل قناة السويس، وقناة بنما، والخمس على الركاز، أو الثروات الطبيعية من فحم وبترول، وخلافه، والمواريث التى تؤول الى الدولة لمن لاوارث له، والضرائب على الخدمات التى تؤديها الدولة لمواطنيها من أمن، وقضاء، وتعليم، وصحة، وطرق، ومواصلات، وجيش نظامى ثابت للدفاع عن حدود الدولة، وهى خدمات لاتقوم الدولة الا بها، وهى ملزمة بها تجاه مواطنيها، والبعض منها له أصل فى الاسلام مثل الخمس على الركاز، والمواريث التى ليس لها وارث، وقد وجد الفقهاء أنه لابأس من الاستفادة من تنظيمات الدول الحديثة كما أخذ بها رسول الله فى حفر الخندق عن سلمان الفارسى، وكما أخذ عمر بن الخطاب تدوين الدواوين من الدول التى كانت قائمة قبل الاسلام، وأقر الفقهاء حق الدولة على المواطن المقيم فيها؛ فاعتبروها كبيته الذى يحرص على صيانته، وترميمه، وحمايته..

وتفرض الضرائب فى الدول الحديثة لالتزام الدولة الحديثة بالتنمية الزراعية، والصناعية، وشئون التجارة الداخلية، والخارجية، والقائمين عليها من مؤسسات، وأفراد، وشركات، ورعاية الأجهزة الأمنية، وتطويرها لخدمة

مواطنيها، ودعم النظام القضائى، وسن القوانين، وبناء المدارس، والمستشفيات، وتمهيد الطرق، وصيانتها، وتنويع قنوات الاتصال، الى غير ذلك من مرافق الدولة الحديثة لبسط مظلة شاملة للمعاشات، والتأمينات الصحية، والاجتماعية مما يقيم المجتمع على أسس العدل، والكفاية، والتكافل لضمان الحياة الكريمة لمواطنى الدولة..

والقومية أساس الدول الحديثة وهى تميز الدولة عن غيرها فى العلاقات الخارجية بعد أن انتهى عصر الامبراطوريات التى كانت تعتمد على الغزو، والضم، واعتمد النظام فى الدولة غالبا على المشاركة الشعبية(التمثيل البرلمانى)، والتداول الآمن للسلطة(الديمقراطية)، والتوزيع العادل للثروة، والخدمات، والمساواة بين المواطنين فى الحقوق، والواجبات بصرف النظر عن الدين، والجنس، واللغة، كما تحرص الدولة على حتمية التقدم العلمى، والتقنى فى كافة المجالات عن طريق دعم، وتطوير التعليم، والبحث العلمى..

وهناك عدة نظريات لنشأة الدولة؛ احداها النظرية الالهية التى ترجع نشأة الدولة الى الله تعالى، وهو من يختار لها حكامها لادارتها، ولايعتبر الانسان عاملا أساسيا فى هذه النشأة، أما نظرية القوة فترى أن الدولة تنشأ من خلال سيطرة الأقوياء على العامة، وقد أجازها فقهاء المسلمين، وهى الدولة القائمة على الغلبة مثل الدولة الأموية، والعباسية، وهناك النظرية الطبيعية التى ترجع اقامة الدولة الى طبيعة الانسان الاجتماعية، وصعوبة العيش فى عزلة، فمالت به فطرته نحو حتمية وجود القيادة، والسلطة فى اطار الدولة، أما نظرية العقد الاجتماعى فهى ترى أن الدولة تقوم بموجب تعاقد بين الحكام، والمحكومين يضمن فيه الحكام الرعاية، وفرض الأمن ووضع أطر للعلاقة بينهم وبين المحكومين، وبين المحكومين وبعضهم البعض، وقد تضمنت كتابات توماس هوبز، وجون لوك، وجان بول سارتر هذه الأفكار..

ولابد أن تقوم الدولة على حكومة تمثل سلطتها، وجيش يحميها له أفراده وميزانيته، ومجموعة القوانين التى تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، والمحكوم بالمحكوم، والنظم المالية والاقتصادية للحفاظ على الموارد، وتحديد أوجه انفاقها،

وضمان توزيعها، كما تشتمل الدولة على المؤسسات التعليمية، والتثقيفية والصحية، وتمهيد سبل الاتصال فى الداخل والخارج، واستقلال الدولة شرط لشرعيتها كوحدة قانونية دائمة، واعتراف المجتمع الدولى بها، وتمارس حدود السيادة بارادتها الحرة، وهى تستمد شرعيتها من التعاقد بين الحاكم، والمحكومين بواسطة صناديق الاقتراع، ويخول للدولة تشريع القوانين، والزام الناس بها ليتسنى لها ادارة البلاد اقتصاديا، وسياسيا، وثقافيا، وتعليميا، وقضائيا، واعتراف المجتمع الدولى بها يضمن لها عضوية المنظمات الدولية، والتمثيل الدبلوماسى..

لم يأت الله بالدين(الاسلام) لاقامة الدولة - كما يدعون - لقوله تعالى:

-**"أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه"** الشورى ١٣..

اذا فالأمر واضح وهو اقامة الدين، وليس الدولة..

ماذا لو استجاب كل من كسرى عظيم الفرس، وهرقل عظيم الروم لدعوة الرسول السلمية لهما للاسلام، وهو يقول لكل منهما:

-"اسلم تسلم"..

كل مافى الأمر أنه صلى الله عليه وسلم سيرسل لكل منهما من يعلمه أمور الدين تماما كما فعل عندما أرسل الداعية مصعب بن عمير الى المدينة فدخل معظم أهلها الاسلام على يديه، ومعاذ بن جبل الى أهل اليمن، فلم يكن للرسول دولة، ولاسفراء -كما يدعون - كى يلقن لرسله سياسة دولته، وبالتالى فلم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم أن يتدخل فى مُلك أحد، أو دولة معينة كدولة الفرس، والروم، ولم يوص الرسول أصحابه بسياسة معينة عندما نبأهم بفتح هذه البلاد، ولم يأمرهم صلى الله عليه وسلم بالفتح، ولاأوصاهم به، ولكنه كان تفكيرا سياسيا بحتا لأصحابه لنشر الدعوة التى كان من الممكن نشرها بالرسل كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، وكما نشر بطرس الرسول مسيحيته المحرفة فى أوروبا كلها بالرسائل، والرسل، حيث أدى الفتح بالسيف، وازالة الحكم الموجود بالقوة- وهو مااعتقدوه خطأ، وطمعا - أنه يمنع الناس من دخول الاسلام، وهو مااختلط بدنيا يريدون اصابتها، فلم يستطيعوا مثلا تمكين

خريطة (١) انتشار الاسلام فى عصر النبوة

الاسلام فى بلاد خرج منها بعد ثمانية قرون(الأندلس) لأنهم نسوا فى غمرة قوتهم أن الله هو الذى يُمكن، وليس هم - وهو ماأدى فى النهاية الى شيئين:

١- عدم تحصين نصوص الرسالة(القرآن الكريم) قبل الخروج الى الفتوحات من الجزيرة العربية، فهم أصلا ليسوا أمة كتابة، ماأدى الى قراءة خاطئة للنصوص، تبعه فهم خاطىء للدين، وهو مااستطاعوا تداركه، ولكنهم لم يستطيعوا تدارك تداعياته فيما بعد، ماأودى بحياة ثلاثة من الخلفاء الراشدين قتلا، ولقصر خلافة الصديق كان من الممكن أن يلقى نفس المصير(هناك رواية فى طبقات ابن سعد أنه مات مسموما)، خاصة عندما اتبعوا السياسة الانتقائية لرعاتهم فى الجزيرة العربية، فأراد عمر بن الخطاب أن تكون الجزيرة العربية جزيرة اسلامية، ونسوا أنهم أمة دعوة، فأورثتهم العصبية العربية العصبية الاسلامية، وهو مالم يتخلصوا منه حتى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما كان يغضب كثيرا لهذه الزلات العصبية الجاهلية البغيضة، فكان يقول:

-"أجاهلية وأنا بين ظهرانيكم؟.. دعوها فانها منتنة"..

٢- كما كان الاسلام قيمة ثقافية تخترق الوجدان، والمشاعر فقد كان لهذه الشعوب تراثها الوجدانى الذى لم يزله الاسلام الداخل عنوة، وبسرعة فاختلط تراثهم بالاسلام، فبدأ تحريف الاسلام، بمطابقة النصوص، وخلطها، وليس صحيحا حدوث هذا بعد ترجمة الفلسفة اليونانية الوثنية فى عصر المأمون العباسى، ولكنه بعد دخول الاسلام مباشرة الى هذه البلاد دون تمهيد، أو دعاية مسبقة كما يفعل الدعاة عادة، والعكس حدث فى أوروبا مع المسيحية التى دخلت اليهم مشوبة بالشرك، وهم أصلا كانوا على الشرك فتقبلوها كما هى محرفة الى الآن..

لم يكن الدين (الاسلام) مناهضا للدولة فى يوم من الأيام منذ آدم عليه السلام، فقد عرف الانسان الدين مع قيام القبيلة، والدولة لآنهما أنظمة خلقها الله مع الانسان لكفالة أمنه، ونظامه، فتكفل الانسان بالدولة، والقبيلة، وحافظ عليهما لحفاظه على أمنه، وسلامته:

-"**وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**" الحجرات ١٣..

فلايستطيع الانسان أن يحيا بلا دولة، أو قبيلة، وهو نظام من أركان الحضارة، وكل المخلوقات جعلها الله كذلك، فهو اذن نظام كونى الهى يشمل كل المخلوقات ماعدا الملائكة:

-"**وما من دابة فى الأرض ولا طير يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم**" الأنعام٣٨..

فلا يبعث الله الرسل الا لدولة، أو قبيلة، فيصطدم الرسل عادة بالملأ، والمترفين فى الدولة، أو القبيلة:

-"**وماأرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون**"سبأ٣٤

ولم يحدث أن دخل رسول من الرسل فى سجال مع الملك نفسه، أو عظيم القوم الا فى حالة فرعون الذى لم تكن الرسالة معنية به أساسا، وكان طلب موسى عليه السلام محددا، وهو:

-"**أن أرسل معنا بنى اسرائيل**" الشعراء ١٧..

حيث كان بنو اسرائيل من سلالة نبى الله يعقوب عليه السلام ضمن ائتلاف

من عدة شعوب، وجنسيات جاءت الى حدود مصر الشرقية، والشمالية فيما يعرف تاريخيا باسم الهكسوس الذين استضافوهم، واستقبلوهم قبل أن يترأسهم فرعون الذى أذلهم، واستعبدهم فى فترة حكمه للهكسوس، فأرسل الله منهم موسى عليه السلام لينقذهم من فرعون، وبطشه بعد أن وعدهم بالأرض المقدسة، فلم يكن موسى معنيا بدولة فرعون من الأساس، ولم يكن يريد الانقلاب عليها، أو ازالتها، ولكنه فقط جاء لينقذ بنى اسرائيل، وعندما أصطحبهم موسى، وخرج معهم من مصر الى الأرض المقدسة اعترضهم فرعون بالقوة، فحدث ماحدث، ولم يكن أبدا صراع عقيدة، ولاسلطة كما يدعى غوغاء الدعاة لهدم الدول باسم الدين، حيث لم يأمرنا الله تعالى باقامة الدولة، بل باقامة الدين، لأنه خلقنا أصلا اما فى دولة، أو فى قبيلة على الأقل، وماكان تعالى ليرسل رسولا فى فوضى، أو فى نظم عمياء:

-**"وان من أمة الا خلا فيها نذير" فاطر ٢٤..**

ولايصطلح على اطلاق كلمة "أمة" الا فى اطار دولة، أو قبيلة، وهى ماسماها تعالى "بالقرى" فى القرآن، فالقرى حدود، والأمة هى البشر داخل هذه الحدود..

جاز على الدول الاسلامية ماجاز على كل الدول التى قامت على مر التاريخ، والتى كانت فى جملتها كافرة، أو مشركة - بتعريف الفقهاء - ودخلنا فى أطوارها المعروفة التى قسمها ابن خلدون فى مقدمته الى ثلاث مراحل:

١-مرحلة التكوين، والقوة..

٢- مرحلة الحصاد، والاستقرار..

٣- مرحلة الترف، والانحلال، والفساد..

٤- الموت(مثل مراحل تطور حياة الانسان، وانتهائها)، كما يقول تعالى:

-**"لكل أمة أجل اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون"**يونس ٤٩..

وهو يرى أن الدولة فى عصره تقوم على العصبية، والدعوة..

وتبعه فى ذلك مؤرخو العصر الحديث مثل "توينبى" المؤرخ البريطانى، و"ويل ديورانت" المؤرخ الأمريكى..

يطرح توينبى فى كتابه "دراسة التاريخ" قصة قيام ٢٢ حضارة فى تاريخ

البشرية، والتاريخ يقترن عنده بالحضارة، وليس بالدولة بنظريته المعروفة "التحدى والاستجابة"، فالاستجابة للتحدى تقيم الحضارة التى تصل الى مرحلة الانهيار، والموت اذا ضعفت الاستجابة، أو اضمحلت..

والحضارة هى مجموعة من القيم تقوى بالابتكار، والصمود، وتخفت بالعجز، والجمود عن الابتكار، والتجديد، والابداع، وهو يقول فى ذلك:

-"والحضارة لاتموت قتلا، وانما تموت انتحارا"..

أما ديورانت فيقيم الحضارة على أساس:

١-وجود نظام سياسى.. ٢- وحدة لغوية..

٣- قيم متعارف عليها.. ٤- دين، أو عقيدة..

٥- نظام تعليمى لنقل القيم الى الأجيال الجديدة..

ويقول العقاد فى أفيون الشعوب:

-"العائلة، والوطن، والدين أقوى الدعائم التى قام عليها بناء الحضارة الانسانية، ومن تعاسة الهدامين الداعين الى الفوضى، والفساد أنهم يهدمون كل دعامة من هذه الدعائم"..

وتنهار الحضارة من الداخل باختفاء سبب من أسباب قيامها، ويحدد القرآن سبب الانهيار فى الآية:

-"**واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا**" الاسراء ١٦..

وأمرنا هنا ليس من الأمر الالهى، ولكنه الامارة التى يمكّن فيها المترفين من القرية، أو الأمة، وهى فعلا أمرّنا فى بعض الروايات بتشديد الراء فيقول عند التمكين:

-"**وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء**" يوسف ٥٦..

أى أصبح مسئولا فى الدولة(كان يوسف أمينا على بيت المال بما يشبه وزير الخزانة فى الوقت الحالى) له الأمر، والنهى فى ولايته، فيرضى عنه الناس بتمكين الله له فى قلوبهم بخُلقه، ودينه، واخلاصه فى خدمتهم:

-"**ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم**" الاسراء ٥٥.. فيأمن على نفسه بعد أن كان خائفا كما كان

الرسول، وأصحابه فى مكة:

-"**وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا**" الاسراء ٥٥.. وذلك بشرط:

-"**يعبدوننى لايشركون بى شيئا**" الاسراء ٥٥..

فلاشىء سيفعلونه سوى العبادة، وتوحيد الله الذى فى يده وحده الاستخلاف، والتمكين، والتأمين، والتمكين بالامارة، والمسئولية يستلزم أن يتعامل مع الناس بمراد الله (الدين القيم) فيتجاوز الأزمات، ويحبه الناس، واذا صار فى طريق الترف المخل، والفسق استحق التدمير الذى ينتهى به، وبمملكته (القرية)، ويبقى الناس فى انتظار تمكين جدديد، ودولة جديدة..

تميز العصر الاسلامى بثلاث فترات مهمة من الممكن الفصل بينها فصلا بيننا:

- العصر النبوى (عصر الرسالة)..
- عصر الخلافة (الخلفاء الراشدين)..
- عصر الدول الاسلامية، وأبرزها الأموية، والعباسية، والفاطمية، والعثمانية..

وتتميز كل منها بخصائص لاتتخطاها، وبالتالى ينقطع التطور المزعوم لقيام كل فترة منها بذاتها، وأودى بها الترف المخل كما أخبر الله تعالى فى كتابه، وأدى الى انهيار عصر الخلافة بداية من النصف الثانى لخلافة عثمان حتى انهيار الخلافة العثمانية، وعادة مايتبع الترف المخل قيام الثورات، والحركات الانفصالية، يتوازى معه عادة ظهور الزهد، والتصوف للعودة الى عصر النبوة الزاهدة، بداية من أبى ذر، وانتقاده لانفاق عثمان المترف، وماتبعه من اسراف الأمويين، والعباسيين حتى ظهور الفرق، والطرق الصوفية على طول التاريخ الاسلامى، والتى انحرف بعضها..

يقول النبى الكريم:

-"الناس معادن، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام"..

ولعله يوضح أن الشرير الظالم لاينقلب تقياً خيّراً بمجرد دخوله الاسلام، ولو حصن نفسه أمام الناس بالصلاة، والصوم، والحج، والصدح بالتكبير، والتهليل..

يقول البروفيسور "غوين" فى بحثه عن الدين المسيحى:

-"ان هذا الدين فسد عندما دخل فيه الامبراطور قسطنطين، ومن معه من

القواد، والأمراء، فالدين المسيحى كان قبل ذلك ديناً مضطهداً، وكان بذلك ديناً يدعو إلى الرحمة، والتقوى، والخير، أما بعد أن أصبح دولة، ويحميه الأمراء، والقواد فقد انقلب إلى نظام الطغيان، وسفك الدماء، ونزع عنه ثوب الطهارة، والتقوى، والخير"..

ومن المدهش أن قريشاً التى حاربت النبى نيفاً وعشرين سنة من أجل أوثانها التى وجدوها محطمة فجأة، ومطروحة أرضاً فلا يبالون، ولايحزنون حين ضمنت مصالحها، وكرامتها، ولم تفقد ريادتها فى الدين الجديد..

يقول العقاد فى كتابه "أبو الشهداء":

-"وظل أبو سفيان إلى مابعد اسلامه زمناً يحسب غلبة الاسلام غلبة عليه"..

وعندما شاهد جيوش المسلمين تدخل مكة قال لصديقه العباس:

-"والله ياأبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً"..

فهو لا ينظر إلى الأمر كدين منتصر، ولكنه ملك طالب مُلك، وفاتح نجح فى طلبه، وبالتالى لاينظر إلى محمد كنبى..

نظر أبو سفيان إلى النبى ذات يوم وهو يقول فى نفسه:

-"ليت شعرى بأى شئ غلبنى هذا الرجل؟"..

فيجيبه النبى وقد أقبل عليه، وهو يضرب يده بين كتفيه:

-"بالله غلبتك يا أبا سفيان"..

وكان يود من صميم قلبه هزيمة المسلمين فى واقعة حنين بعد فتح مكة، فهتف عندما رأى المسلمون يولون الأدبار أول المعركة:

-"ما أراهم يقفون دون البحر"..

يعنى تمنى القاء المسلمين فى البحر..

وعندما وقعت معركة اليرموك كان أبو سفيان يهتف لجيوش الروم..

وهو هنا لايخالف شخصيته البدوية التى تعتز بمجد الفرد، والعائلة أكثر مما تنصر ديناً، أو قيماً سماوية..

ومن شابه أباه فماظلم - كما يقولون - فيسأل معاوية ابن عباس:

-"أنت على ملة ابن عمك علىّ؟".. فيقول: لا

-"ولا على ملة عثمان؟".. فيقول:

-"أنا على ملة النبى محمد صلى الله عليه وسلم"..

وجرى على هذا النهج الخوارج بعد ذلك فيقولوا لعمر بن عبد العزيز:

-"تريد أن تسير فينا بسيرة عمر بن الخطاب؟".. فقال:

-"قاتلكم الله، والله ماأردت دون رسول الله اماما"..

فالنظرة الجاهلية التى ظلت تتحكم فى أذهانهم حتى بعد الاسلام للرسول هى نظرة المُلك، والسيادة، وليست النبوة، والرسالة..

وهذا "معاوية" يجعل من مسجد دمشق مكاناً لشتم "على بن أبى طالب"، وقد علق "قميص عثمان" على المنبر مع "أصابع نائلة" زوجة عثمان ليهيج الناس على علىّ، كما يهم بنقل منبر النبى من المدينة إلى الشام لخدمة أغراضه السياسية، كما همَّ بذلك "عبد الملك بن مروان"، و"الوليد" ابنه..

اشكالية فكر المنادين بالخلافة هى الانفصال عن الواقع، والاصرار على التحليق فى عمق الزمن، والتشبث بأنماط الحياة التى عاشها الأقدمون، وبادروا بتغييرها بسرعة عندما تغيرت البيئة من حولهم، فعاش المسلمون فى عصر عثمان غير من عاشوا فى عصر النبى، وعصرى أبى بكر، وعمر بعد أن انهالت عليهم غنائم الفتوحات فكان لعثمان يوم قُتل ١٥٠ ألف دينار عند خازنه، وألف ألف(مليون) درهم، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرها ١٠٠ ألف دينار، ١٠٠٠ فرس، ١٠٠٠ أمة..

وبنى الزبير دارا بالبصرة، وأخرى بمصر، والكوفة، والاسكندرية، كما بنى طلحة داره بالكوفة، وشيد أخرى بالمدينة بالجص، والأجر، والساج، وخلف يعلى بن منبه ٥٠ ألف دينار، وعقار، ٣٠٠ ألف درهم، وكانوا من المهاجرين، وعانوا شظف العيش، والتقشف بعد الهجرة فى عهد النبى وأبى بكر، وعمر، ولكن الظروف تغيرت فى عصر عثمان فاختلف نمط الحياة..

يقولون؛ لافرق بين الدين والسياسة.. كيف؟.. أما أصحاب الحداثة، والعصرية فانهم يؤكدون أنه لادين فى السياسة، ولا سياسة فى الدين..

لقد كان الجاهلى سهيل بن عمرو الذى استبشر به الرسول الكريم عندما

أرسلته قريش (ردا على ايفاد الرسول الكريم لعثمان بن عفان الرجل الرشيد ذى العقلية التجارية المسالمة لقريش) لمفاوضة المسلمين فى صلح الحديبية لتجنب القتال بين الطرفين هذا العام(السادس الهجرى - ٦٢٨م) يعى بوضوح الفرق بين الدين، والسياسة منذ أكثر من ١٤٣٠ عام اذ أصر على أن يكون الصلح سياسيا بحتا، ووافقه الرسول الكريم على ذلك بعدما اتفق معه على شروط الصلح فدعا بعلىّ بن أبى طالب، وأملى عليه:

- أكتب بسم الله الرحمن الرحيم.. فقال سهيل:

- أما الرحمن فما أدرى ماهو، ولكن أكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب (قبل الاسلام).. فقال المسلمون:

- والله لانكتب الا بسم الله الرحمن الرحيم.. فقال سهيل:

- أكتب باسمك اللهم.. ثم قال النبى الكريم:

- أكتب هذا ماقاضى عليه محمد رسول الله.. فقال سهيل:

- والله لو نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت، ولكن أكتب محمد بن عبد الله.. فقال النبى صلى الله عليه وسلم:

- أنى رسول الله، وان كذبتمونى أكتب محمد بن عبد الله.. ثم كتبوا ماااتفقا عليه من شروط الصلح المعروفة..

يقول علىّ بن أبى طالب:

-"لابد للناس من امارة برة كانت، أو فاجرة".. فقيل ياأمير المؤمنين هذه البرة قد عرفناها؛ فما بال الفاجرة؟.. فقال:

-"تقام بها الحدود، وتأمن بها السبل، ويجاهد بها العدو، ويقسم بها الفىء"..

وسواء كانت الرواية لعلىّ رضى الله عنه، أو نسبت اليه فهى تعكس الفكر السياسى للمسلمين فى أواخر عهد الراشدين عن دور الدولة، والامارة التى تبلورت فى ذهنهم بعد عهد النبوة، والوحى كجماعة لابد لها من حاكم، ودولة تشملهم بعد أن كانوا قوما ينفرون من الحكام قبل الاسلام..

قال النبى صلى الله عليه وسلم عند ذكر جور الولاة:

-"أدوا اليهم الذى لهم؛ فان الله سائلهم عما استرعاهم"..

وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم:

-"كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء؛ كلما هلك نبى خلفه نبى، وأنه لانبى بعدى، وسيكون خلفاء، ويكثرون".. قالوا: فما تأمرنا؟.. قال:

-"أوفوا ببيعة الأول فالأول، ثم أعطوهم حقهم؛ فان الله سائلهم عما استرعاهم"..

وربما أشار الرسول "بالأول فالأول" الى أبى بكر، وعمر، وأن الخلافة الصحيحة انحصرت بينهما، أما من يأتى بعدهما فأوصى لهم بحفظ حقوقهم من الطاعة، والولاء..

وعن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

-"انكم سترون بعدى أثرة، وأمورا تنكرونها"..

قالوا: فما تأمرنا يارسول الله، قال:

-"أدوا اليهم حقهم، واسألوا الله حقكم"..

وروى كعب بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم:

-"ماذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لهما من حرص المرء على المال، أو الشرف لدينه"..

يعنى أن حرص المرء على المال، والرئاسة أشد عليه فى دينه من الذئبين على الغنم، وقد لجأ الرسول الكريم الى هذا المثل لتأكيد قضاء الحرص على المال، والرئاسة على دين المرء كما سيقضى الذئبان على الغنم لامحالة طالما بقيا بينهم..

خلفاء الرسول الراشدون

(١١ - ٤١هـ)(٦٣٢ - ٦٦١م)

خريطة (٢) أراضى الاسلام فى عصر الراشدين

م	الخليفة	سنة خلافته	سبب تركه الخلافة
١	أبو بكر الصديق	١١	الوفاة من أثر السم
٢	عمر بن الخطاب	١٣	قتل غيلة
٣	عثمان بن عفان	٢٣	قتل غيلة فى أول ثورة فى الاسلام بعد حصار ٢٠-٨٠ يوم
٤	على بن أبى طالب	٣٥	قتله ابن ملجم من الخوارج

شكل(١): التمثيل البيانى لمدد حكم الخلفاء الراشدين..

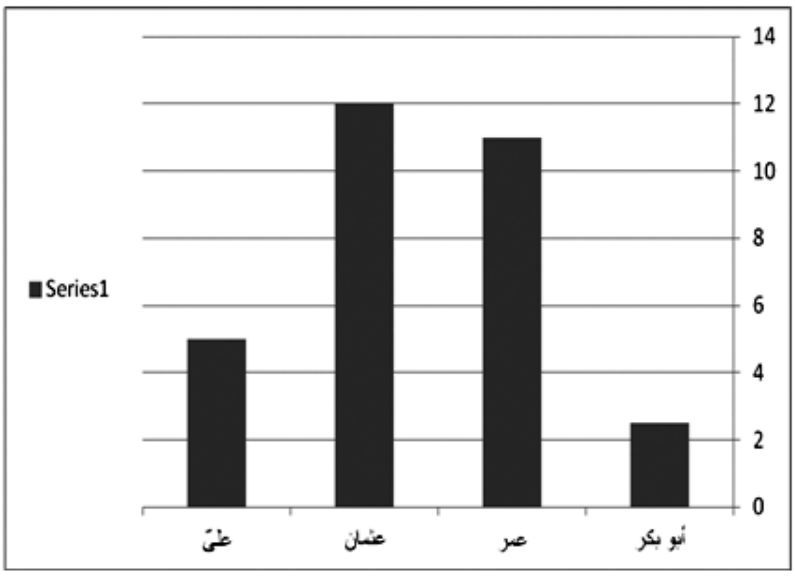

اجتمع الأنصار، ومعهم نفر من المهاجرين فى "سقيفة بنى ساعدة" لعقد الامامة "لسعد بن عبادة"، ولما بلغ هذا "الأمر" أبا بكر، وعمر قصدا اليهم، وعاد بهم أبو بكر الى ماقبل الاسلام بأن العرب لم يعرفوا هذا "الأمر" الا فى قريش، فأذعنوا لذلك، بعد أن اقترح الأنصار:

-"منا أمير، ومنكم أمير".. فرد أبو بكر:

-"منا الأمراء، ومنكم الوزراء"..

انه "الأمر"، ولم يكن "خلافة"، ولا"خليفة"، ولاحتى "امامة"؛ بل "سياسة" يجتمعون عليها، فلو كان المصطلح دينيا فلمَ لم يصرحوا به فى موقف كهذا؟.. ولو كان كذلك لما تجرأوا على الخلاف فيما بينهم، فلو كان أمر دينا لاجتمعوا عليه لامحالة..

شكل(٢): متوسط أعمار الخلفاء الراشدين..

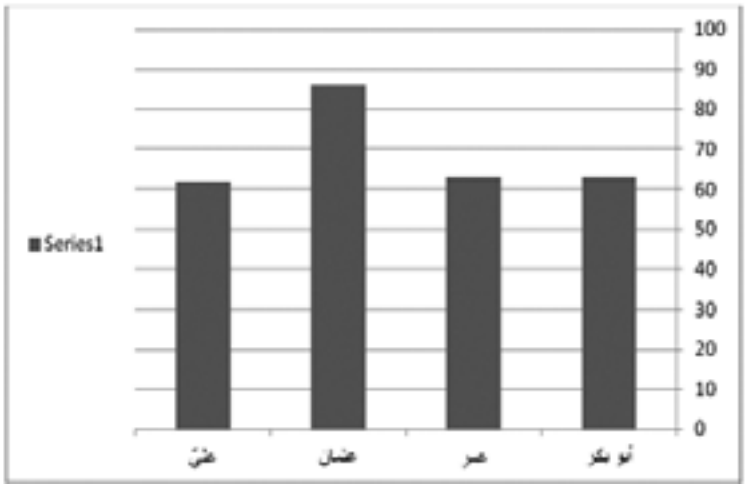

وهنا جرد "الحباب بن المنذر" سيفه بعد أن قام "قيس بن سعد" بنصرة أبيه سعد بن عبادة، ثم بايع الناس أبا بكر، ورفض سعد بن عبادة بيعته، وهو يقول:

-"والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبلى، وأخضب سنان رمحى، وأضربكم بسيفى ماملكته يدى، وأقاتلكم بأهل بيتى، ومن أطاعنى من قومى، فلاأفعل وأيم الحق، لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس مابايعتكم حتى أعرض على ربى، وأعلم ماحسابى"..

فكان لايصلى بصلاتهم، ولايُجمِع معهم(لايصلى الجمعة معهم)، ويحج ولايفيض معهم بافاضتهم، وظل كذلك حتى مات أبو بكر، فلو بدا للمسلمين فى ذلك خروجا على الدين لردوه، أو قتلوه، وماكان أسهل من ذلك، ولم يشر أحدهم أبدا أنه خرج على اجماع الأمة..

وينادى أبو سفيان:

-"والله أنى لأرى عجاجة لايطفئها الا الدم، ياآل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم؟. أين المستضعفان؟. أين الأذلان؟. علىّ، والعباس".. ثم يتجه نحو علىّ قائلا:

-"ياأبا الحسن.. أبسط يدك حتى أبايعك".. فأبى أبو الحسن رضى الله عنه..

فاجتماع السقيفة عموما يثبت للبعض من المنتفعين، والمتسلقين أن أمر الخلافة لم يكن فيه شيء من الدين، والا حرص عليه المهاجرون قبل الأنصار، وماتركوه لأحد غيرهم، كما أن الأنصار لم يكونوا مجتمعين لطرح قضية خلافة كأمر من أمور الدين بالضرورة، ولكنه لايعدوا أن يكون أمرا دنيويا بحتا، والا لما تداولوه بينهم خاصة دون اخوانهم المهاجرين من قريش، ولهم مالهم من كرامة عند العرب كافة، وليس أهل المدينة فحسب، ولو كان أمرا محسوما بالدين، والوحى لما تنافسوا فيه، كما أنهم ظنوا أن المهاجرين ربما يعودون الى بلدهم مكة مرة أخرى، وقد مارسوا هذا الفعل من قبل عندما أجتمعوا على عبد الله بن أبى بن سلول ليتولى عليهم باتفاق الأوس، والخزرج وعقدوا عليه الأمر يوم وصول الرسول الكريم الى المدينة مهاجرا اليها، ومن هنا جاء حقده على النبى محمد صلى الله عليه وسلم لأن وجوده حال دون توليه أمر الأوس، والخزرج، وزاده حقدا ما هو أعمق، وأشمل من الولاية وهو توليه على القلوب؛ فهو رسول الله..

وهنا نلاحظ طريقة تفكير المجتمع المدنى فى تعيين "اماما" للمسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم ترد بينهم كلمة "خلافة"، أو لقب "خليفة"، وهو مالم يتبادر بالمرة للمهاجرين من مكة اذ أن الأمر سياسيا بحتا؛ بل لم يكن مألوفا لديهم فى مكة وجود أمير، وانما كان الحكم فى مكة على المشاع بين الزعماء من قريش، حتى لو تصدر أحدهم لهذا الأمر كما فى حالة "أبى سفيان" فلم يطلق عليه أحدهم لقب أمير، أو رئيس، ولا غير ذلك لأنهم كانوا يسخرون من هذا الأمر، ويسخرون ممن يأتى به من بينهم؛ فعندما فكر فى ذلك "عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى"، وكان قد تنصر، وداخل رجال الروم فى أن يكون بمكة بمنزلة أمراء الغساسنة، فما كاد يعود الى مكة، ويسمع الناس بدعوته حتى قامت عليه قبيلته نفسها برياسة ابن عمه الأسود بن المطلب، مما اضطره للهروب الى الشام، وحاول ايذاء القرشيين فمازالوا به حتى سجنه الروم، ومات فى سجنه..

جاء أبو بكر إلى الخلافة بما يخالف ما كانت عليه قريش من كبرياء، وطغيان، وقسوة، فهو أول من دان بالاسلام من قريش..

أنكر أشد الانكار مافعله عمرو بن العاص عندما أرسل له رأس قائد من قتلى

الأعـداء أثنـاء غـزوة بالشـام، وأمـر رضـى الله عنـه أن لايُحـمل إليـه رأس، هـذا مقـارنة بما مـاصنع القـرشيـون بعـده مـن حـمل للرؤوس، وسـبى للنسـاء، وانتهـاك للحرمات..

ولما تولى أبو بكر نفست عليه قريش فجاء خالد بن الوليد إلى علىّ يثيره على أبى بكر قائلاً:

-"يا أبا الحسن، يابنى عبد مناف، أغُلبتم عليها؟"..

فأجابه علىّ:

-"أمغالبة ترى أم خلافة؟!"..

وغضب أيضا أبو سفيان، وجاء إلى علىّ، والعباس يستثيرهما، ويقول:

-"يا علىّ، وأنت يا عباس، ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش، وأقلها؟!.. والله لو شئت لأملأنها عليه خيلاً، ورجلاً، وآخذنها عليه من أقطارها"..

ولو كان أمـر السقـيفـة التى جاءت بأبى بكر دينا لتبـعه أبو بكر، وحذر من مـخـالفـته، ولأكـده لأهل الحل، والعـقـد مـن المسلمين، ولكنه يقـر نـظامـا آخـر من عنديـاته حين أوصى لعـمـر بكتـاب مـغلق، بـايع عليـه المسلمين قـبل وفـاته دون أن يعلموا بما فيه، وهو ماخالفه عمر أيضا عندما قصر اختيار من يجىء بعده على واحد مـن السـتـة المعـروفين، وهـم؛ "علىّ"، و"عـثـمـان"، و"طلحـة"، و"الزبيـر"، و"ابن عوف"، و"سعد"، وهو مااختلف أيضا عند اختيار علىّ ببيعـة بعض الأمصار، ثم جاء معاوية بحد السيف، وجاء يزيد ابنه بالوراثة بوصاية منه، وهو مايجمع لدينا ستة نظم لتولى الخليفة، فأيهم هو الصحيح؟.. وأيهم يتفق مع الدين؟..

يذكر سيد قطب فى كتابه العدالة الاجتماعية فى الاسلام مانصه:

-"حـينمـا حـضـرت الوفـاة النبى صلى الله عليـه وسلم دعـا بـأبى بكر ليـصلى بالناس؛ فراجعته عائشة لأن أبا بكر رجل أسيف، فاذا قام فى الناس لم يسـمعوا صـوته، فـأخـذه الغـضب، وذكـر صـويحبـات يوسـف، وأصـر على دعوته ليـصلى بالنـاس، أفكان ذلك اسـتـخـلافـا من الرسـول لصـاحبـه فى الغـار؟.. وهـل فـهم المسلمون منه ذلك فهما صريحا؟..

ويستبعد سيد قطب هذين الفرضين فلو شاء النبى أن يستخلف لفعل، ولو كان هذا الاستخلاف من فرائض هذا الدين لجهر به، كما جهر بكل فريضة أخرى من فرائض دينه، ولو فهم المسلمون منه فهما صريحا أنه يستخلف أبا بكر ماثار الجدل فى السقيفة بين المهاجرين، والأنصار، فما كان الأنصار ليجادلوا فى أمر رسول الله"..

ومن الاستعراض لنظام الحكم، والحكومة فى العهود المختلفة للمسلمين من عصر النبوة الى عصر الراشدين، الى بنى أمية، ثم بنى العباس نلحظ أن نظام الحكم لم يتأثر فقط بالمبادىء، ولكنه تأثر بالبيئة التى قام فيها، والأحداث التى مرت على هذه البيئة، وبالتطور الفكرى، والعلمى الذى انتهى اليه الناس بناء على الاختلاط بالأجناس، والثقافات، وينسى الذين يقاتلون من أجل الخلافة المزعومة أن الدولة سواء أسموها اسلامية، أو طاغوتية - بزعمهم - فقوامها "التشريع"، و"القانون" بصرف النظر عن التسميات، ونوع الحكم، والمنوط بهم وضع التشريع، والقانون فى الاطار الاسلامى هم المشرعون الذين لهم القدرة على استنباط الأحكام الشرعية، وأهل القانون، ومن هم دون ذلك من الزاعمين فسكوتهم خيرا لهذه الأمة، والا على الأمة اسكاتهم قهرا..

ويدهشنا التاريخ الاسلامى برواية عن نجاة أبى بكر من قتل محقق - فى حينه - بالسم، يوردها ابن سعد فى طبقاته عن البدريين من المهاجرين، والأنصار:

-"ان أبا بكر، والحارث بن كلدة كانا يأكلان خزيرة أهديت لأبى بكر، فقال الحارث لأبى بكر؛ ارفع يدك ياخليفة رسول الله، والله ان فيها لسم سنة، وأنا، وأنت نموت فى يوم واحد، قال: فرفع يده، فلم يزالا عليلين حتى ماتا فى يوم واحد عند انقضاء السنة"..

ولم يختلف أحد بعد ذلك على هذا الأمر الا فى آخر أيام "عثمان بن عفان"، ثم صار الخلاف أيام "علىّ" حين خرج عليه "طلحة"، و"الزبير"، ومعهم "عائشة" زوج رسول الله، وحربهم اياه فى موقعة "الجمل" الشهيرة (٣٦هـ - ٦٥٦م)..

خرج ثلاثتهم من مكة قاصدين البصرة للبحث عن قتلة عثمان - بزعمهم - وكان علىّ قد نقل العاصمة من "المدينة" الى "الكوفة" التى بناها هو، وهزم جيش

الثلاثة، وأعاد علىّ منهم عائشة الى مكة كما كانت، وقتل فى هذه المعركة قرابة العشرة آلاف من المسلمين..

قام علىّ بعزل كل الولاة الذين عينهم عثمان من قبل فى حركة تصحيح كى تخمد ثورة الأمصار، ولكن معاوية رفض العزل، وبيعة علىّ، وظل متمسكا بولاية الشام، متدرعا بأهلها، واستقل بها، فسارت الرسل بينهما دون توصل لحل حتى عسكر الفريقان فى "صفين"، ونشب القتال (٣٧هـ - ٦٥٧م) حتى شارف علىّ علي النصر فطلب معاوية من "عمرو بن العاص" المخرج مماهم فيه، فقال عمرو:

-"فلى عليك أن لاتخرج مصر من يدى مابقيت"..

فأجابه معاوية الى طلبه، وهنا أمر عمرو بالمصاحف فرُفعت، ثم أمر أهل الشام - أنصار معاوية - أن يعلنوا لأهل العراق - أنصار علىّ - أن كتاب الله بيننا وبينكم؛ البقية البقية، ثم قال عمرو:

-"ان أجابك الى ماتريد خالفه أصحابه، وان خالفك خالفه أصحابه"..

وكان ماأراد عمرو - لبداهة الأمر - اذ انقسم جيش علىّ عليه؛ بل وانقسم عليه الناس؛ هذا من شيعته، وهذا من عدوه الى يومنا هذا بفكر هذا الصحابى داهية السياسة الذى رأى بثاقب فكره أن ما اقترحه ليس له شأن بالدين؛ بل هو أمر دنيوى بحت من الرأى، والحرب، والمكيدة؛ والا لدخل عمرو رضى الله عنه فى دائرة الاثم، وهو صحابى جليل، وان ظهر أنه حريص على الولاية، وولاية مصر بالذات فهو أيضا لم يأثم فى طلبه الا لما يجده فى نفسه من ملاءمة، وقوة، ودراية بهذه الولاية التى خبرها فى الجاهلية، وقام بفتحها فى بادىء أمر الاسلام، وله من القرآن الكريم عبرة فى نبى الله يوسف عليه السلام الذى طلبها من الملك لعلمه، وأمانته فى هذا الأمر، وهو مايمكن اعتباره ايذانا بغروب الخلافة النبوية الراشدة التى عملت على تثبيت الدين فى الناس؛ ليأتى دور السياسة بعد ذلك فيما استجد من متغيرات اتساع رقعة الاسلام، واحتوائه على عدد كبير من الأجناس، والشعوب المتباينة الطبائع، والثقافات وكانت تخضع لأكبر دولتين فى ذلك الوقت الفرس، والروم..

أبى أهل العراق الا التحكيم على أن يبعث علىّ حكما، ويبعث معاوية حكما،

فبعث معاوية عمرو بن العاص، وبعث عليا "أبا موسى الأشعرى" بعد أن أعطوهم العهود، والمواثيق..

ثم نفر من أنصار علىّ من يقول:

-"**فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله**"، ولم يقل "حاكموهم"، وهم "البغاة" فان عدت الى قتالهم، وأقررت على نفسك بالكفر اذ أجبتهم الى التحكيم، والا نابذناك، وقاتلناك".. فقال علىّ:

-"قد أبيت عليكم فى أول الأمر فأبيتم الا اجابتهم الى ماسألوا فأجبناهم، وأعطيناهم العهود، والمواثيق، وليس يصوغ لنا الغدر"..

فأبوا الا خلعه، واكفاره بالتحكيم، وخرجوا عليه فسموا "الخوارج"، وانحازوا نحو "حرَوراء" واعتصموا بها، فضايقوا الناس، وعاثوا فى الأرض فسادا، ولقوا عبد الله بن خباب وهو من أبناء الصحابة فسألوه عن علىّ قبل التحكيم، وبعده، فقال:

-"هو أعلم بالله، وأشد توقيا على دينه".. فقالوا:

-"انك توال الرجال على أسمائها".. فقتلوه، وبقروا بطن امرأته الحامل، وبعث لهم علىّ رسولا ينهاهم عن قتل المسلمين، فقتلوه، بينما كانوا يؤمنون المشركين عملا بالآية:

-"**وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه**" التوبة ٦..

وتمادوا فكفروا عليا، ومن معه، بل غالوا ونادوا بكفر معارضيهم أيضا، وسارت الوساطات بينهم لحل الأزمة التى قسمت المسلمين الى ثلاث فئات متناحرة، فاشترطوا أن يشهد علىّ على نفسه بالكفر، ثم يعلن اسلامه؛ فلما بلغه هذا قال:

-"كيف أحكم على نفسى بالكفر بعد ايمانى، وهجرتى"، وانصرف عنهم..

ذهب اليهم ابن عباس فناظرهم بالحجة فرجع منهم ألفان، ثم أعد علىّ عدته لما ضج الناس بالشكوى منهم، ونازلهم فى موقعة النهروان(٣٨هـ-٦٥٨م) وقضى

عليهم، فلم يبق الا بضعة منهم، حتى أن قادته، وجنوده كانوا يتحوطون لقتالهم من فرط زهدهم، وصلاتهم، وعبادتهم، وقيامهم الليل، وتلاوتهم القرآن حتى صارت ركبهم كثمات الجمال من كثرة السجود، حتى لما سألوا عليا عنهم قال:

-"أخوتنا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيهم علينا فلاهم مشركون، ولا منافقون"..

وقد وصفهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال:

-"يخرج من أمتى قوم يسيئون الأعمال، يقرأون القرآن لايجاوز حناجرهم، يحقر أحدكم عمله الى عملهم، يقتلون أهل الاسلام، فاذا خرجوا فاقتلوهم، فطوبى لمن قتلهم، وطوبى لمن قتلوه، كلما طلع منهم قرن قطعه الله"..

رددها الرسول أكثر من عشرين مرة، وأخبر بخروجهم كل فترة، وهو ماحدث بالفعل طوال عصور التاريخ الاسلامى..

وبذا خرج الشام من حوزة علىّ، وعاد عمرو بن العاص الى مصر واليا عليها، أما معاوية فدالت له مكة، والمدينة، واليمن، وخلال استرجاعها تربص الخوارج لعلى فقتله "عبد الرحمن بن ملجم" سنة ٤٠هـ - ٦٦١م، وبايع الناس ابنه الحسن فمكث ستة أشهر، ثم تنازل لمعاوية عن الخلافة، وسمى "عام الجماعة" سنة ٤١هـ- ٦٦١م..

ان الآيات، والأحاديث التى قدمت على لسان من حرضوا عليا رضى الله عنه على دم معاوية، وقتاله هى نفس الآيات، والأحاديث التى حرض بها أصحاب معاوية على دم علىّ، وقتاله، وهى نفس الآيات، والأحاديث التى قُتل بها عثمان رضى الله عنه غدرا، وهى نفس الآيات، والأحاديث التى قتل بها يزيد بن معاوية الحسين بن على غدرا أيضا، وعرض حرائر أهل البيت فى سوق النخاسة لمن يشترى، وهن حفيدات رسول الله..

الفتنة:

انهمك المسلمون فى عهد أبى بكر، وعمر فى قتال الروم، والفرس مما عمل على توحيد التناقض فى طبيعة هؤلاء لإستهداف غاية واحدة هى النصر على الأعداء، وجنى المسلمون غنائم الحرب فى عصر عثمان حتى توقفت الفتوحات

تقريبا فى عهده، وقد نصحه "عبد الله بن عامر" أحد ولاته على الأمصار فى المؤتمر الذى دعى اليه عثمان للتشاور، وقمع الفتنة قبل اشتدادها فأشار عليه ابن عامر:

-"رأيى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجرهم فى المغازى حتى يذلوا لك فلا يكون همة أحدهم إلا نفسه"..

كان عثمان محباً لأقربائه حباً يلفت النظر، وكان أقرباؤه من الذين دخلوا الاسلام بعد الفتح، ولم يكن منهم من عانى معناة المهاجرين من أهل مكة فى مكة، والمدينة، ومع ذلك احتكروا المناصب، والولايات فى الأمصار، ووزعوها على الأحباء، والأصهار..

عاتب عثمان الثائرين عليه فقال:

-"ألا فقد والله عبتم علىَّ بما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم، ولنت لكم، وأوطأت لكم كتفى، وكففت يدى، ولسانى عنكم، فاجترأتم علىَّ"..

والحق أن عثمان لم يختلف سلوكياً عن عمر اختلافاً كبيراً، ولكنه كان يتحيز لأقربائه تحيزاً ظاهراً، ولا يحب الناس من الحاكم تحيزه لأى من كان، ولا يقبلون شبهة فى ذلك..

فكان عمر يقسو على نفسه، وعلى ولده قبل أن يقسو على الناس، ومن هنا يتحمل الناس شدته عليهم، كما يفسرون كل مايبدر منه تفسيراً حسناً حيث ينتفى فيه سوء النية..

فى كتابه العدالة الاجتماعية فى الاسلام يقول سيد قطب:

-"منح عثمان الزبير ذات يوم ٦٠٠ ألف، ومنح طلحة ٢٠٠ ألف، ونفّل مروان بن الحكم خُمس خراج أفريقيا، فعاتبه بعض الصحابة وعلى رأسهم علىّ بن أبى طالب فأجاب:

- ان لى قرابة ورحما.. فأنكروا عليه وسألوه:

- أفما كان لأبى بكر وعمر قرابة ورحما؟.. فقال:

- ان أبا بكر وعمر كانا يحتسبان فى منع قرابتهما، وأنا أحتسب فى اعطاء قرابتى.. فقاموا عنه غاضبين وهم يقولون:

- فهديهما والله أحب من هديك"..

استقر الحكم لعثمان فى الست سنوات الأولى، وباقى فترته عارضه الصحابة لتولية أقاربه، وهم نفر غير قليل من صحابة الصدر الأول للاسلام، ومنهم خمسة مبشرين بالجنة؛ "عبد الرحمن بن عوف"، و"الزبير بن العوام"، و"طلحة بن عبيد الله"، و"علىّ بن أبى طالب"، و"سعد بن أبى وقاص"، ثم من غيرهم "أبو ذر الغفارى"، و"عبد الله بن مسعود"، و"عمار بن ياسر"، وكثيرون..

وأنكروا عليه أن يأوى من أمر رسول الله بطردهم من المدينة، وأن يتصرف فى بيت المال كما يشاء دون قاعدة، أو استشارة؛ فيغدق على أقاربه، والمقربين منه، ويمنع آخرين، ويضطهد بعضا من أبرز الصحابة مثل أبى ذر، وعبد الله بن مسعود، وعمار، فهل نعد هذا من عثمان دينا، أم سياسة حكم؟!.. فاذا كان دينا فقد أهمل عثمان اجماع الأمة، وهو صحيحا من الدين بالضرورة، وهو مالايجوز عليه، وأما ان كان سياسة فله اتجاهه السياسى الذى لايلومه عليه أحد، وعليه التصرف تجاه الثائرين عليه، ولامساس مطلقا بالدين، وقواعده، وأثره فى النفوس..

كان أبو بكر، وعمر يتشددان فى امساك رؤوس الصحابة بالمدينة، لا يدعهم يضربون فى الأرض المفتوحة حتى لاتمتد أبصارهم الى المال، والسلطان حين يجتمع اليهم الأنصار، والمحبين بحكم التصاقهم برسول الله يوما ما، فلما جاء عثمان أباح لهم ذلك؛ بل يسر لهم، وحضهم على توظيف أموالهم فى الدور، والضياع فى الأقاليم؛ فجنى بعضهم من ذلك الألوف المؤلفة مما نشأ عنه فوارق مالية، واجتماعية كبيرة فى المجتمع الاسلامى الناشىء، كما نشأت طبقة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان دون كد، أو تعب..

حارب محمد صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أغنياء قريشا، وحارب معهم الربا، والاستغلال، والاستعباد، وقد أمر فى سنيه الأخيرة بمصادرة جميع الاموال التى استثمرت فى الربا، ولم يبق فى أيدى أصحابها إلا رؤوس أموالهم

التى بدأوا بها أعمالهم فى أول الأمر، وبهذا لم يقض على الملكية الكبيرة نهائياً، وكان من اللازم استمرار هذه السياسة المحمدية بعد موته، ولكنه لما قضى على الأغنياء فى عصره نشأ بعده أغنياء من طراز جديد، وذلك نتيجة انهيال الغنائم على المسلمين بعد الفتوح..

وهؤلاء الأغنياء الجدد لم يمارسوا الربا على الصورة التى حرمها النبى، ولكنهم ابتكروا طريقة جديدة يتحايلون بها على هذا التحريم، وساروا على استثمار أموالهم الفائضة بهذه الطرق الثلاثة:

- شراء العبيد واستخدامهم فى التجارة، والمهن المختلفة مع فرض ضريبة عليهم يأخذونها منهم يومياً..

- استثمار أموالهم لدى التجار، ثم تقسيم الأرباح بينهم بنسب معينة..

-"البيع المؤجل" بإقراض الناس بضائع أعلى من سعر السوق، وقد أطلقت عليه السيدة عائشة "الربا العاجل"، وكأنها اعتبرته تحايلاً على الشرع..

- بلغت ثروة أحدهم ٤٠٠ ألف درهم + ١٠٠٠ فرس + ١٠٠٠ عبد..

- أما طلحة فكانت غلته ١٠٠٠ دينار فى اليوم من قطائعه فى العراق ومن ناحية السراة أكثر من ذلك..

- وكان على مرابط عبد الرحمن بن عوف ١٠٠٠ فرس + ١٠٠٠ بعير + ١٠٠٠٠ شاة من الغنم، وترك بعد وفاته ٣٣٦ ألف دينار..

- وترك زيد بن ثابت لورثته من الذهب، والفضة ما كان يكسر بالفؤوس عدا الأموال، والضياع التى بلغت قيمتها ١٠٠٠٠٠ دينار..

وكان بعض الصحابة يملكون أعداداً غفيرة من العبيد الذين جاءوا عن طريق الأسر فى الفتوح، أسرهم المجاهدون فى سبيل الله، وأغلبهم لم يكن محارباً أصلاً بل كانوا من أصحاب الحرف، والصنائع، وبعد عودتهم بهم باعوهم للمؤمنين الذين يتركونهم يعملون أحراراً فى الأسواق على أن يؤدوا إليهم ضريبة معينة قد تقصم ظهورهم، وظهور أسرهم، ولا يستطيع أحدهم العيش هو، وأسرته مما يفيض منه بعد دفع الضريبة فيضج بالشكوى، ولكن هيهات فهو

عبد فى عرف المؤمن قد حارب الله، ورسوله، وأسر بأيدى المسلمين فى سبيل الله فهو لا يستحق الرحمة، فقدره معهم أن يكدح ليضيف إلى ثروة الأسياد المؤمنين المجاهدين فى سبيل الغنائم، ومالعبيد الا غنائم الحرب، والجهاد..

ونشأ مع هذا الترف، والبذخ الذى انتهى بعثمان، وكان نبتا مواتيا للملك العضوض الذى اجتهد فقهاء الولاة، والحكام فى تبريره، وتدعيمه، والاستفادة منه لصالحهم بعد أن نشأ الفقر، والبؤس على الجانب الآخر، فعندما يبرز الأغنياء بأموالهم الضخمة يعم الغلاء الفاحش عادة، ويكثر الفقراء بما تسببه الأموال الكثيرة من غلاء الأسعار على الفقراء الذين لايستطيعون العيش معهم(التضخم بلغة العصر الحديث)؛ فينقسم المجتمع، وتتخلخل طبقاته، وينشأ الاضطراب الاجتماعى، والتربص، ثم الثورة التى لاتبقى ولاتذر، فالفقراء ليس لديهم مايخافون عليه، ولما جاء علىّ بعد عثمان ليصلح مافسد من أمر الرعية، ليعود بها الى عهد النبوة الأولى؛ قام عليه الخوارج بالدين، ولم يظهروا ماكتنزوه ثم قتلوه..

سئل عمر يوما عما يحل له من بيت المال فقال:

-"أنا أخبركم بما أستحل منه يحل لى حلتان حلة فى الشتاء، وحلة فى القيظ، ومأأحج عليه وأعتمر من الظهر، وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولابأفقرهم، ثم أنا رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم"..

ترك عثمان الأغنياء يؤدون زكاة الأموال الباطنة من نقد، وذهب، وفضة، وعروض التجارة إلى الفقراء بأنفسهم، فبعد أن كان الجباة يحصلون منهم هذه الأموال(وهو السبب الذى أقام له أبو بكر ماسُمى بحروب الردة، لأنه أرادهم أن يؤدوها له شخصيا كما أدوها لرسول الله) فأدى إلى اهمال الأغنياء أداء هذه الزكاة مادام الامام، أو الخليفة لم يقم بتحصيلها؛ مهدرين سنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فنشأت طبقة كبيرة من أصحاب الغنى الفاحش دأبوا على البيع، والشراء بلا قيد، أو شرط دون سؤالهم عن زكاة هذه الأموال..

وهنا ظهر الصحابى أبو ذر الزاهد الثائر ليعلن الحرب على الأغنياء

ببذخهم، وسفههم، ويجوب الشوارع صائحاً فيهم ليوزعوا أموالهم كلها على الفقراء، مرددا الآية الكريمة:

-"**والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**" التوبة٣٤.. والرجل يصرخ فيهم:

-"لقد حدثت أعمال ماأعرفها، والله ماهى فى كتاب الله، ولاسنة نبيه"..

وعندما ينهاه عثمان الخليفة - من طبقة الأغنياء - مدافعا عن أبناء طبقته الأرستقراطية يقول أبو ذر:

-"أينهانى عثمان عن قراءة كتاب الله؟!"..

وهو ينبه الخليفة أن هذا قول الله من كتاب الله الذى ادعوا أن عثمان كان يقرأه كله فى ركعة واحدة، وهو الشيخ الكبير!..

كان أبو ذر يكره أن يعطى الامام مال المسلمين للأغنياء بغير حقه، فيزدهم غنى، ويزيد الفقراء فقراً، يؤثر بالمال قوماً لاحاجة لهم به، ويصرف هذا المال بعيدا عن المصالح العامة للمسلمين..

جاء أبو ذر بمبدأ يحسبه المسلمون جديداً عليهم، وقد يصدر عليه الواعظون، وفقهاء السلطة فتوى بزندقته، لأنه يرى أن الزكاة وحدها لاتكفى الفقراء، وينبغى أن ينفق الأغنياء حتى لايبقى لديهم إلا ما يكفيهم لمعاشهم، ومعاش ذويهم..

ويبدو أنه أمر عسير المنال إذ سوف لايرضى الأغنياء، وهم عادة مايشكلون أهل الحل، والعقد للأسف، فكيف يتنازلون عن أموالهم الطائلة، وسلطانهم على الحكم، والحاكم، وسلطتهم التى اعتلوها بهذه الأموال، كما اعتلى قارون كتفى فرعون، بأمواله فأصبح من أركان حكمه، ودولته، وكذلك بغى به على قومه من بنى اسرائيل، ومن هنا كان لابد من ابعاد قائد الثورة أيام الأرستقراطية العثمانية الجديدة على الاسلام، والمسلمين فيأمر بنفيه مرتين إلى "الشام"، ثم إلى "الربذة"..

ولم يسلم أبو ذر من النقد الأرستقراطى - الذى لايعرفه الاسلام - أيام عثمان فقط بل جاءت لجنة الفتوى بالأزهر حديثاً فى عهد الملك فاروق - وهى فترة

الأرستقراطية المصرية مثل أيام عثمان - لتقرر الطعن على هذا الزاهد المحترم، وتتهمه ظلما، وجهلا بمبادىء الاسلام - بالهوس، والخروج على اجماع المسلمين (ولاندرى بالضبط متى اجتمع المسلمون على شئ؟!)..

وعندما ثار أبو ذر على الأغنياء كان الأغنياء جاهزون باتهامه بأنه استمد مبادئ هذه الثورة من يهودى يدعى "عبد الله بن سبأ" من اليمن، أو "ابن السوداء"، ومن الممكن تاريخياً بالفحص إدراك أنه ربما لم يذهب أبو ذر إلى اليمن فى حياته، أو التقى به فى مكان، ولكن هذا هو ديدن الأغنياء دائماً عبر التاريخ، كما أن هناك من المحققين من يشكك فى وجود شخصية ابن سبأ هذه أصلاً، وكأنهم ينسبون كل حركة، أو ثورة إلى جهات أجنبية، وهى تهمة يصدقها البلهاء بسرعة غريبة..

قال عنه النبى صلى الله عليه وسلم:

-"رحم الله أبا ذر يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده"..

وغضب منه عثمان غضباً شديداً فقال لمن حوله:

-"أشيروا علىَّ فى هذا الشيخ الكذاب، إما أن أضربه، أو أقتله، فإنه فرق جماعة المسلمين، أو أنفيه من أرض الاسلام".. فرد عليّ:

-"أشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون؛ "فإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم، إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب""..

فغضب عثمان لجوابه هذا، واتهمه بأنه هو الذى حرض أبا ذر عليه..

ونفذ صبر عثمان فأمر بنفى أبى ذر إلى "الربذة"، وأمر بأن لايشيعه، أو يودعه أحد، فخرج علىّ ليودع أبا ذر بصحبة ولداه الحسن، والحسين، وأخوه عقيل، وابن أخيه عبد الله بن جعفر، وكان مع هؤلاء فى توديع أبى ذر أيضاً "عمار بن ياسر"..

ويبدو أنهما لم يسمعا بحظر عثمان لتوديعه؛ فأمر بنفى عمار بن ياسر، وهدد علياً بالنفى، وعند ذلك جاءه نفر من كبار الصحابة فلاقوا عثماناً وقالوا له:

-"كلما غضبت على رجل نفيته، فإن هذا أمر لايسوغ".. فكف عثمان عن علىّ،

وعمار..

ولعل أبا ذر كان أبعد نظراً فى الدين من عثمان، وأبعد فهما لكتاب الله منه حيث يقول تعالى:

-"**وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**" الزخرف ٢٣..

فيفهم أبو ذر أن الترف، وكثرة الذهب، والفضة تطغى الانسان:

-"**كلا ان الانسان ليطغى**(٦) **أن رآه استغنى**(٧)" العلق..

وهو مايؤدى عادة إلى الأثرة، والاستئثار بالرأى دون الرأى الآخر فيصيروا دعاة ظلم، ورجعية، كما أن هلاك القرى(الدول)، واندثار الحضارات منوط بهذه الطبقة المترفة التى استعصت على أوامر الله فى رد بعض مالهم للفقراء، ففسقوا بأموالهم:

-"**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا**" الاسراء ١٦..

فمشكلة الكفار المترفين أنهم يقاومون كل تغيير فى العادة، ويخشونه، فيقفون دائماً ضد التطور الاجتماعى، والتجديد، والاصلاح؛ فالتغيير يقلقهم لأنهم يخافون على أموالهم، ومصالحم، ومراكزهم الاجتماعية..

يروى البخارى عن أبى هريرة قول الرسول:

-"يرد علىَّ يوم القيامة رهط من أصحابى فيملأون عن الحوض، فأقول يا ربى أصحابى فيقول: إنك لاعلم لك بما أحدثوا بعدك، انهم ارتدوا على أعقابهم القهقرى"..

فى كتاب سيد قطب - العدالة الاجتماعية فى الاسلام:

-"أن عثمان منح زوج ابنته يوم عرسه مائتى ألف درهم، فجاءه زيد بن أرقم خازن بيت المال يحتج على ذلك باكياً، ويسأله أن يعفيه من عمله فقال عثمان مستغرباً:

-أتبكى يا ابن أرقم أن وصلت رحمى؟.. فأجابه الخازن:

-لا ياأمير المؤمنين، ولكن أبكى لأنى أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته فى سبيل الله فى حياة رسول الله، والله لو أعطيته مائة درهم لكان كثيراً.. فغضب عثمان وقال له:

-إلق بالمفاتيح يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك"..

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم:

-"ما ازداد رجل من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله الا اشتد حسابه"..

جاء بلال إلى الرسول، وكان خازنه يقول:

-"قد قضيت جميع ديونك يارسول الله، ولم يبق عندى سوى أوقيتين من الذهب".. فقال له النبى:

-"أنظر أن تريحنى منهما، فلست بداخل على أحد من أهلى حتى تريحنى منهما"..ويظل النبى ساهراً فى المسجد حتى بعث الله له فقيرين، فيقول بلال للنبى:

-"قد أراحك الله منهما"..فيجيبه النبى وقد انحط عنه همه، وسهره:

-"الحمد لله"..

وكان علياً كذلك فلا يأتيه مالاً حتى يبادر بتوزيعه كله دون ابطاء خشية أن يكون هناك محتاج للمال، فلا ينام الليل، وعنده مال فقد يكون هناك من بات بلا عشاء، وكان أبو ذر يوزع كل عطاءه من عمر على المحتاجين، وكان عمر قد عين له عطاءاً ضخماً لأسبقيته فى الاسلام، وكان لا يُبقى لنفسه شئ حتى أنه لم يتبق لموته كفناً يدفن فيه..

وكان سلمان الفارسى يتصدق بعطائه كله على الفقراء بمجرد أن يخرج به من بيت المال، ويأكل من عمل يده، ولكنه كان يكنز قوت سنة كى لاتدفعه الحاجة الى اهمال العبادة، أو الانشغال عنها، فهو خير من يتوسط فى النفقة فلا يسرف، ولا يقتر..

ويقول علىّ بن أبى طالب:

-"ما ضرب الله عباده بسوط أوجع من الفقر"..

ويقول الامام أبو حنيفة:

-"لا تقبلوا شهادة من ليس فى بيته طحين"..

فالمعوز أقرب إلى الغش، والكذب، وشهادة الزور كى يدرء عن نفسه خطر المجاعة..

وكان النبى يكثر من دعاء:

-"اللهم إنى أعوذ بك من جهد البلاء".. فلما سئل قال:

-"قلة المال، وكثرة العيال"..

ويقال ان الانسان إذا افتقر سرق، واذا اغتنى فسق..

ونجاح الحكومات الحديثة فى الاكثار من رعاياها المتوسطين بين الفقر المدقع، والغنى الفاحش؛ فتفرض الضرائب التصاعدية على الأغنياء كى تعطى الفقراء، وعندنا فى مصر عندما هجرت الدولة النظام الاشتراكى الذى يراعى عدالة التوزيع - حتى ولو قل - إلى النظام الرأسمالى فأخذت بعضه، وأهملت الباقى، فتركت للأغنياء الحبل على الغارب، ومنحتهم كافة التسهيلات، فتحمل الفقراء كافة الأعباء، والخدمات التى استفاد منها الأغنياء فقط، وكأن الدولة تعاقبهم على فقرهم..

كان أبو بكر يوزع المال بالتساوى بين المسلمين، وكان يرى أن فضل السبق فى الاسلام، والجهاد يرجع جزاؤه إلى الله تعالى، وكان عليّ يرى رأى أبى بكر فى هذا..

■■■■■

الثورة على عثمان وحصاره:

واجه الثائرون عثمان بخروجه على قواعد العدل، وهو خروج عن جوهر الاسلام، وماجاء به، على أن يغير من سياسته فأبى، وخيروه بين ثلاث:

- الاقادة منه(يعاقب كأى مسلم يخطىء، ثم يستمر فى خلافته)..
- أو يتبرأ من الامارة (يعتزل الخلافة بارادته)..
- أو يرسلوا الأجناد، وأهل المدينة ليتبرأوا من طاعته(اعتزال الخلافة بارادة الرعية)..

فرفضها جميعا بقواعد من عندياته تستهجن مراجعة الخليفة، وترفض استدراك الرعية عليه، وتقرر أن البيعة ليس فيها خيارات الرجوع عنها، فهو لم يكره أحدا على مبايعته، وعليه فلا حق للمبايع فى سحب بيعته، والنكوص عنها..

اذن فلا قاعدة للحكم، ولارقابة على الحاكم، والأمر موكول لضميره، فهى خلافة أبدية لاتنتهى الا بموت الخليفة حتى لو أخطأ، لقد خرج على مبادىء وضعها أبو بكر، وعمر من حيث المراجعة، والتقويم، وسلوك طاعة الله فى الرعية، ولا نصوص من قرآن، أو سنة تحدد هذا الأمر، ومن هنا جاء الخلاف السياسى، لا الدينى، والا كانت النصوص ملزمة للخليفة، والرعية معا..

قدم المدينة سنة ٣٥هـ "مالك الأشتر النخعى" فى جمع من الناس قوامه ٩٥٠ رجلا من الكوفة، والبصرة، ومصر اجمعوا كلهم على خلع عثمان، فلما وصلوا الى المدينة بعث اليهم عثمان بالمغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص يدعوهم الى الكتاب، والسنة فلم يسمعوا منهم، وردوهم أقبح رد، فبعث اليهم عليا بن أبى طالب فضمن لهم مايعدهم به عثمان، وكتبوا على عثمان كتابا باجابة مطالبهم، والسير فيهم بكتاب الله وسنة رسوله، وأشهدوا كذلك على علىّ أنه ضمن ذلك، واقترح المصريون على عثمان عزل عبد الله بن أبى سرح، وتولية محمد بن أبى بكر، فأجابهم الى ذلك..

انفض الجمع على ذلك، وسار كل الى بلده، وعندما وصل المصريون الى

"أيلة" لقيهم رجل على دابة لعثمان، يحمل كتابا مختوما بخاتم عثمان؛ جاء فيه:

-"من عثمان الى عبد الله بن أبى سرح.. اذا قدم محمد بن أبى بكر، ومعه فلان، وفلان فاقطع أيديهم، وأرجلهم، وارفعهم على جذوع النخل"..

فانقلب المصريون عائدين الى المدينة، وتبعهم الكوفيون، والبصريون، ولما أخبروا عثمان بما حدث أقسم لهم بأنه مافعل ذلك، ولاأمر به، فقالوا:

-"هذا أشد عليك، يؤخذ خاتمك، ودابة من ابلك وأنت لاتعلم؟.. ماأنت الا مغلوب على أمرك، لابد أن تعتزل"..

فأبى عليهم، فأجمعوا على حصاره، وحاصروه فى داره أياما تراوحت بين ٢٠ - ٨٠ يوما حسب الروايات..

خرج علىّ بن أبى طالب من داره متقلدا سيفه، وأمامه ابنه الحسن، وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين، والأنصار فحملوا على الناس، وفرقوهم، ثم دخلوا على عثمان فقال علىّ:

-"السلام عليك ياأمير المؤمنين، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلحق هذا الأمر حتى ضرب بالمقبل المدبر، وانى والله لاأرى القوم الا قاتليك، فمرنا فلنقاتل".. فقال عثمان:

-"أنشد الله رجلا رأى لله عز وجل عليه حقا، وأقر أن لى عليه حقا أن يريق بسببى ملء محجمة من دم، أو يهريق دمه فىّ"..

وأعاد علىّ عليه القول، فأجاب بمثل ما أجاب، فخرج علىّ من الباب، وهو يقول:

-"اللهم انك تعلم أنا قد بذلنا المجهود"..

ثم دخل المسجد، فاقتحموا على عثمان الدار، والمصحف بين يديه، فأخذ محمد بن أبى بكر بلحيته، فقال له عثمان:

-"أرسل لحيتى ياابن أخى، فو الله لو رأى أبوك مقامك هذا لساءه"..

فأرسل لحيته، وولى، فضربه "بتار بن عياض"، و"سودان بن حمران" بسيفيهما، فنضح الدم منه، وجلس "عمرو بن الحمق" على صدره، وضربه حتى

مات، ووطىء "عمير بن صابىء" بطنه فكسر له ضلعين من أضلاعه، ولم يدفن الا بعد ثلاثة أيام، وصلى عليه "جبير بن مطعم"، ودفن ليلا..

يذكر الطبرى فى تاريخه:

-"لبث عثمان بعدما قتل ليلتين لايستطيعون دفنه، ثم حمله أربعة؛ "حكيم بن حزام"، و"جبير بن مطعم"، و"نيار بن مكرم"، و"أبو جهم بن حذيفة" فلما وضع ليصلى عليه جاء نفر من الأنصار يمنعونهم الصلاة عليه، وفيهم "اسام بن أوس بن بجرة الساعدى"، و"أبو حته المازنى" ومنعوهم أن يدفن بالبقيع، فقال أبو جهم؛ ادفنوه فقد صلى الله عليه وملائكته، فقالوا؛ لاوالله لايدفن فى مقابر المسلمين أبدا، فدفنوه فى حش كوكب(مقابر اليهود)، فلما ملكت بنى أمية أدخلوا ذلك الحش فى البقيع"..

وفى رواية أخرى:

-"أقبل "عمير بن ضابىء" وعثمان موضوع على باب؛ فنزى عليه فكسر ضلعا من اضلاعه"..

وفى رواية ثالثة:

-"دفنوه فى حش كوكب حين رماه المسلمون بالحجارة؛ فاحتمى حاملوه بجدار دفنوه، فوقع دفنه فى حش كوكب"..

خامس الراشدين:

كثيرا ماينسب عمر بن عبد العزيز الى الراشدين رغم بعده الزمنى عن الأربعة المعروفين، وقد ضموه اليهم لسيرته الطيبة فى الرعية، ولموته مسموما من أقاربه بعد أن شدد عليهم فى المنح، والعطايا، وانتزع كثيرا مما فى أيديهم، وضمه الى بيت مال المسلمين، حتى كتب اليه أحدهم متوعدا:

-"انك أزريت على من قبلك من الخلفاء، وعبت عليهم، وسرت بغير سيرتهم، بغضا لهم، وشينا لمن بعدهم من أولادهم، وقطعت ماأمر الله به أن يوصل اذ عمدت الى أموال قريش، ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جورا، وعدوانا، ولن تُترك على هذا الحال، والسلام"..

الأمويون
(٤١ - ١٣٢هـ) (٦٦١ - ٧٤٩م)

خريطة (٣) أراضى الاسلام فى عصر الأمويين

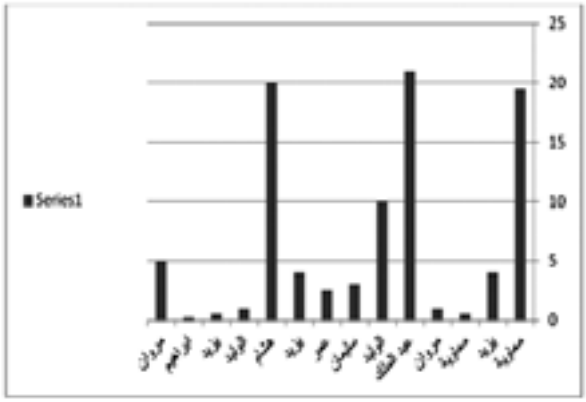

شكل(٣): التمثيل البيانى لمدد حكم الخلفاء الأمويين..

م	الخليفة	سنة خلافته	سبب تركه للخلافة	الفرع
١	معاوية بن أبى سفيان	٤١هـ - ٦٦١م	الوفاة	السفيانى
٢	يزيد بن معاوية	٦٠هـ - ٦٧٩م	الوفاة	"
٣	معاوية بن يزيد	٦٤هـ - ٦٨٣م	التنحى	"
٤	مروان بن الحكم	٦٤هـ - ٦٨٣م	وثبت عليه زوجته بعد أن شتمها فوضعت مخدة على وجهه أثناء نومه وجلست فوقها هى وجواريها..	المروانى
٥	عبد الملك بن مروان	٦٥هـ - ٦٨٤م	الوفاة	"
٦	الوليد بن عبد الملك	٨٦هـ - ٧٠٥م	الوفاة	"
٧	سليمان بن عبد الملك	٩٦هـ - ٧١٤م	مات بالحمى، ويقال بذات الجنب	"
٨	عمر بن عبد العزيز	٩٩هـ - ٧١٧م	الوفاة، وقيل مسموما	"
٩	يزيد بن عبد الملك	١٠١هـ - ٧١٩م	الوفاة	"
١٠	هشام بن عبد الملك	١٠٥هـ - ٧٢٣م	الوفاة	"
١١	الوليد بن يزيد	١٢٥هـ - ٧٤٢م	الوفاة	"
١٢	يزيد بن الوليد	١٢٦هـ - ٧٤٣م	قتل وصلب بعد خلعه لفسقه، وخلاعته	"
١٣	ابراهيم بن الوليد	١٢٦هـ - ٧٤٣م	قتله، وصلبه مروان بن محمد	"
١٤	مروان بن محمد	١٢٧هـ - ٧٤٤م	قتله صالح بن على بن عبد الله بن عباس	"

تميز الأمويون بتعظيم الجانب العروبى، والاعتزاز به؛ فأسندوا مناصب الدولة للعرب، وحرموها على الأجانب الذين أطلقوا عليهم "الموالى"، وهو مايعنى الخروج بعد سقوط الدولة الأموية من الاطار العربى الى الاطار الاسلامى الذى اعتمد أساسا على الموالى ابان الدولة العباسية، وكانوا من عوامل تدهور الدولة، وتقسيمها بينهم على المدى الطويل، واستقلالهم بأجزاء منها حتى تحكموا فى الخلفاء فى عاصمة الدولة نفسها..

كما حُسب للدولة الأموية أيضا سعة فتوحاتها عن الدولة العباسية، وتعددها، فوصلت الفتوحات الى حدود الصين شرقا، والى المغرب، والأندلس غربا، بل واصل الأمويون دولتهم القوية فى الأندلس بعد سقوط دولتهم فى المشرق الاسلامى سنة ١٣٢هـ - ٧٤٩م..

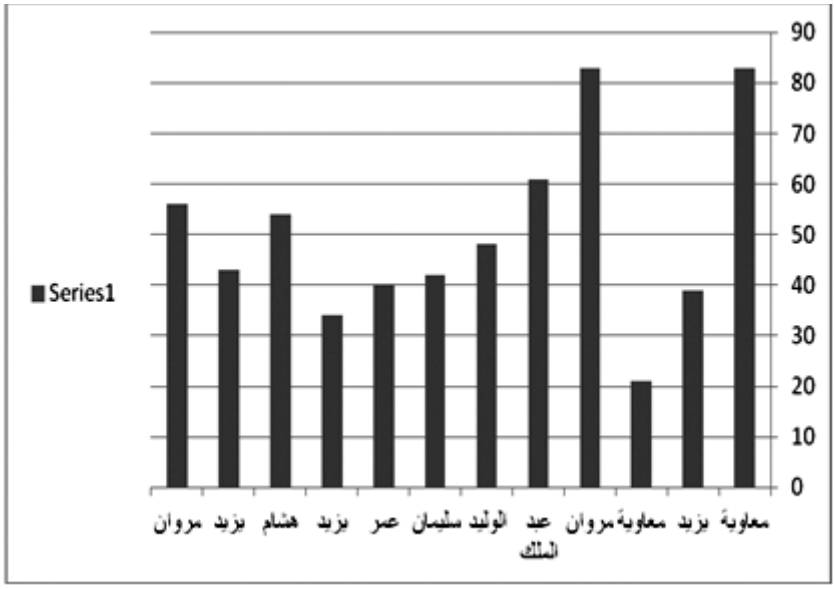

شكل(٤): متوسط أعمار بعض خلفاء الأمويين..

كان الحكام الأمويون لايطيقون نصحا، وكان المسلمون يتحملون جور، وعسف هؤلاء الحكام حتى لايتصدع بنيان تلك الجيوش الموجهة الى فتح بلاد جديدة ينتشر فيها الاسلام، فجيوش الاسلام تشتبك مع غير المسلمين..

وكان الخلفاء يضطهدون مخالفيهم، وحتى ناصحيهم، ويتتبعون آل بيت رسول الله، ومن يتشيعون لهم قتلا، وذبحا بلا رحمة..

كان يزعجهم حنين الناس لعصر النبوة، والخلفاء الراشدين، وحب الناس لآل بيت النبى الذين ألزمهم الأمويون المدينة فلا يبرحونها الا للحج..

بيعة يزيد بن معاوية:

لم يخطر ببال أبى بكر ترشيح ابنه للخلافة، وأكد عمر على حرمان ابنه منها، أما علىّ فقد طلبوا منه استخلاف الحسن فأبى، وقال:

-"لاآمركم، ولاأنهاكم.. أنتم أعلم"..

أما عثمان فلم يكن له بنون، ومن هنا كان من الممكن اعفاء معاوية من اللوم اذا اكتفى بالتغلب على علىّ بعد الخروج عليه، وانهاء حكم الراشدين، ولكنه بدا

مصمما على هذا اللوم عندما جعلها ملكا عائليا وراثيا؛ فخرجت عن الاستخلاف بالشورى، وأهل الحل والعقد، واجماع الأمة الى المُلك كمُلك روما، وفارس، أو كما أطلق عليه صلى الله عليه وسلم "المُلك العضوض"..

المغالبة بالقوة، والشوكة دون النظر الى الأفضلية، أو الأحقية بالأمر، وهو ماصبغ اتجاهات الأمة بالفرُقة، والاقتتال، فبعد استشهاد الخليفة الثالث رضى الله عنه أصبح اجماع الأمة، أو حتى شبه الاجماع على الاختيار بعيد المنال، خاصة اختيار المرشح للحكم، فمنذ تلك الواقعة أصبح السيف هو الفيصل، والحَكم فيما يتعلق بالولاية، والحُكم..

لقد تعرض العلويون للقتل، والسجن، والتشريد على يد أبناء عمومتهم العباسيين، أضعاف ماتعرضوا له من الأمويين البعيدين عنهم فى النسب..

كان أهل المدينة من أشد المناوئين لبيعة يزيد بن معاوية بعد أن أمر معاوية والى المدينة من بنى أمية "مروان بن الحكم"؛ فدعاهم الى البيعة..

وأمراء المدينة خاصة أبناء الصحابة المهاجرين قد اتفقوا على عدم أحقية بنى أمية بالخلافة، وهم أقدم منهم اسلاما، وهو أحد الذين أسلموا بعد فتح مكة، بل طعن بعضهم فى خلافته أصلا..

يقول عبد الله بن حنظلة عن يزيد:

-"والله ماخرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء، ان رجلا ينكح الأمهات، والبنات، والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة والله لو لم يكن معى أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسنا"..

انتهز معاوية حلول موسم الحج من هذه السنة(٥١ هـ)، وهى السنة التى تلت بيعة أهل الشام لابنه يزيد، وباقى الأنحاء، وبادر بزيارة المدينة وعندما فرغ من المفاوضات الكثيرة معهم أخذته فتنة السلطة ليبغى على أحياء يرزقون، فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ادعى عليهم قائلا:

-"انا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار، زعموا أن ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبى بكر لم يبايعوا يزيدا، فقد سمعوا، وأطاعوا، وبايعوا له"..

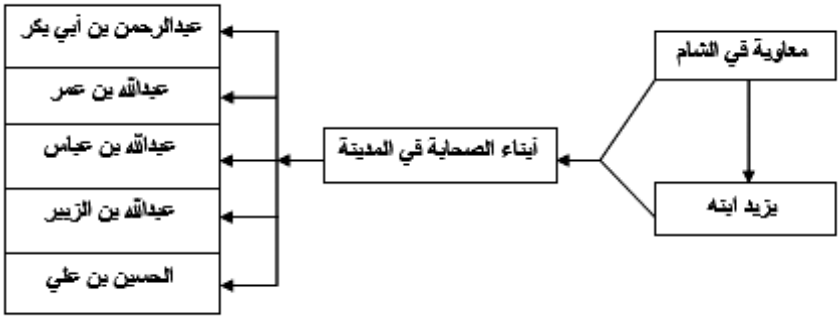

رسم تخطيطى يوضح طرفى الصراع من أجل بيعة يزيد بن معاوية

فقال أهل الشام من الذين كانوا معه:

-"لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رؤوس الناس، والا ضربنا أعناقهم"..

فانتهرهم معاوية قائلا:

-"مه.. سبحان الله، ماأسرع الناس الى قريش بالسوء، لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم".. ثم نزل، وهو يقول للناس:

-"بايع ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبى بكر".. وهم يردون:

-"لا والله مابايعنا".. فيرد عليهم مصمما:

-"بلى قد بايعتم"..

ثم ارتحل، ولحق بالشام، بعد أن دلس عليهم؛ وهم شهود بحجة المحتجين- بتدليسهم هم أيضا على تدليسه - بأنه مدفوع بحرصه الشديد على اجتماع الكلمة، وليس بحرصه الشديد على الامارة، والملك العضوض له، ولأبنائه من بعده..

الحسين والخلافة:

عارض الحسين معاوية فى بيعة يزيد عندما قابله فى مكة، وكذلك عارض أخيه الحسن عندما تنازل عن الخلافة لمعاوية بما سمى يومها "عام الجماعة"، ولم يرض شيعة العراق بهذا التنازل، وحاولوا جاهدين اثناء الحسن عن رأيه،

ولكنهم لم يفلحوا؛ فانصرفوا الى الحسين الذى كان دائما مايعلن رفضه لهذا الصلح لولا اتباعه لأخيه الحسن، واحترام رأيه فقط، ولكنه أقنعهم بعدم المعارضة، وشق عصا المسلمين مادام معاوية حيا؛ فلم يجدوا بدا الا الأخذ بنصيحة الحسين، ويعزو البعض هذا السلوك الى اعتقاد الشيعة بعصمة آل البيت فى الأقوال، والأفعال..

تنازل الحسن لمعاوية على شرط ولاية العهد بعده؛ فقبل معاوية، وبايعه الحسن، ودخل معه الكوفة فى عام الجماعة، ثم فرح معاوية بعد ذلك كثيرا بموت الحسن الذى قيل انه مات مسموما..

بعد موت معاوية تولى الخلافة ابنه يزيد، وكان عامله على المدينة حينها "الوليد بن عتبة بن أبى سفيان"، وعلى البصرة "عبيد الله بن زياد"؛ فكتب يزيد الى الوليد - والى المدينة - يأمره بدعوة الناس للمبايعة، على أن يبدأ بوجوه قريش، وأولهم "الحسين بن على"، وكذلك "ابن الزبير"، "وابن عمر"..

بعد أن كان المعارضون لبيعة يزيد بن معاوية خمسة من أبناء الصحابة، أصبح المعارضان الوحيدان بعد توليه هما "عبد الله بن الزبير"، و"الحسين"، لم يبايعاه، ورحلا الى مكة، ومنها خرج الحسين ميمما نحو العراق؛ فوصل الى كربلاء(٦١ هـ - ٦٨٠م) فسأل عن اسم المكان فقال؛ ذات كرب، وبلاء، وكان فى ثمانية عشر رجلا من أهل بيته، وستين رجلا من شيعته فقابلهم "عبيد الله بن زياد" أميرا على جيش قوامه ثلاثة آلاف رجل من قبل يزيد بن معاوية بدمشق، فغدوا عليه وجماعته عند شروق الشمس فسبوا حريمه، وقتلوا ذراريه، وأحاطوا برجاله من كل جانب؛ فأتوا عليهم جميعا، ثم تقدم "الشمر بن ذى الجوشن" فضرب الحسين على وجهه، وطعنه "سنان بن أنس النخعى" فألقاه عن فرسه، ونزل "خولى بن يزيد الأصبحى" ليحز رأسه فارتعدت يداه، فنزل أخوه "شبل" فاحتز رأسه، ودفعه الى أخيه، ثم ساروا الى دمشق، ودخلوا على يزيد، ومعهم رأس الحسين، فرمى به بين يدى يزيد..

عندما وصل خبر كربلاء الى عبد الله بن الزبير أعلن خلع يزيد، وأخذ لنفسه البيعة، وعاب عليه شرب الخمر، واللعب بالكلاب، والتهاون بالدين فبايعه

أهل تهامة، والحجاز، فلما بلغ ذلك يزيد ندب له "الحصين بن نمير السكونى"، و"روح بن زنباع الجذامى" كل منهما على رأس جيش من أهل الشام، وأمر عليهما "مسلم بن عقبة المرى"، ووصاه يزيد بقوله:

-"يامسلم لا تردن أهل الشام عن شىء يريدونه بعدوهم، واجعل طريقك على المدينة، فان حاربوك فحاربهم، فان ظفرت بهم فأبحها ثلاثا"..

سار مسلم حتى نزل "الحرة"، فخرج اليه أهل المدينة، وعلى رأسهم "عبد الله بن حنظلة الراهب" فقاتلهم مسلم، وهزمهم، وقتل أمير المدينة ابن حنظلة، وسبعمائة من المهاجرين، والأنصار، ودخل المدينة، وأباحها ثلاثة أيام(٦٣هـ - ٦٨٣م)، ثم سار بجيشه نحو مكة، وفى الطريق مرض، ومات، وتولى أمر الجيش بعده الحصين بن نمير، فواصل السير حتى بلغ مكة؛ فتحصن منه ابن الزبير فى المسجد الحرام هو ومن معه، فنصب الحصين المنجنيق فوق "جبل أبى قبيس" ورمى به الكعبة، وظل كذلك حتى جاءته الأخبار بموت يزيد؛ فأرسل الى ابن الزبير يسأله الموادعة فأجابه الى ذلك، وفتح الأبواب، واختلط أفراد المعسكرين يطوفان بالبيت..

تمكن عبد الله بن الزبير (٦٤-٧٣هـ) (٦٨٣-٦٩٢م) فبايعه أهل الحرمين، واليمن، والعراق؛ فأناب أخيه "مصعب بن الزبير" على العراق، وكانت الشام، وعاصمتها دمشق مع "عبد الملك بن مروان" من بنى أمية فتفرق المسلمون على خليفتين..

سار عبد الملك من دمشق الى العراق فبرز اليه مصعب بن الزبير والتحم الجيشان حتى قتل مصعب؛ فاستولى عبد الملك على العراق، وخراسان، وأناب عنه أخاه "بشر بن مروان" عليهما؛ ثم كر راجعا الى دمشق ليجهز "الحجاج بن يوسف الثقفى" فى جيش الى عبد الله ابن الزبير فى مكة فحاصره الحجاج، وضيق عليه، ونصب المنجنيق على جبل أبى قبيس نحو الكعبة حتى ظفر به الحجاج بعد أربعة أشهر عندما سقطت علي رأسه شرافة من شراريف المسجد فمات منها، وبادروا الى رأسه فاحتزوها، وصلبوا جسده، ثم أنزلوه بعد ذلك، ودفنوه فى مقابر اليهود، وبنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة بمدينة القدس

مدة استحواذ ابن الزبير (٦٤ - ٧٣هـ) (٦٨٣ - ٦٩٢م) على مكة، والحجاز (تسع سنوات) منع فيها عبد الملك الحج على أهل الشام خوفا من أن يأخذ منهم ابن الزبير البيعة له، فوقف الناس يوم عرفة بقبة الصخرة..

السياسة وابتلاء المسلمين بها:

يتحدث جارودى فى احدى محاضراته عن السياسة فيقول:

-"السياسة تحكمها علاقات اجتماعية داخلية، وخارجية، يسودها العنف المعبر عن صدام المصالح، والنزوع الى السيطرة بين الأفراد، والطبقات، والأمم"..

كان ابتلاء المسلمين بالسياسة، وحب السلطة هو سبب محنتهم؛ فأصبحت السياسة هى دينهم، ودينهم السياسة حتى هذه الأيام..

وعندما أخذتهم السياسة؛ أخذوا أسوأ مافيها وهى الدكتاتورية، والاستحواذ بالرأى، وهو مااقترن دائما بالجهل، والرشوة، والمحسوبية، وكل الرذائل الناشئة عن الرأى الواحد، والحزب الواحد، والحاكم الأوحد، وقد ساعد الفقهاء فى ذلك بأن سوغوا ذلك، وأقنعوا به الناس؛ حتى كفروا، أو فسقوا من خرج على ذلك من الأمة، وهم قد فعلوا ذلك بطريقتين:

- التغاضى عن أفعال الحكام ايثارا للسلامة، والتقيِّة، وتجنبا لاحتمال المكروه، حيث كان من الخلفاء، والأمراء من يستحل قتل المسلمين الذين يخالفونه الرأى، أو من يتجرأ بالخروج عليه..

- وثانيا بالفتاوى الضالة المضلة بأن كل مايفعله الحاكم هو حقا من حقوقه، ولامعقب لما يريد، تماما كالأحكام الالهية..

كما أفتى ابن حزم(وهو أحد الفقهاء) بجواز وجود أكثر من خليفة فى البلاد الاسلامية، بمعنى أنه أجاز تفرق المسلمين بين الحكام، وأن الأمر ليس بدين يتبع..

ان ماورد لنا عن أخبار بعض حكام الدولتين الأموية، والعباسية فى اقترافهم للتفرقة، والظلم بين المسلمين، وما تميزت به بعض تصرفاتهم من الدس، والحوط غير مستترين ليشى لنا بأنهم كانوا ساسة مخضرمين يجيدون فنون

التعامل مع الناس بصرف النظر عن الدين..

فأعتقد أنهم كانوا لايرون فى الدنيا الا الحكم، وسياسة الناس التى قد تأتى أحيانا كرد فعل لتصرفات المحكومين..

فظلموا عندما وضعهم الواضعون على محك الدين، وأحكامه التى لانجد فيها الا التغاضى عن الخصوم، ومكائدهم..

أما الدولة كدولة فشأن آخر، تقتضى التخلص من الخصوم نهائيا بالقتل، أو تحييدهم على الأقل بالسجن، أو تحديد الاقامة..

فالأخلاق من الدين، ولاأخلاق فى سياسة الدول..

العباسيون
(١٣٢ - ٦٥١هـ) (٧٤٩ - ١٢٥٨م)

خريطة (٤) أراضى الاسلام فى عصر العباسيين

م	الخليفة	سنة خلافته	سبب تركه للخلافة	الفرع
١	أبو العباس السفاح	١٣٢هـ - ٧٤٩م	الوفاة بالحمى، والجدرى	قوة الدولة
٢	أبو جعفر المنصور	١٣٦هـ - ٧٥٣م	الوفاة	"
٣	المهدى بن أبى جعفر	١٥٨هـ - ٧٧٤م	الوفاة أثناء الصيد، وقيل مسموما	"
٤	موسى الهادى	١٦٩هـ - ٧٨٥م	خلع أخيه هارون من ولاية العهد، وجعلها لابنه، ولما اعترضت أمه زجرها، فأمرت جواريها بقتله خنقا..	"
٥	هارون الرشيد	١٧٠هـ - ٧٨٦م	الوفاة	"
٦	محمد الأمين	١٩٣هـ - ٨٠٨م	قتل على يد طاهر بن الحسين قائد جيش أخيه المأمون بعد أن خلعه من ولاية العهد بتحريض من أمه زبيدة..	"
٧	عبد الله المأمون	١٩٨هـ - ٨١٣م	الوفاة	"
٨	المعتصم بالله ابراهيم	٢١٨هـ - ٨٣٣م	الوفاة بالحمى	"
٩	هارون الواثق	٢٢٧هـ - ٨٤١م	قتله ابنه المتوكل غيلة بمساعدة باغر التركى، وجماعته من الأتراك..	"
١٠	جعفر المتوكل	٢٣٢هـ - ٨٤٦م	قتله غلمان ابنه محمد بايعاز منه	"
١١	محمد المنتصر	٢٤٧هـ - ٨٦١م	الوفاة	الأتراك
١٢	أحمد المستعين	٢٤٨هـ - ٨٦٢م	خلعه المعتز بالله ثم أمر بقتله..	"
١٣	المعتز بن المتوكل	٢٥٢هـ - ٨٦٦م	خلع، وقتل..	"
١٤	المهتدى بن هارون	٢٥٥هـ - ٨٦٨م	أسر، وقتل..	"
١٥	المعتمد بن المتوكل	٢٥٦هـ - ٨٦٩م	ماتمغشيا عليه من الشراب، وقيل مسموما	"
١٦	المعتضد بن الموفق	٢٧٩هـ - ٨٩٢م	الوفاة	"
١٧	المكتفى بن المعتضد	٢٨٩هـ - ٩٠١م	الوفاة	"
١٨	جعفر المقتدر	٢٩٥هـ - ٩٠٧م	خلع مرتين، ثم قتل..	"
١٩	محمد القاهر	٣٢٠هـ - ٩٣٢م	خلع بعد سمل عينيه..	"
٢٠	الراضى بن المقتدر	٣٢٢هـ - ٩٣٣م	مات بعلة الاستسقاء..	"
٢١	ابراهيم المتقى	٣٢٩هـ - ٩٤٠م	خلع	"
٢٢	المستكفى بن المكتفى	٣٣٣هـ - ٩٤٤م	خلع بعد سمل عينيه..	"
٢٣	المطيع بن المقتدر	٣٣٤هـ - ٩٤٥م	خلع نفسه..	**البويهيون الشعة**
٢٤	عبد الكريم الطائع	٣٦٣هـ - ٩٧٣م	خلع نفسه، واعتقل حتى مات..	
٢٥	القادر بن اسحاق	٣٨١هـ - ٩٩١م	الوفاة	"

٢٦	القائم بن القادر	٤٢٢هـ – ١٠٣٠م	الوفاة	"
٢٧	المقتدى بن القائم	٤٦٧هـ – ١٠٧٤م	الوفاة، وقيل سمته جاريته..	السلاجقة
٢٨	المستظهر بن المقتدى	٤٨٧هـ – ١٠٩٤م	الوفاة معلولا..	"
٢٩	المسترشد بن المستظهر	٥١٢هـ – ١١١٨م	مقتولا	"
٣٠	جعفر الراشد	٥٢٩هـ – ١١٣٤م	خلع، وقتل..	"
٣١	محمد المقتفى	٥٣٠هـ – ١١٣٥م	الوفاة معلولا..	:
٣٢	المستنجد بن المقتفى	٥٥٥هـ – ١١٦٠م	الوفاة	
٣٣	المستضيء بن المستنجد	٥٦٦هـ – ١١٧٠م	الوفاة	
٣٤	أحمد الناصر	٥٧٥هـ – ١١٧٩م	الوفاة	
٣٥	الظاهر بن الناصر	٦٢٢هـ – ١٢٢٥م	الوفاة	
٣٦	المستنصر بن الظاهر	٦٢٣هـ – ١٢٢٦م	الوفاة	
٣٧	المستعصم بن المستنصر	(٦٤٠ – ٦٥٦هـ) (١٢٤٢– ١٢٥٨م)	خلعه هولاكو المغولى، وقتله..	

شكل(٥): التمثيل البيانى لمدد حكم الخلفاء العباسيين حتى الخليفة القاهر..

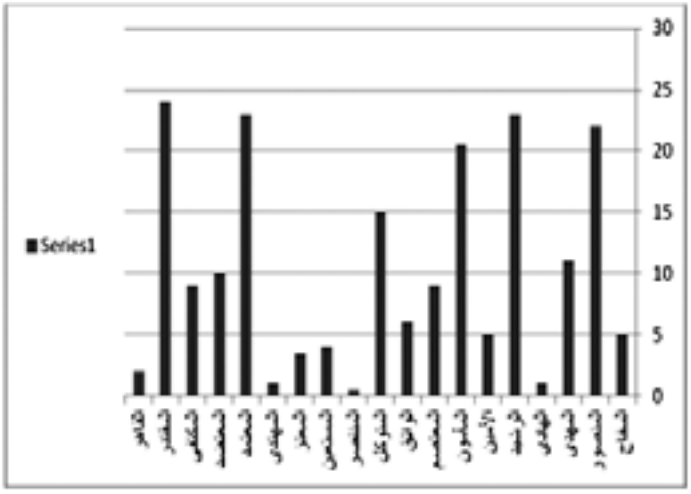

بلغ عدد الخلفاء الأمويين، والعباسيين الأوائل حوالى ٥١ خليفة خلع، وقتل أكثر من ٥٠٪ منهم، ولو كانوا خلفاء دينيون مااستحل مسلم دماءهم، أو خلعهم، ولكنها السياسة اللعينة، نكبة الاسلام، والمسلمين، واتباع سنن من كان قبلهم،

ورغم أن الغالبية العظمى منهم كانوا من الأقارب، والأبناء، والأخوة الا أنهم لم يراعوا فيهم حرمة القرابة، وصلة الدم، والرحم، وبراءة أحكام الدين الشريف من أفعالهم المشينة حتى قتلت الأم ابنها، وقاتل الأخ أخيه من أجل السلطة، والاستئثار بالحكم الذى فتنهم، وأغراهم حتى ضج أبو ذر الغفارى الصحابى الزاهد الفاهم، والذى عاصر أول فتنة المسلمين بالدنيا فقال:

شكل(٦): التمثيل البيانى لمدد حكم خلفاء العباسيين بداية من الخليفة الراضى حتى سقوط الدولة فى حكم المستعصم..

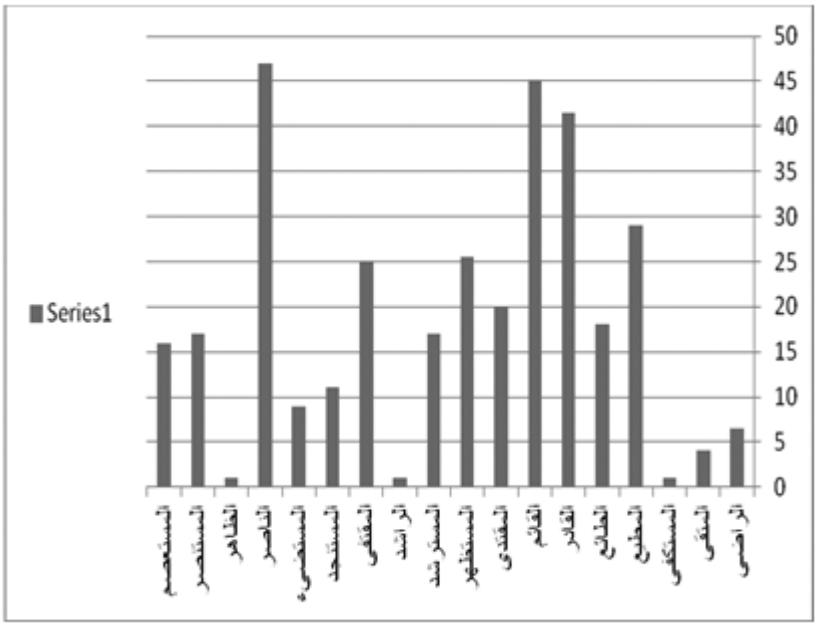

-"والله لقد حدث أعمال ماأعرفها، والله ماهى من كتاب الله، ولاسنة نبيه، والله انى لأرى حقا يطفأ، وباطلا يحيا، وصدقا مكذبا، وأثرة بغير تقى"..

وقوله صلى الله عليه وسلم من أحاديث البخارى:

-"والله مالفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عيلكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها؛ فتهلككم كما أهلكتهم"..

شكل(٧): متوسطات أعمار نسبة كبيرة من خلفاء العباسيين..

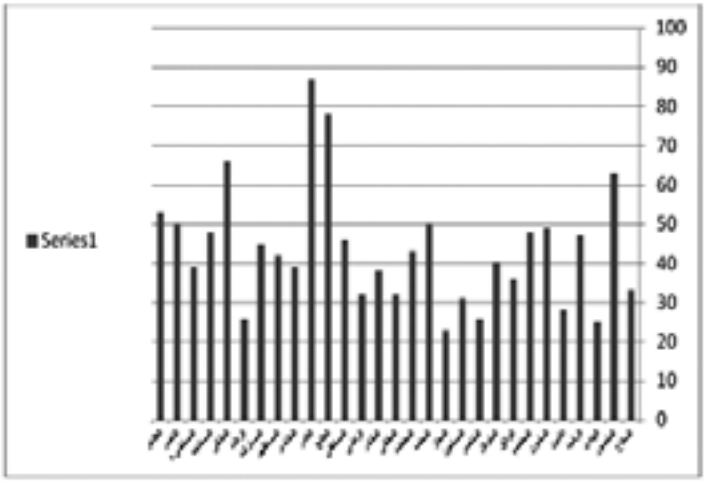

غلب العلم على الدولة العباسية، وكان أغلب العلماء من العجم الفرس، وقد سجل ابن خلدون هذه الملاحظة فى مقدمته:

-"حملة العلم فى الاسلام أكثرهم من العجم؛ حتى وان كان منهم العربى فى نسبته؛ فهو أعجمى فى لغته، ومرباه"..

- حتى النحو العربى علماؤه، ومنظروه "سيبويه"، و"الزجاج" الفاريسيين، وحملة الحديث، وعلماء أصول الفقه، وعلماء الكلام، و المفسرين، وقد أسلم الكثير على يد المعتزلة، ومنهم "أبو الهزيل العلاف" الذى أسلم على يده ٣ آلاف رجل..

- ظهرت الفرق المخالفة للاسلام فى العصر العباسى أيضا مثل "عبد الكريم بن أبى العوجاء" الذى وضع أربعة آلاف حديث مكذوب، و"حماد الراوية"، و"صالح بن عبد القدوس"، و"بشار بن برد"، وغيرهم..

قسم المؤرخون العصر العباسى الى:

- العصر الأول (الذهبى) ١٣٢ - ٢٣٢ هـ..
- العصر الثانى (التركى) ٢٣٢ - ٣٣٤ هـ..
- العصر الثالث (البويهى) ٣٣٤ -٤٤٧ هـ..
- العصر الرابع (السلجوقى) ٤٤٧ - ٦٥٦ هـ..

المنشقون والمستقلون عن العباسيين:

- الزيديون الشيعة (٢٥٠ - ٣٥٥هـ)..
- الصفاريون (٢٥٤ - ٢٩٨هـ) (٨٦٨ - ٩١٠م)..
- السامانيون فيما وراء النهر (٢٦١ - ٣٩٠هـ) (٨٧٤ - ١٠٠٠م)..
- الغزنويون فيما وراء النهر (٣٤٩ - ٥٧٩هـ) (٩٦٠ - ١١٨٣م):
- الطولونيون (مصر) ٢٢٤ - ٢٩٢ هـ..
- الاخشيديون (مصر) ٣٢٣ - ٣٣٤ هـ..
- الفاطميون (المغرب - مصر) ٢٩٩ - ٥٦٧ هـ، وغيرها..

واستقر عصر الدول فى العصر العباسى الثانى (التركى) على أربع دول رئيسية هى:

١-الفاطمية فى مصر، والشام، والمغرب ٢٩٧ - ٥٦٧هـ..

٢- البويهية فى فارس، والعراق (٣٣٤ - ٤٤٧هـ) (٩٤٥ - ١٠٥٥)..

٣- الغزنوية فى أفغانستان، والهند ٣٥١ - ٥٨٢هـ..

٤- السلجوقية (٤٤٧ - ٦٥٦هـ) (١٠٥٥ - ١٢٥٨م)..

رأى المستقلون عن الدولة العباسية أن الخلافة لاتلزمهم فى شىء من دينهم، فالمسألة سياسية بحتة، والخلفاء العباسيون يتنافسون السلطة بلا سند دينى، أو دليل من الكتاب، والسنة الصحيحة، فالأمر كله سياسة، ونزاع من أجل السلطة، فانشغل المسلمون بأنفسهم يحاربون بعضهم البعض، فتجور دولة على أخرى، ولا مرجع لهما الا القوة، والبطش بالمسلمين الذين هدهم الفقر، والجهل، والمرض بين حروب، وصراعات لاتنقطع، ومن هنا كان من السهل جدا سقوط العالم الاسلامى عند أطرافه المتهرأة فى براثن الاستعمار الغربى منذ ألف عام تقريبا(الغزو الصليبى)، ثم جاء المغول من الشرق ليجهزوا على القلب من العالم الاسلامى بسقوط الخلافة التى تخلت عن دورها التاريخى فى حماية الاسلام، والمسلمين، والحفاظ على الأرض المفتوحة بدماء الشهداء منذ القرن الثالث الهجرى، فلم يكن لدى الخلفاء العباسيين عموما احساسا بالأرض الاسلامية التى تسلموها من الأمويين بالقوة، والدعاية الدينية، فلم يحافظوا عليها، ولم

يحافظوا على المسلمين الذين سكنوا هذه الأرض، فضاع الاسلام، والمسلمون بفضل الخلفاء الذين تمسكوا بمتع الخلافة، وأبهة الملك الزائف، وشجعهم على ذلك جهلة الفقهاء، ومرتزقة الدين، وليذهب المسلمون، وأراضيهم، وأعراضهم، وممتلكاتهم الى الجحيم، ولتحيا الخلافة للمرتزقة، وعبيد كراسى الحكم..

وقد انشغل خلفاء العباسيين، وأبناؤهم، ووزراؤهم بالشهوات، والملذات لافتقادهم الاحساس بالمسئولية، فأهملوا شئون الدولة، والرعية، وكان البعض الآخر ضعيف الهمة، مترددا، سهل الانقياد، ومنهم من تميز بالطيش، والظلم، مع البله، والضعف..

سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين(٤٩٣هـ - ١٠٩٩م):

زاد حماس الغرب المسيحى لغزو العالم الاسلامى فى عقر داره بعد قيام السلاجقة الأتراك بانتزاع الشام، وفلسطين من أيدى الفاطميين، ثم استولوا على القدس سنة ٤٦٣هـ، وقتلوا الكثير من أهله، وساءت أحوال النصارى بمعاملة الحجاج القادمين من الغرب معاملة قاسية؛ دون روح التسامح التى كانوا يلاقونها فى حكم الدولة الفاطمية، حتى أنهم كانوا يأخذون القطع الذهبية للسماح لهم بدخول المدينة المقدسة للحج، خاصة بعد انتقال الحكم لأسرة "أرتق" التركمانية، كما لاحظ الزوار تشويه صور المسيح، وفقأ عيون الأيقونات التى كانت تملأ الكنائس..

خريطة(٥) المستعمرات الصليبية بين خلفاء المسلمين

تلقى السلاجقة الأتراك الحملة الصليبية الأولى بقيادة "بطرس الناسك" سنة ٤٨٩هـ بعد عبورهم البسفور فحصدوهم حصدا، وأبادوهم جميعا، فى الوقت الذى كانوا يعدون فيه الحملة الثانية بجيوش نظامية يقودها الأمراء، والأشراف، ومدعومة من النورمانديين، والتجار الذين يسيطرون على موانىء ايطاليا..

سارت الحملة، واجتاحت آسيا الصغرى سنة ٤٩٠هـ فالتقوا بجيش "قلج أرسلان" التركى السلجوقى فى معركة "دورباليوم" فانهزم فيها شر هزيمة، فاعتبر المؤرخون أن هذه الموقعة كانت مجاز الصليبيين الى بيت المقدس، وبلاد الشام، وبعد استيلاء الحملة على عدة مدن دب الخلاف بين اثنين من قادة الجيوش "بلدوين" البولونى، و"تنكرين" النورماندى على ملكية طرسوس، فانفصل بلدوين بجيشه، واتجه شرقا نحو مدينة "الرها" فاحتلها، وأسس بها أول امارة صليبية سنة ٤٩١هـ، ثم تقدمت باقى الجيوش الصليبية نحو أنطاكية مروعين السكان المسلمين فى طريقهم، وقد أضير الناس من هذا الغزو بينما الخلفاء العباسيون فى بغداد يتنافسون كرسى الخلافة الزائف على نغمات الغناء، ورقص الجوارى، واحتساء الخمر، ومعاشرة الغلمان الملاح، وفى ظهورهم فقهاء السلطان يشجعونهم، ويخرجون لهم الفتاوى التى تبرر مايفعلون..

حاصر الصليبيون أنطاكية المنيعة تسعة أشهر قاسوا خلالها الجوع، والمرض، واليأس حتى اقتحموها عنوة فمثلوا بأهلها أبشع تمثيل بعد أن قتلوا منهم عشرة آلاف، ثم كونوا الامارة الصليبية الثانية، والخلفاء فى بغداد لايهتزون الا لايقاعات الراقصات، وعندما ينتهى الليل الطويل يخمدون شهواتهم المتأججة فى أدبار الغلمان، والمسلمون يعانون الضياع باسم الخلافة التى تركتهم يلاقون مصيرهم المشئوم، ولم يبق الا بيت المقدس الذى ضربوا عليه حصارا أربعين يوما استبسل خلاله أهله فى الدفاع، ولكن حاميته الضعيفة استسلمت فاجتاح الصليبيون المدينة يدمرون، ويخربون، وانتشر القتل فى الجميع دون تمييز فكانت مذبحة رهيبة راح ضحيتها سبعون ألفا من المسلمين العزل؛ حتى المسجد الأقصى لم يسلم من احتمى فيه من ذبح الشياه بعد أن اقتحموه فتناثرت الجثث، وتبعثرت الرؤوس، والأيدى، والأرجل فى كل مكان، وجرت دماء المسلمين أنهارا،

والخلفاء فى بغداد لايحركون ساكنا الا مع الرقص، والتمايل مع نغمات غناء الجوارى، والغلمان الملاح..

أما المسجد العتيق(الأقصى) فخربوا أثاثه، ونهبوا قناديله الذهبية، والفضية، ثم حول الصليبيون قبة الصخرة الى كنيسة سموها "معبد السيد"، واستخدموا المسجد لصالحهم وأطلقوا عليه "معبد سليمان" بعد أن قسموه ثلاثا؛ كنيسة، ومسكن لفرسان الهيكل، ومستودع للسلاح، كما استخدموا سراديب المسجد اسطبلا لخيولهم، وبسقوط بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ تأسست الامارة الصليبية الثالثة..

كانت القوى الاسلامية الثلاث عباسية، وفاطمية، وسلجوقية التى وجدت على الساحة الاسلامية ذلك الوقت، والتى كانت متاخمة لهذه الأحداث، وتتابعها ساعة بساعة تستطيع مجتمعة صد هذا الهجوم الكاسح بكل بساطة بما لديها من جيوش نظامية مجهزة بالعدة، والعتاد، والمهارة القتالية العالية ضد هذه الجموع المحشودة حماسيا، ولادراية لها بالقتال، وحمل السلاح، والمناورات الهجومية، ولكنها الخلافات السياسية، والمذهبية، والشخصية هى التى حققت أمل الصليبيين البعيد جدا بعد أن حذوا حذو اليهود فى تفرق قلوبهم؛ فصدق فيهم ماحذرهم منه الرسول الكريم..

أما من سلم من أهل المدينة من القتل فاستخدموه فى تنظيف المدينة من جثث القتلى، وأعضائهم المتناثرة، ودفنهم خارج المدينة، وماكانت هذه الجثث، والأعضاء الا لذويهم، أو أقاربهم، أو أصدقائهم، أو جيرانهم، فاحتملوا العنت، والجهد فى هذه السخرة الجسدية، والنفسية ماأحسوا فيه أن موتهم كان أفضل كثيرا مماهم فيه..

وقد كانت هذه التداعيات من آثار سقوط الممالك الاسلامية الاستراتيجية فى براثن الجحافل الصليبية:

١- تكوين ٤ امارات صليبية..

٢- انطلقوا منها بغارات متكررة على المسلمين بالشام، أذاقوا المسلمين فيها مرارة العيش، وقسوة الحياة..

٣- خطف الأولاد، وقتل الرجال، وسبى النساء..

٤- التسلط الصليبى الدينى، والعقائدى..

وبظهور نور الدين زنكى توحدت مصر، والشام، ثم جاء صلاح الدين الأيوبى ليقود المسلمين فى موقعة حطين، وينتصر فيها على الجموع الغفيرة من الصليبيين، واسترداد بيت المقدس، وبموته عاد المسلمون الى تقديم التنازلات الى الصليبيين مرة أخرى..

المغول:

قبائل من البدو عملوا بالرعى، والصيد بصحراء اقليم منغوليا فى الشمال من الأراضى الصينية، وهى ذات نسب واحد، ولغة واحدة، كما اتحدت لهجاتهم أيضا، وقد حمل رؤوساء القبائل لقب "خان"، أو "خاقان"، وهى الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، وكان "التتر" قبيلة منهم تمتعت بينهم بالمركز القيادى ابان القرن السادس الهجرى، وقد ظهر بينهم آنذاك زعيمهم المعروف تاريخيا باسم "جنكيز خان"(٦٠٣ - ٦٢٤هـ) (١٢٠٦ - ١٢٢٦م) الذى وحدهم، واتخذ "قره قورم" عاصمة لهم ، الا أن المغول تغلبوا عليهم بقيادة هذا الزعيم، وهزموهم فتلاشى التتر، وعرفت الامبراطوية عموما باسم المغول..

وهم قبائل معروفة بالشر، والغدر، يمتهنون السلب، وسفك الدماء، ويثيرون الحروب، يعبدون الأوثان، والشمس، والكواكب، يأكلون كل شىء حتى الكلاب، ويؤمنون بالاباحية، عمل جنكيز خان على ترتيب أحوال بلاده، وترقية شعبه؛ فوضع لهم كتابا دينيا يحدد لهم المعاملات، والأحكام سماه "اليساق" بمعنى "السياسة"، وهى كلمة مغولية أصلها تركى وتعنى "القانون الاجتماعى" أصلها "ياسة"، حرفها المصريون بزيادة حرف السين بعد اضافة الألف واللام العربية..

ضم المغول أقاليم الصين الشمالية حتى استولوا على العاصمة بكين، ثم اصطدموا بالدولة الخوارزمية التى جاورت مملكتهم، وكان حاكمها "محمد خوازرم شاه" فسقطت الدولة(٦٢٨هـ - ١٢٣٠م)، وحواضرها بخارى، وسمرقند، ونيسابور بعد أن قتلوا أغلب من فيها الأحياء، وأزالوا منها معالم الحضارة؛ بل

أزالوا الدولة نهائيا سنة ٦٢٩هـ..

وتنسب الدولة الخوارزمية فى "خوارزم"(٤٧٠ - ٦٢٨هـ)(١٠٧٧ - ١٢٣٠م) الى "أنوشتكين" الذى كان مملوكا تركيا لأمير من سلاجقة خراسان قاد عدة معارك ناجحة فقربه الأمير حتى ولاه على خوارزم، ولقبه "خوارزم شاه" فحكمها هو، وذريته من بعده، واستقلوا بها، وتوسعوا فاستولوا على دولة السلاجقة بخراسان، والرى، وفارس، وبلاد ماوراء النهر، وكرمان، والسند، وغزنة حتى قضى عليهم المغول..

انتهى تجار من رعية جنكيز خان الى الدولة الخوارزمية(ايران الآن)، وعليها الأمير خوارزم شاه، وكان معهم الكثير من البضائع فقتلوا، وسلب مامعهم، فلما بلغ جنكيز خان أرسل الى خوارزم شاه يستعلمه هل وقع هذا الأمر عن رضا منه؟.. أو أنه لايعلم به فأنكره.. وقال:

-"من المعهود لدى الملوك أن التجار لايُقتلون لأنهم عمارة الأقاليم، وهم الذين يحملون التحف، والقماش ثم أن هؤلاء التجار الذين أصيبوا كانوا على دينك فقتلهم نائبك، فان كان أمرا أمرت به طالبنا بدمائهم، والا فاستنكره واقتص من نائبك"..

فلما سمع خوارزم شاه من رسول جنكيز خان أمر بضرب عنقه، وعندما علم جنكيز خان تجهز لقتاله، واحتلال بلاده..

كانت الدولة الخورازمية أول سقوط للمسلمين المتاخمين لحدود المغول، وكانت "كرمان" تتبع الدولة الخوارزمية، وأميرها خوارزم شاه بعد موت أبيه، وقد أناب الأمير "براق حاجب" عنه فى حكم كرمان، وعندما دب الخلاف بين الأخوين "غياث الدين"، و"جلال الدين" من أمراء الدولة الخورازمية هرب غياث الدين الى كرمان فاستغل براق الفرصة واغتال غياث الدين، وقطع رأسه، وأرسله الى القائد المغولى "أكتاى" فى قره قورم معلنا دخوله تحت طاعة المغول، كما جعل من نفسه جاسوسا يمد المغول بأخبار البلاد الاسلامية، ومنها أخبار جلال الدين محمد بن خوارزم شاه بعد أن خرجت كرمان من دولته الى دولة المغول..

توفى جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ بعد أن سيطرت دولته على العالم الاسلامى،

وأنزلت الرعب فى قلوب المسلمين؛ فتولى بعده "منكوما آن" ابن تولوى، ابن جنكيز خان سنة ٦٤٥هـ بعد صراعات بين أمراء البيت الحاكم، وبعد أن نجح فى اقرار الأمن فى بلاده اتجه الى غزو البلاد التى لم يفتحها جده جنكيز خان، فأرسل أخاه الأوسط "قوبيلاى" للسيطرة على جنوب الصين، وجنوب شرق آسيا، وارسل آخاه الأصغر "هولاكو" لغزو ايران، وبقية بلاد العالم الاسلامى، وأوصاه بالقضاء على طائفة الاسماعيلية، واخضاع الخلافة العباسية..

سئم المسلمون الخلفاء فى بغداد، ومباذلهم، ولهوهم، وضعفهم، واستغلالهم للناس باسم الدين فلم يتحمسوا كثيرا لصد الغارات الصليبية، والمغولية التى لاناقة لهم فيها، ولاجمل خاصة وقد مارس المغول -وهم أول من فعلوا ذلك- الحرب النفسية، والدعاية لجيوشهم المدمرة مثل الزلازل، والبراكين، والفيضانات المهلكة، ولم يجدوا من الدولة، والخلفاء ماستعدوا به لذلك، فما بالهم وهم الناس العاديين، ثم أن الخلفاء قد ذهبوا بأموال المسلمين، ودمائهم، ومن هذا لانرى عجبا فى انضمام المسلمين جماعات لصفوف جيوش التتار ليحاربوا اخوانهم المسلمين، كما قاموا بخدمة هذه الجيوش فى أعمال حفر الخنادق، وردم الأنفاق، وجلب الحجارة، وجذوع النخل، وسحب المنجنيقات، وجلب الماء، والعلف لدوابهم، وخيولهم، وغيرها من أعمال السخرة التى ربما كانوا يجدون له مقابلا ماديا كانوا لايجدونه من اخوانهم المسلمين فى دولة خلفاء، وفقهاء المتعة، والأبهة..

تداعيات سقوط بغداد:

- أتت على الأخضر، واليابس..
- ذبح المسلمين كالشياه بما يقرب من المليونين منهم..
- ذبح الخليفة، وأولاده، وقواده، وعلماء المسلمين جميعا..
- استباحوا بغداد المدينة المسلمة أربعين يوما؛ فكانت أكبر استباحة للأعراض فى التاريخ..
- سلبت الأموال، والذهب ، والحلى، وثروات المسلمين..
- اتلاف تراث المسلمين من الكتب، والمساجد، والمدارس بالحرق، والهدم، والقاء

الباقى فى نهرى دجلة، والفرات لاستخدامه كمعابر للجيوش عبر النهرين..

- ازالة الخلافة نهائيا الا من تواجد صورى بالقاهرة..

- أزيلت الغمة على يد سيف الدين قطز؛ وقد انطلق اليهم من مصر، بعد أن عاش لانجاز هذه المعركة فقط فى عين جالوت بعد انسحاب قائد المغول من المعركة، ثم هزيمة المغول بعد ذلك..

ويورد المؤرخون حوارا دار بين هولاكو، والخليفة المستعصم بعد أن قبض عليه - كأحد الحيوانات الداجنة - بعد غزو بلاده، وخلافته، فنتلمس فى الحوار حكمة هذا القائد، والمامه بحقيقة العقيدة الاسلامية، وسخريته اللاذعة من زعيم المسلمين الأول الذى يتشدق بما حفظه من مستشاريه فقهاء السلطان، ولايدرى معناه عندما أحس بالجوع فطلب طعاما، قدم له هولاكو طبقا مملوءا بالذهب، وأمره بالأكل؛ فرد الخليفة المستسلم متعجبا:

-"كيف يمكننى أن آكل الذهب؟".. فرد هولاكو:

-"اذا كنت تعلم أن الذهب لايؤكل فلم احتفظت به ولم توزعه على جنودك حتى يصونوا لك ملكك الموروث من هجماتنا؟.. ولم لم تحول تلك الأبواب الحديدية الى سهام، وتسرع الى شاطىء جيحون لتحول دون عبورنا؟".فقال الخليفة المهزوم:

-"هكذا كان تقدير الله".. فرد عليه هولاكو ردا منطقيا:

-"وماسوف يجرى عليك انما هو كذلك تقدير الله"..

تولى الخلافة بعد سقوط الدولة العباسية (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) "المستنصر بالله أحمد" الذى كان مسجونا قبل الغزو المغولى لبغداد، وأفرج عنه بعدها، فوفد على مصر عندما كان "الظاهر بيبرس" سلطانا عليها فاستقبله، وأكرمه، ثم بايعه هو وقاضى القضاة، والشيخ "العز بن عبد السلام"، ونقشوا اسمه على العملة، وخُطب له فى المساجد، وصلى بالناس، وألبس السلطان بيبرس الخلعة بيده، وكتب له أمرا بمنحه تقلد الحكم فى حضور القضاة، وكبار القادة، والعلماء..

وربما وجد المماليك ضآلتهم فى هذا الخليفة الهائم على وجهه بلا خلافة؛

حيث كان المماليك عبيدا يُجلبون بالمال، ووجود هذا الخليفة فرصة ليمنحهم شرعية حكم المسلمين، وينقض فتوى العز بن عبد السلام التى أصدرها من قبل عن كون المماليك مطعون فى ولايتهم، وحكمهم للمسلمين لأنهم عبيد، ولايصح لعبد أن تكون له ولاية على سيد، وفى ذات الوقت فان المملوك قد انتزع الحكم بالقوة، وانتهى الأمر، ولم يعترض عليه أحد من المسلمين الا مملوك مثله، فسعيهم للحصول على شرعية لحكم المسلمين لامعنى له، الا اذا كانت الخلافة لامعنى لها لعامة المسلمين قديما، وحديثا، وللمماليك أيضا بدليل أن الخليفة الهائم على وجهه الذى نصبه السلطان المملوك أصبح طوع بنانه، وبيده عزله وقتما شاء، فالخليفة من رعاة السلطان المملوك أصلا، الأمر الذى أرغم أنف الخلفاء فى التراب، فلو كانت دينا، وشريعة لاحترمها الجميع..

وكذلك فعل "شمس الدين آقوش" أمير حلب عندما أقام خليفة آخر من البيت العباسى لقبه الحاكم بأمر الله كما تذكر الرواية، وتعدد لنا الروايات التاريخية ١٥ خليفة من هؤلاء التعساء الذين بلى بهم الاسلام، هاموا على وجوههم فى الأرض الواسعة بلا خلافة(فائض خلفاء) طيلة قرنين ونصف القرن من الزمان..

خلفاء العباسيين فى القاهرة

م	الخليفة	سنة خلافته
١	المستنصر	٦٥٩هـ - ١٢٦٠م
٢	الحاكم بأمر الله(الأول)	٦٦١هـ - ١٢٦٢م
٣	المستكفى بالله(الأول)	٧٠١هـ - ١٣٠١م
٤	الواثق بالله(الأول)	٧٣٦هـ - ١٣٣٥م
٥	الحاكم بأمر الله(الثانى)	٧٤٢هـ - ١٣٤١م
٦	المعتضد بالله(الأول)	٧٥٣هـ - ١٣٥٢م
٧	المتوكل على الله(الأول)	٧٦٣هـ - ١٣٦١م(خلع)
٨	الواثق بالله(الثانى)	٧٨٥هـ - ١٣٨٣م
٩	المستعصم	٧٨٨هـ - ١٣٨٦م
١٠	المتوكل على الله(الأول)	٧٩١هـ - ١٣٨٨م

١١	المستعين بالله	٨٠٨هـ - ١٤٠٥م(خلع)
١٢	المعتضد بالله(الثانى)	٨١٥هـ - ١٤١٢م
١٣	المستكفى بالله(الثانى)	٨٤٥هـ - ١٤٤١م
١٤	القائم بأمر الله	٨٥٤هـ - ١٤٥٠م
١٥	المستنجد بالله	٨٥٩هـ - ١٤٥٤م
١٦	المتوكل على الله(الثانى)	٨٨٤هـ - ١٤٧٩م
١٧	المتمسك بالله	٨٩٣هـ - ١٤٨٧م
١٨	المتوكل على الله(الثالث)	٩١٤هـ - ١٥٠٨م (تنازل للسلطان العثمانى سليم الأول سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م)..

الدولة الايلخانية فى العراق(٦٥٦ - ٧٣٦هـ) (١٢٥٨ - ١٣٣٥م):

"ايلخان" تعنى "الخان الكبير"، وهو لقب هولاكو بعد انتصاراته المتوالية فصار ورائيا فى نسله، وهو مؤسس هذه الدولة بعد سقوط بغداد، وكانت "أذربيجان" عاصمتها، تميزت الدولة بالفساد، والاهمال، وعدم الاستقرار، وكان أبرز سلاطينها "محمود غازان"(٦٩٥ - ٧٠٤هـ)(١٢٩٥ - ١٣٠٤م) بعد اسلامه، واسلام أسرته، وأصبحت الدولة مسلمة فقام باصلاحات فى بغداد التى دمرها المغول تماما..

ثم قام تيمورلنك (٧٧١ -٨٠٧هـ) (١٣٦٩-١٤٠٤م) بالاجتياح الثانى لبغداد، وكان مسلما شيعيا هذه المرة؛ ولكنه طاغية متعصب، عرف بعشقه لسفك الدماء، وحبه للتدمير، وابادة الجيوش المهزومة بأكملها، وغرامه بتكوين جبالا من رؤوس المهزومين..

ثم تبع ذلك سقوط الأندلس فى ٨٩٧هـ، ثم سقوط الخلافة العثمانية فى ١٣٤٢هـ، فاقترن سقوط الأندلس بظهور القوة العسكرية الاسبانية بعد الوحدة بين مملكتى قشتالة، وأركون(الملك فرديناند، وايزابيلا) وندرة، أو تلاشى النزاعات الداخلية التى استفاد منها المسلمون سلفا فترة مكوثهم فى الأندلس،

فوضع "كريستوف كولمبس" مشروعا للقيام برحلة عبر المحيط الأطلسى للوصول الى الهند، وانطلقت الرحلة سنة ١٤٩٢م بأمر من الملك، وبدعم مالى من التجار الأسبان، والايطاليين فى أشبيليا وهى الرحلة التى مهدت لاكتشاف أمريكا(العالم الجديد)..

أسهمت العوامل الاقتصادية فى دفع أوروبا الى الاهتمام بالكشوف الجغرافية للبحث عن التوابل، وتخطى الوساطة التجارية فى البلاد الاسلامية بالوصول الى منابع التجارة مباشرة فى أسيا، وافريقيا، وكذلك حافز الحصول على الذهب، والفضة، ثم تطويق العالم الاسلامى(بعد احتلال أجزاء منه بالحروب الصليبية لاضعافه)، وتقوية الممالك المسيحية بأفريقيا(الحبشة) بعد مرحلة توحيد أسبانيا، وطرد المسلمين منها(حروب الاسترداد)..

وبينما كانت الدول الاسلامية المتناحرة تتساقط تحت ضربات السيوف من المسلمين، وأعداء المسلمين على السواء بعد توقف الفتوحات منذ زمن بعيد كان الاسلام المتغلل فى قلوب أصحاب الصفاء الروحى يتسلل رويدا رويدا فى مناطق لم تطأها أقدام الفاتحين، ولا تخيلوا بلوغها بسيوفهم فى جنوب شرق آسيا(٦٥٦هـ - ٩٢٣هـ) فتمكن الاسلام بروحه الطاهرة منتشرا مزدهرا داخلا فى الأعماق بلا دولة، ولاخلافة تذكر له آن ذاك فى هذه البلاد؛ حمله الى هذه المناطق التجار المسلمون مع بضائعهم، ومن تبعهم من الدعاة، والمتصوفة الذين لايحملون من حطام الدنيا أدنى شىء، ولكنهم كانوا قرآنا يمشى على الأرض بالأخلاق الراقية، والمعاملة الحسنة، فتبعهم الناس بنفعهم للناس، وقدوتهم الصادقة فيهم، واسلامهم العملى - لاالمظهرى - ولم يرهقوهم أبدا بالجزية، فانتشر الاسلام فى الفلبين، وماليزيا، وسنغافورة، وأندونيسيا، وبروناى بأعداد تفوق كثيرا من أسلموا بالفتوحات، وهم يشكلون الغالبية العظمى من المسلمين الآن..

الفاطميون فى المغرب ومصر

(٢٩٧ - ٥٦٧هـ) (٩٠٩ - ١١٧١م)

شكل (٦)

مهما أنكرها أصحاب خلط الهوس الدينى بالسياسة، أو أصحاب خلط الهوس السياسى بالدين ممن توارثوا الغباء، ومانقله الخلف عن السلف معتقدين أن هذا علما لدنيا، وهو لايعدوا أن يكون نقل الجهل من جاهل الى أجهل منه، ممن اختلط الدين فى أذهانهم بمصالحهم المالية، والسياسية التى لم يكونوا

ليستطيعوا أن يعلنوها على الناس بدون الدين فيقتلهم الناس، أو يتجاهلونهم فدخلوا على الناس بأطماعهم، وأمراضهم الاستعلائية، والاستغلالية، ونهمهم المفرط للمال، والسيطرة وهم يرتدون عمامة الدين، حتى اذا تمكنوا من رؤوس الناس، وامتطاء ظهورهم نحوا الدين جانبا، وجاءوا بالمرتزقة من أنصاف الفقهاء، وحثالة الدارسين، أو جاءوا هم اليهم طواعية ليبرروا للناس الظلم، والجبروت، وأكل السحت باسم الدين؛ بل زين هؤلاء الأنصاف، والجهلة للعامة المطحونة بلقمة العيش أن الدين هو الوالى، والوالى هو الدين؛ أليس ظل الله فى الأرض؟.. أليس خليفة رسول الله؟.. ولم يسأل أحد من أين جاءوا أصلا بكلمة خليفة، ومن أين دسوا هذا المصطلح الغريب على الأمة، ولم ينطق به الرسول لأن القرآن لم ينطق به، ولاينبغى له..

اعتمدت دعوة الفاطميين على مبدأ الامامة، وولاية الأئمة، وهى ترجع الى على بن أبى طالب، وأبنائه من آل البيت، وعندهم أن الامامة هى خلف النبوة فى ذرية النبى صلى الله عليه وسلم من ولد الحسين بن على، وهى جارية منهم الى يوم القيامة؛ فالامامة هى الدعوة الشيعية كلها على اختلاف فرقها، ودعامة دعاويهم فى الرياسة الدينية، والزمنية، وكان خلفاء الفاطميين يحرص الواحد منهم على أن يكون اماما دينيا أكثر منه ملكا سياسيا؛ فيؤم الناس فى الصلاة، ويعظهم خاشعا وهو يبكى، وكانت دعوتهم على المنابر:

-"اللهم صلى على عبدك ووليك فلان"..

وهم لايرون عموما أن تراث النبى هو تراث أمة هداها الله للاسلام، أو تراث رياسة معنوية جاءت ثمرة الرسالة النبوية؛ بل يعتبرونها تراثا شخصيا، وميراثا خالصا لأسرة النبى صاحب الرسالة، وأن النبى أوصى بهذا التراث لابن عمه على بن أبى طالب من بعده..

وتشبه نظرية الامامة الشيعية إلى حد كبير نظرية "حق الملوك الإلهى" فى أوروبا العصور الوسطى، فالملوك هم "نواب الله على الأرض"، ولهم على الناس حق الطاعة العمياء، رغباتهم لاترد، ولايسألون إلا أمام الله، وهو ماأدى الى قيام الثورات العنيفة بأوروبا لاسيما فى انجلترا، وفرنسا..

ويورد لنا أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه "مقاتل الطالبيين" مصرع العشرات، بل، والمئات من أبناء على بن أبى طالب خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة فى مختلف أنحاء الجزيرة العربية، والعراق، وفارس، وخراسان فى عهد الأمويين، والعباسيين، وسقوطهم فوجاً بعد آخر بالخنجر، أو السم، أو فى غياهب السجون، وما فرض عليهم من صنوف الاضطهاد، والرقابة، والتتبع المستمر على الرغم من أن أبا الفرج كان أموى النزعة، ولكنه كان من المؤيدين لآل البيت، وقضيتهم..

وقد أخطأ "الشيعة" حين اعتبروا أن الرسالة المحمدية يجب أن تكون بعد وفاته ضيعة خاصة يرأسها، ويرعاها "آل البيت" من "أبناء على" دون سواهم، والى الأبد، وأخطأ "السنة" حين اعتبروا أن النبوة الخاتمة لابد لها من "خليفة" تسير على "منهاج النبوة"، وهم بذلك لايختلفون كثيرا عن هؤلاء الذين "ادعوا النبوة" زمن النبى صلى الله عليه وسلم، وبعد وفاته مثل "مسيلمة الكذاب" وغيره، وكأنهم – هؤلاء وأولئك– قد كلفوا أنفسهم ما لاطاقة لهم به بادعائهم حفظ دين الله الذى تكفل تعالى وحده بحفظه دون غيره؛ بعد أن اندثر هذا الدين مرارا، وتكرارا طوال حياة الانسان على الأرض، ولم يكن هناك من يبعثه من جديد الا الله تعالى فقط:

-**"انا نحن نزلنا الذكر وان له لحافظون"** الحجر ٩..

وهو عهد قطعه الله على نفسه، ومن غيره تعالى يفى بوعده، وله القدرة على الوفاء به:

-**"والله غالب على أمره"** يوسف ٢١.. فلم يكله الى البشر هذه المرة كما أوكله من قبل، ولم يحفظوه..

قامت فى مصر دولا مستقلة استقلالا تاما عن الخلافة العباسية التى ضربها البلى فى بغداد مع الأخذ برباط الخلافة الدينية، وذلك زمن الدولة "الطولونية"، و"الاخشيدية"، وقد شجع على ذلك موقعها الجغرافى، وبعدها عن مركز الخلافة العاجزة عن حماية نفسها، ومواردها، وغنى مصر بسكانها، وأرباب الصنائع فيها، وتنوع مواردها، والولاة ذوى الطموح؛ فاستطاعت منافسة

السلطة المركزية فى بغداد، ثم ناجزت الدولة الفاطمية الدولة العباسية خصيمتها السياسية، والمذهبية، وانتزعت منها زعامة العالم الاسلامى ردحا من الزمن..

راقب الفاطميون من المغرب - مركز خلافتهم - سير الحوادث المصرية عن طريق الزعماء الناقمين على حكم الاخشيد، وتمرد الجند لنقص رواتبهم، فدعا فريق منهم الفاطميين الى غزو مصر، وعلى رأسهم "يعقوب بن كلس" الذى قبض عليه الوزير القوى فى مصر "جعفر بن الفرات" وصادر أمواله، وأودعه السجن، فسعى يعقوب الى الافراج عنه، وفر هاربا الى المغرب حيث "المعتز لدين الله الفاطمى" الذى كان متربصا لغزو مصر، فأطلعه على أحوالها، ومدى ضعفها؛ ولما عاد الى مصر مع المعز كان له شأن فى عهده، وعهد ابنه العزيز..

أنفق الفاطميون على الحملة على مصر مايقرب من ٢٤ مليون(ألف ألف) دينار، ونيفا، ومائة ألف فارس، عدا الجند المشاة، وكان بمصر للدولة الفاطمية عيونا، وطلائع يدعون للفاطميين، ويبشرون بالفتح، ولم يخش الشعب المصرى هذا الفتح بل لعله كان ينتظره لشد مارأى من عسف الجند العباسى، وطغاة ولاته المستعمرين، ناهيك عن الفوضى، والاضطراب، ومحن الغلاء، والوباء الذى أودى بحياة ستين ألفا من أبناء المصريين فى ذلك الوقت، فهل سيأتى الفتح بأبشع من ذلك؟!.. فضلا عن فتوة الدولة الفاطمية الصاعدة؛ مقارنة بالدولة العباسية المحتضرة التى ضربها الفساد، والترهل..

وكان من دواعى دخول الفاطميين الى مصر خطر القرامطة الداهم بعد اجتياحهم للشام، ومافعلوه بالحجاز من نهب، ومجازر، وتهديدهم بعد ذلك لمصر بالاستيلاء عليها، وهو ماقام به الفاطميون بعد دخولهم مصر بعامين - اضطرارا - بلقاء القرامطة على أرض مصر نفسها فلم يستطيعوا ردهم الا بعد جهد، وحيلة..

ولما استقر القائد الفاتح جوهر الصقلى فى مصر اختط مدينة "القاهرة" لتكون عاصمة الدولة الجديدة، وبنى بها "قصر" الحاكم، و"الجامع الأزهر" نسبة الى "فاطمة الزهراء" بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بالاضافة الى عدة

منشآت ادارية تخص الدولة الجديدة من دوواين وخلافه، وسماها القاهرة المعزية التى أصبحت فيما بعد عاصمة الخلافة الفاطمية بعد أن دخلها المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين جالبا معه أهله، وبيت ماله، ورجال دولته؛ حتى رفاة أجداده، وقد ظلت القاهرة عاصمتهم حتى انتهاء دولتهم..

وبالاستقرار فى القاهرة ظهر "الفاطميون" على "العباسيين" فى "بغداد"، وارتفع شأنهم، وامتد نطاق حكمهم من البحر الأحمر الى المحيط الأطلسى ليشمل - فضلا عن الشمال الأفريقى - "سوريا"، و"فلسطين"، و"اليمن"، و"مكة"، و"النوبة"؛ بل وصلوا الى "الموصل"، وكادوا يقتحمون "بغداد" على الخلافة العباسية، وفرض الاسطول الفاطمى سلطانه على البحر الأحمر، بل وهدد الشواطىء الجنوبية لأوروبا..

سقوط العرب المسلمين فى الأندلس

٨٩٧هـ - ١٤٩٢م

خريطة(٧) أهم أقاليم الأندلس

سلم الملك عبد الله الأحمر مفاتيح قصر الحمراء بمدينة "غرناطة"(آخر المدن الاسلامية) الى ملك قشتالة المنتصر على احدى التلال المطلة على المدينة سنة ١٤٩٢م فلم يبق من الأندلس الا غرناطة بعد أن انتصر محمد بن الأحمر انتصارا عظيما على فرديناند الثالث ملك قشتالة، فاستمرت ذريته تحكم غرناطة بعدها أكثر من ٢٥٠ سنة(٦٣٥ - ٨٩٧هـ)(١٢٣٧ - ١٤٩٢م)..

أطلق الاسبان على هذا المكان "زفرة العربى الأخيرة"، ولم تكن الأخيرة، كما نلاحظ كلمة "العربى"، وليس "الاسلامى"، فقد كان احتلالا جنسيا عنصريا، ولم يكن دينيا اسلاميا، فلم يحدثنا التاريخ عن دعوة مسيحى الأندلس للاسلام، ولايهود الأندلس كما يدعون، ولم يحدثنا التاريخ عن فرض الجزية عليهم الا فى الأقل النادر كما حدثنا عن فرض الجزية على مسيحيى ويهود الشرق دون عرض الاسلام عليهم، فكان همهم الجزية على مادون المسلمين، والخراج على المسلمين..

وتنتسب أسرة بنى الأحمر، أو بنى نصر الى "سعد بن عبادة" الأنصارى الصحابى المعروف، وسيد قبيلة الخزرج من أنصار المدينة المنورة، وكان أول ملوكهم فى غرناطة الغالب بالله أمير المؤمنين "أبو عبد الله محمد بن يوسف بن قيس الخزرجى الأنصارى" الذى ولد فى أرجوانة بولاية جيان سنة ٥٩٥هـ - ١١٩٨م.، وامتدت دولة بنى الأحمر قرابة قرنين من الزمان حتى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م.، وساعدها على الاستمرار ملوك دولة المغرب العربى أمثال ملوك بنى حفص، وملوك بنى مرين، وكذلك الصراعات الداخلية، والتفكك الذى ساد ممالك نصارى أسبانيا فى تلك الفترة التى ضربت فيها الانقسامات مملكة قشتالة أكبر ممالك اسبانيا النصرانية عندما دخلت فى صراعات حادة، ودموية مع مملكة ليون، ومملكة أراجون..

ولاتبق الأحوال كما يبغى الغرناطيون دائما حيث تبدل الصراع النصرانى - النصرانى الى تحالف، واتفاق بين الممالك الأسبانية الرئيسية قشتالة، والأراجون، وليون بزواج ايزابيلا ملكة قشتالة من فيرديناند ملك الأراجون، وبهذا الزواج توحدت الممالك الأسبانية النصرانية، وظهرت كدولة موحدة فتية هدفها الأول القضاء على العرب الكفرة، واجلائهم..

ووجد فرديناند، وايزابيلا فرصتهم عندما امتنع أخر ملوك غرناطة السلطان علىّ أبو الحسن ابن الأحمر عن دفع الضريبة السنوية التى ارتضاها أبوه لملك أسبانيا لارضائه عندما أدرك ضعف غرناطة، بل رد عند مطالبته بدفع الضريبة بأنه ليس لديه الا السيف، وهجم على حامية أسبانية قريبة فاحتلها، وطرد منها

جنودها الأسبان..

وكان لأبى الحسن زوجة عربية هى ابنة عمه عائشة، أو فاطمة ولدت له عبد الله الصغير، وزوجة أسبانية جميلة ولدت له ولدان أراد أن يوصى لهما بالملك من بعده، فلما توفى أبو الحسن عندما كان فى زيارة لأخيه الملقب بالزغال فى المرية اندلعت الخلافات بين الزغال، وابن أخيه عبد الله بتحريض من أمه عائشة انتهت باقتسام المملكة فتولى الزغال أمر مالقة، والمرية، وجنوب غرناطة، وتولى عبد الله الصغير الباقى من المملكة..

وهنا قرر فرديناند التخلص من الخصمين كل على حدة؛ فبعث جيشا كبيرا لمحاصرة مالقة التى استبسل سكانها فى الدفاع عن مدينتهم، وأرسل الزغال جيشا من المرية لنجدة مالقة، ولكن عبد الله الصغير آذر الأسبان بجيش ضد جيش الزغال فسقطت مالقة فى أيدى فرديناند فهنأه عبد الله على انتصاره، ثم بدأت مجازر الأسبان ضد العرب المسلمين فراح ضحيتها الأطفال، والنساء، والشيوخ..

ثم استدار فرديناند نحو عبد الله الصغير الذى ظل فى الأندلس حتى طلب منه تسليم غرناطة فورا، فلم يجد الغرناطيون بدا من الدفاع عن معقلهم الأخير، وقد تمثل أمام أعينهم ماحدث لمسلمى مالقة، واستمر الحصار بضعة أشهر أحرقت فيها السهول، والوديان الخضراء حتى تفشت المجاعة فى المسلمين الغرناطيين، فاضطرت المدينة الى الاستسلام على أمان فرديناند، وعهوده الزائفة..

والحقيقة التى لم يدركها المسلمون، وملوكهم الغارقين فى المتع، والشهوات أن سقوط غرناطة كان لابد منه عاجلا، أو آجلا بعد سقوط مدن الأندلس الأخرى فى أيدى نصارى اسبانيا، فسقطت "بلنسية"، و"دانية"، و"جيان"، و"شاطبة"، وسقطت "طليطلة" سنة ١٠٥٨م.، وسقطت "قرطبة" سنة ١٢٣٦م.، وسقطت "اشبيلية" سنة ١٢٤٨م.، و"مرسية" سنة ١٢٦٦م. فكان سقوط الثلاث الأخيرة متتابعا، وفى اصرار لم يدركه المسلمون كثيرا، فهم مشغولون دائما..

فقدت الحضارة الاسلامية قدرتها على الهجوم، ولجأت الى الدفاع فى

القرن الخامس عشر الميلادى بسقوط مملكة "غرناطة" العربية فى الأندلس، ثم هزيمة الأسطول العثمانى فى معركة "ليبانتو" البحرية سنة ١٥٧١م، ثم اضطرار الجيوش العثمانية لفك الحصار عن فيينا سنة ١٦٨٣م، ولم تكتف الدول الغربية باسترداد الأقاليم التى أخذها العرب المسلمون؛ بل عملت منذ القرن الحادى عشر الميلادى الذى بدأت فيه الحملات الصليبية على احتلال المنطقة العربية كلها، وفرض سلطانها عليها..

تحمل الموريسكيون(الاسم الذى أطلقوه على المسلمين بعد سقوط الأندلس) العنت من جراء سقوط الأندلس اذ مورست ضدهم كل صنوف التصفية الجسدية، والعرقية، والدينية، والأخلاقية، والوجدانية، ولم يتحرك مسلمو الشرق كثيرا لنجدتهم، ليس عن ضعف فقد كانت الدولة العثمانية فى أوج قوتها العسكرية عندما كانت مدافعها تدك معاقل، وحصون، وقلاع شرق أوروبا، ويدقون أبواب فيينا، ويسقطون القسطنطينية، كان المسلمون فى الغرب يُبادون، ويُقهرون على دينهم، ومن قائل ان للدولة العثمانية آياد بيضاء على مسلمى الغرب بتنظيم الهجرات الجماعية لهم الى الجزائر بعد أن احتلها العثمانيون، وأزالوا أزمة الموريسكيين سنة ١٦١٤م لهو ضرب من قصور الادراك، والتعمية، فمن ذا الذى تبقى من المسلمين المنكوبين فى خلفائهم بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م وحتى التاريخ المذكور(١٦١٤م)، بعد أن تمت هذه العملية فعلا ولكن بعد ١٢٢ سنة..

ينقسم عصر المسلمين فى الأندلس الى ثلاث فترات رئيسية متميزة:

- عصر الولاة ٩٢ - ١٣٨هـ..
- عصر الامارة الأموية ١٣٨ - ٣١٦هـ..
- عصر القوة(فترة الخلافة) ٣١٦ - ٤٢٢هـ..

عصر الولاة:

انطلقت جيوش الأمويين نحو الغرب أواخر القرن الأول الهجرى بقيادة موسى بن نصير، وعندما علم بأرض شبه الجزيرة الأيبيرية فى الشمال (اسبانيا) التى

كان يحكمها القوط؛ أرسل اليهم أحد قواده من البربر طارق بن زياد سنة ٩٢هـ(٧١١م)، فكتب الله له النصر، وضمت البلاد الى المغرب تحت حكم والى واحد..

اتسمت هذه الفترة بالاضطراب، والقلاقل قرابة نصف قرن من الزمان توالى عليها ٢٤ واليا، تنازع فيها الجنسان العرب، والبربر، فانفرد العرب بالسهول الخصبة من البلاد المفتوحة، وتولوا الأمر، والرياسة فى الأقاليم، بينما تركوا للبربر المناطق الجبلية، والأقاليم النائية، وحرموهم من الولاية، والسلطان، كما كان العرب أنفسهم منقسمين بين القحطانية، والعدنانية، ناهيك عن ملاحقة الفرنجة لهم؛ وهم على هذا الحال حتى توقف الزحف الاسلامى نهائيا بعد اختراقهم جبال البرانس جنوب فرنسا على يد شارل مارتل ملك الافرنج فى معركة بلاط الشهداء التى استشهد فيها قائد المسلمين المجاهد عبد الرحمن الغافقى سنة ١١٤هـ..

عصر الامارة أو الخلافة:

كان الصراع على أشده فى الأندلس بين "المضرية" بقيادة الأمير "يوسف الفهرى"، وبين تجمع "اليمانية"، و"الأمويين" بقيادة "عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك" والى الأندلس، المسمى عبد الرحمن الداخل، وقام بينهما القتال لمدة عام كانت الغلبة فيه لعبد الرحمن، وجيشه من اليمانيين، والأمويين فى موقعة "المصارة"، واستطاع تأسيس الدولة الأموية القوية(١٣٨- ٤٢٢هـ)(٧٥٥ - ١٠٣٠م) فى الأندلس، واستمرت نحو نصف قرن من الزمان استقلت خلالها الأندلس، ولم ترتبط بالخلافة العباسية التى حاولت اخضاعه بالجيوش المتتالية فى خلافة المنصور، ثم فى خلافة المهدى، ولكنهم انهزموا فتركوه وشأنه، وأطلقوا عليه صقر قريش، وتتابع الخلفاء الأمويون بعد أن استطاعوا السيطرة عليها بمساعدة البربر، وقد اتخذوا "قرطبة" عاصمة لدولتهم..

واجهت الدولة الناشئة نوعان من الصراع أحدهما شمالى مع الفرنجة الأسبان(اسلامى - مسيحى)، والثانى جنوبى مع الدولة الفاطمية الفتية فى

المغرب العربى(اسلامى سنى - اسلامى شيعى)..

سقطت الدولة الأموية فى الأندلس فى براثن الثراء الفاحش الذى كان السبب الرئيسى فى ظهور ملوك الطوائف الذين امتلكوا الاقطاعات الكبيرة فى المدن التى نشأوا فيها، فقسموها بينهم كل على حسب قوته، وثروته، ونفوذه الذى كان يقهر به من كان دونه فى الثراء، والقوة، فيصادر أملاك المهزوم، ويضمها الى أملاكه حتى وصل بهم الأمر الى الاستعانة بنصارى الأندلس، والفرنجة تماما مثلما فعل مسلمى الشرق مما أدى الى الفوضى، والانحلال، والحرب الأهلية التى كانت الأندلس مؤهلة لها بحكم احتوائها على الأعراق المختلفة التى جاءت اليها من عرب، وبربر، وأسبان، وصقالبة، ومولدين من الوضع الجديد الذى ينشأ عادة عندما يحدث الاختلاط، وتكثر الزيجات بين المقيم، والوافد، هذا والعدو يتربص بهم جميعا خاصة عندما أعلنوا قضيتهم الملحة وهى الاسترداد، وطرد العرب المسلمين من الأندلس، وهو مانفذوه فعلا بعد صراعات استمرت ٧٠ عاما سيطر بعدها المرابطون على الأندلس، وقد انقسمت الأندلس فى فترة ملوك الطوائف الى المناطق الآتية:

- منطقة العاصمة قرطبة، وماجاورها..
- منطقة طليطلة، أو الثغر الأوسط..
- أشبيلية، وغرب الأندلس حتى المحيط الأطلسى..
- غرناطة، ورية، والفرنتيرة..
- منطقة شرق الأندلس، أو بلنسية شمالا، وجنوبا..
- سرقسطة، والثغر الأعلى..
- عدد كبير من المدن، والقواعد كامارات التأمت بالانضمام الى مناطق أقوى منها..

وبدا الاستخفاف بنظام الخلافة، وابتذالها فى هذا العصر حدا سمح بتواجد أربعة خلفاء في المنطقة الواحدة من هذه المناطق، أو أربعة أمراء من المسلمين فى آن واحد..

بادر "ابن عباد" ملك أشبيلية بانفاذ وفد الى بلاط "المرابطين"(٤٤٨ - ٥٤١هـ)(١٠٥٦ - ١١٤٧م) فى مراكش يعرض الأمر على "يوسف بن تاشفين" ملكهم الذى رحب بهم، ولبى مطلبهم، ووعدهم رغم اعتراض ملوك الطوائف، وكان لابن عباد نظرته البعيدة فى تأخير خروج المسلمين من الأندلس الذى تبناه "الفونسو السادس" ملك قشتالة، وماتجرعه المسلمون المنقسمون من الجور، والعسف، والذل، والهوان فى هذه البلاد..

خف المرابطون لملاقاة نصارى الأندلس الذين استجلبوا جحافلهم من كل مكان فى أوروبا، فجاءوا من "فرنسا"، و"ايطاليا"، و"غرب أوروبا"، وقاتلوهم مع مسلمى الأندلس فهزمزهم شر هزيمة فى موقعة "الزلاقة" سنة ٤٧٩هـ - ١٠٨٧م.، ثم توالت انتصاراتهم فى معركة "أقليش" سنة ٥٠١هـ، وموقعة "افراغة" سنة ٥٢٨هـ، ثم أعقبتهم جيوش الموحدين(٥١٤ - ٦٧٤هـ)(١١٢٠ - ١٢٧٥م) التى انتصرت عليهم فى موقعة "الأرك" سنة ٥٩١هـ - ١١٩١م.، وقد ظل هذا الحال طيلة القرنين ونصف من الزمان..

رغم انتصار الزلاقة ظل ملوك الطوائف المتخاذلين، والذين رفضوا من قبل نجدة المرابطين يبجلون الفونسو السادس ملك قشتالة، ويدفعون له الجزية، فأضمر لهم يوسف بن تاشفين دخول الأندلس لقتال القشتاليين، فبدأ بهم، وأجهز عليهم جميعا، وأودع من بقى منهم سجون المغرب، واستولى على الأندلس، وضمها لحكمه فى المغرب، وعاصمتها "مراكش"..

ورث الموحدون دولة المرابطين، ولكنها انهارت بدورها فى أعقاب موقعة العقاب القاصمة سنة ٦٠٩هـ، فتبعثرت الدولة الى دويلات تركت الأندلس يلقى مصيره المحتوم؛ فتساقطت كبريات المدن الأندلسية أمام القوات النصرانية..

ولم يسرف المسلمون على أنفسهم فقط من حيث الاستعانة بالأعداء ضد الأصدقاء، ولكنهم كادوا لبعضهم البعض ومن ذلك أنه استعان رجل من بنى جهور فى قرطبة بالأندلس بالملك المترف المعتمد بن عباد عندما هاجمه ملك مجاور له ليحميه من الجار المهاجم، وهو ابن ذى النون الذى كان طامعا فى مملكة قرطبة ليضمها الى أملاكه؛ فجاء المعتمد بجيش كبير لنجدته، وحمايته

من ابن ذى النون، واقترب الجيش بعدده، وعتاده، ولما اقترب من المدينة خرج ابن ذى النون هاربا خوفا، وهلعا، فخرج ابن جهور ليودع جيش المعتمد بن عباد، ويشكره على شهامته، ونخوته ففوجىء بابن عباد وقد بث جنوده فى المدينة، وقد حاصر قصر ابن جهور، واحتل المدينة بعد اجتياحها؛ فأصيب ابن جهور بصدمة عنيفة عندما قبض عليه ابن عباد، وعلى والده الذى أصيب بالشلل النصفى، وأصدر ابن عباد أمرا بمصادرة أموالهم لصالحه، وأودع أولادهم السجن، وسبى زوجاته، وعبيده، وخدمه، ثم أخرج الملك، ووالده الى منفاهما فى مدينة أخرى..

ومن اسرافهم على أنفسهم أيضا عندما اشتهت احدى نساء أمير أشبيلية أن تغوص أقدامها فى الطين، فأمر بأن تصنع لها بركة من المسك المعجون بالماء المعطر، أنفق عليها مايكفى لتجهيز جيش حتى أحاطت جيوش الفرنجة بالأمير، ونسائه وهم يعبثون عراة فى طين المسك؛ فلم يجد الأمير فى خزائنه مايدفع به هذه الجيوش؛ فسقطت امارة أشبيلية فى طين المسك..

لقد كانت تصرفات أغلب قادة المسلمين فى أرجاء المعمورة تصرفات فردية، لايحكمها سوى الوازع الشخصى البحت الذى قد يبتعد، أو يقترب من روح الاسلام، وقيمه، وأخلاقه، فلو كانت هناك جامعة تأثرت بروح الاسلام فى العصر النبوى، والتف حولها المسلمون لتغير تاريخ الانسانية كلها، وليس تاريخ العالم الاسلامى وحده، فربما برزت فى التاريخ الانسانى مثالا يُحتذى، تشرف كافة الأمم بالدخول فى رعايته، حتى لو لم تتخذ الاسلام دينا؛ بل وطنا ونظاما..

العثمانيون والاسلام
(٦٩٩ - ١٣٤٢هـ) (١٢٩٩ - ١٩٢٣م)

خريطة (٨) مناطق نفوذ العثمانيين

ظهر العثمانيون منذ عام ٦٩٩هـ - ١٢٩٩م، وأعلنوا خلافتهم فى القاهرة سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م بعد تسلمها من الخليفة العباسى الصورى الذى كان موجودا فى القاهرة..

م	السلطان	تاريخ ولايته	الحالة
١	عثمان بن أرطغرل	٦٩٩هـ – ١٢٩٩م	السلطنة والقوة
٢	أورخان بن عثمان	٧٢٦هـ – ١٣٢٥م	"
٣	مراد الأول بن أورخان	٧٦١هـ – ١٣٥٦م	"
٤	بايزيد الأول بن أورخان	(٧٩٢ – ٨٠٥هـ) (١٣٨٩ – ١٤٠٢م)	"
٥	محمد الأول بن بايزيد	٨١٦هـ – ١٤١٣م	الصراع العائلى
٦	مراد الثانى بن محمد	٨٢٤هـ – ١٤٢١م	"
٧	محمد الثانى(الفاتح)	٨٥٥هـ – ١٤٥١م	"
٨	بايزيد الثانى بن محمد	٨٨٦هـ – ١٤٨١م	"
٩	سليم الأول بن بايزيد	٩١٨هـ – ١٥١٢م	"
١٠	سليمان(القانونى) بن سليم	٩٢٦هـ – ١٥١٩م	الخلافة والقوة
١١	سليم الثانى بن سليمان	٩٧٤هـ – ١٥٦٦م	"
١٢	مراد الثالث بن سليم	٩٨٢هـ – ١٥٧٤م	الضعف
١٣	محمد الثالث بن مراد	١٠٠٣هـ – ١٥٩٤م	"
١٤	أحمد الأول بن محمد	١٠١٢هـ – ١٦٠٣م	"
١٥	مصطفى الأول بن محمد	١٠٢٦هـ – ١٦١٧م	""
١٦	عثمان الثانى بن أحمد	١٢٠٧هـ – ١٦١٧م	"
١٧	مصطفى الأول(مرة ثانية)	١٠٣١هـ – ١٦٢١م	""
١٨	مراد الرابع بن أحمد	١٠٣٢هـ – ١٦٢٢م	"
١٩	ابراهيم الأول بن أحمد	١٠٤٩هـ – ١٦٣٩م	""
٢٠	محمد الرابع بن ابراهيم	١٠٥٨هـ – ١٦٤٨م	
٢١	سليمان الثانى بن ابراهيم	١٠٩٩هـ – ١٦٨٧م	"
٢٢	أحمد الثانى بن ابراهيم	١١٠٢هـ – ١٦٩٠م	""
٢٣	مصطفى الثانى بن محمد	١١٠٦هـ – ١٦٩٤م	"
٢٤	أحمد الثالث بن محمد	١١١٥هـ – ١٧٠٣م	""
٢٥	محمود الأول بن مصطفى	١١٤٣هـ – ١٧٣٠م	"

٢٦	عثمان الثالث بن مصطفى	١١٦٨هـ - ١٧٥٤م	""
٢٧	مصطفى الثالث بن أحمد	١١٧١هـ - ١٧٥٧م	"
٢٨	عبد الحميد الأول بن أحمد	١١٨٧هـ - ١٧٧٣م	""
٢٩	سليم الثالث بن مصطفى	١٢٠٣هـ - ١٧٨٨م	""
٣٠	مصطفى الرابع بن عبدالحميد	١٢٢٢هـ - ١٨٠٧م	الانحطاط والتراجع
٣١	محمود الثانى بن عبد الحميد	١٢٢٣هـ - ١٨٠٨م	"
٣٢	عبد المجيد الأول بم محمود	١٢٥٥هـ - ١٨٣٩م	
٣٣	عبد العزيز بن محمود	١٢٧٧هـ - ١٨٦٠م	
٣٤	مراد الخامس بن عبد المجيد	١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م	
٣٥	عبد الحميد الثانى بن عبد المجيد	١٢٩٣هـ - ١٨٧٧م	
٣٦	محمد رشاد بن عبد المجيد	١٣٢٨هـ - ١٩١٠م	الاتحاد والترقى
٣٧	محمد وحيد الدين بن عبد المجيد	١٣٣٧هـ - ١٩١٨م	
٣٨	عبد المجيد بن عبد العزيز	(١٣٤٠- ١٣٤٢هـ) (١٩٢١ - ١٩٢٣م)	

شكل٨): التمثيل البيانى لمدد حكم سلاطين وخلفاء العثمانيين حتى الخليفة ابراهيم..

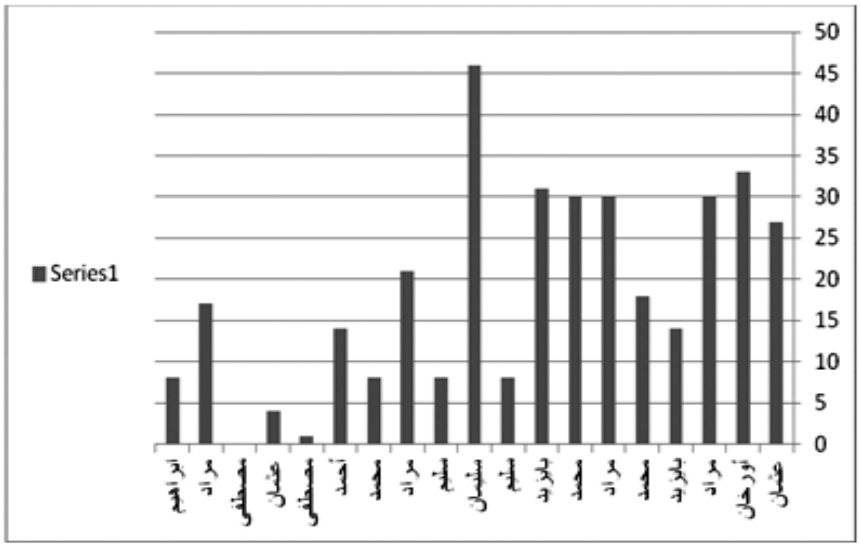

ويعود أصلهم لقبيلة قابى من قبائل الغز التركمانية من بلاد تركستان المسلمة بقيادة "أرطغرل بن سليمان" وكانت منطقة شمال الأناضول تحت حكم السلطان "علاء الدين كيقباد السلجوقى"، ولما ساعده أرطغرل فى صد غارات البيزنطيين أقطع له منطقة "أسكى شهر" على حدود الروم، وسمح له بالتوسع على حساب البيزنطيين، ولما توفى أرطغرل سنة ٦٨٧هـ - ١٢٨٨م خلفه ابنه عثمان الذى تنسب الدولة لاسمه..

كان التوسع من الخان الجديد من أجل نشر الاسلام - وهو ماأشاعه - بيد أن هذا التوسع لايعدوا أن يكون من أحلام الخانات الذين يجب عليهم توجيه الحملات فى الجهات الأربع كما يقول المؤرخون..

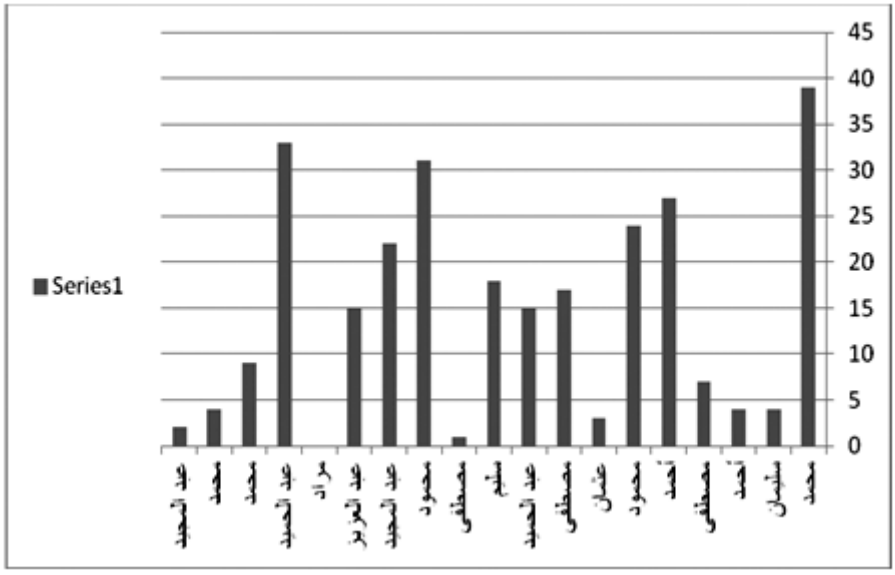

شكل(٩): التمثيل البيانى لمدد حكم خلفاء العثمانيين من الخليفة محمد حتى الخليفة عبد المجيد..

وكان الجيش الانكشارى جزءا لايتجزأ من تنظيم الدولة العثمانية، وعنصرا مميزا لجهازها العسكرى، ثم تحول الى الحرس البريتورى فكان مثيرا رئيسيا للاضطرابات الاجتماعية، وكانت له تطلعات ديكتاتورية واضحة، وتم القضاء

عليه سنة ١٨٢٦م..

عض خلفاء بنى عثمان على السلطة بالنواجذ، فكان الخليفة الذى يقع عليه الاختيار يقوم ليلة جلوسه على العرش بقتل كل اخوته، وكل من يشتبه فى منازعته السلطة، حتى قتل أحدهم ثلاثة وعشرين أخا فى ليلة واحدة، فاذا سأم أحد هؤلاء الخلفاء القتل، والدم كان السجن مصيرهم جميعا..

كانت فترة بنى عثمان منذ اعتلاء سليم الأول لحكم بنى عثمان سنة ٩١٨ هـ - ١٥١٢ م وبالا على الاسلام، والمسلمين، فلم تكن قوة الدولة حينها، وسعة الفتح الذى منى به "سليم الأول" الا دهاء، ومكرا حيث كان الجيش يصطحب معه شراذم من الجواسيس، والخونة، والمارقين من الجبهة المقابلة، وذلك لاستمالة قواد الجيش من الطرف الآخر؛ وهو ماحدث مع المماليك بقيادة السلطان "قنصوه الغورى" فى موقعة "مرج دابق" شمال حلب سنة ١٥١٦م عندما خرج آخر سلاطين دولة المماليك العسكرية فى مصر على رأس جيش كبير لملاقاة سليم الأول على حدود الشام قبل قدومه الى مصر، وهى احدى استراتيجيات العسكرية المملوكية طيلة ثلاثة قرون فى مصر؛ فصدوا بها خطر "المغول" فى معركة "عين جالوت"، وأنهوا بها الحملات الصليبية فى معركة "المنصورة"؛ التى أسروا فيها قائد أوروبا الأعظم وقتها "لويس التاسع"، وأفرجوا عنه بفدية عظيمة، ولم يميلوا يوما الى الختل، والخيانة لأنهم كانوا يتربون تربية اسلامية، ويتعلمون اللغة العربية فى المقام الأول قبل تدريبهم على المهام العسكرية، وتنظيم الحروب، وقيادتها على عكس العثمانبن الذين كانوا من سكان الجبال، والمراعى قبل دخولهم الاسلام فلم يرعوا فيه أدبا، ولاحرمة لأهله الا من رحم ربى منهم..

اصطحب سليم الأول الحرفيين، والفنيين من الأقطار العربية المسلمة التى احتلها، وتركها تسقط حضاريا من تلقاء نفسها، ولا أدل على ذلك سوى الصور المتهافتة للآداب، والعلوم التى كانت فى عهدهم، ثم تسقط بعد ذلك صريعة الاحتلال الفرنسى بقيادة نابليون التى لم تستطع دولة الخلافة رده عن مصر، وكان أول مسمار أوروبى يدق فى نعش هذه الامبراطورية التى ولدت فتية بالاسلام، ثم انتابتها أمراض الفتور، والخمول، والبذخ..

كانت أول مظاهر هذا الاضعاف للاسلام أكثر مما هو سياسة التتريك التى باعدت بين الدولة الفتية، ورعاياها المسلمين، والعرب، فكانت تعصبا جنسيا، وطائفيا بغيضا لم يتبعه الفرس، والرومان من قبل، الأمر الذى أضعف روح الولاء لهذه الدولة المفترض أنها تدين بالاسلام، فلا غرو أن يذكرهم المؤرخون بالمحتلين، والمستعمرين كغيرهم..

ركزت الدولة العثمانية طاقتها الحضارية فى القوة العسكرية، فملكت الخبرات الحربية الحديثة فى ذلك الوقت من صناعة للسلاح، الى اقامة التحصينات، ووسائل الدفاع للردع، والهجوم، ولكنهم كانوا فى الأصل رعاة، ومماليك لم يدركوا أن القوة العسكرية الحديثة لابد من دعمها بالعلم، والبحث فى مختلف الميادين حتى يمكن دفع التقدم العسكرى، وتغذيته، ولكننا نلحظ الانحطاط العلمى، والحضارى الذى ميز تاريخ هذه الدولة التى حكمت العالم الاسلامى الذى بلى بها فى هذا الوقت فاضمحلت بقيته الباقية بانتشار الخرافات، والشعوذات؛ بينما كان الغرب فى ذلك الوقت يمضى قدما نحو القوة، والرقى، واحتلال بلاد المسلمين..

بدت الدولة العثمانية قوة عسكرية رادعة ابان القرن السادس عشر الميلادى، ولم يتم استغلالها الاستغلال الأمثل من أجل الاسلام، والمسلمين؛ بل من أجل مجد السلاطين أنفسهم، فبدلا من أن تكون هذه الدولة القوية اضافة لرصيد المسلمين المتآكل، والمنسحب من الحياة الدولية أنقصوا هذا الرصيد باحتلال الدول العربية المسلمة من أجل الفوز بالخلافة المزعومة، ثم توقفت الفتوحات بعد سليمان القانونى، لتبدأ الدولة فى الانحدار..

ومن مظاهر هشاشة قوتهم ظهور الحركات الانفصالية خاصة فى مصر بقيادة "على بك الكبير" المملوكى فى غضون أربعين سنة من الاحتلال فى أوج فتوة الدولة، ولا يقف حد هذا الانفصالى عند اعلان استقلاله بمصر فقط؛ بل تقدم بجيوشه فى يسر، وسهولة لينتزع منهم "الحجاز"، ثم "الشام"، ولولا استعانتهم بالدس، والخيانة لما عادت اليهم مرة أخرى، وهو نفس ماقام به محمد علىّ والى مصر بعد ذلك..

لقد كان احتفاظ العثمانيون بلغتهم رغم دخلوهم الاسلام، وعدم تحولهم الى العربية لغة القرآن من أولى خطايا الدولة العثمانية، وهو ماكرس العنصرية التى مارسها الأتراك ضد العرب استخفافا بهم، ومحاولة سلب أى ميزة لهم من حيث الصنائع، ومحاولة جلبها الى تركيا، وكان هذا أول ماجنوه على دولتهم التى تربص بها الاستعمار الأوروبى بليل؛ وهى لاهية فى عزها، وبزخها، وفتوحاتها التى آثارت عليها أوروبا الصاعدة، حتى جاء أتاتورك ليجهز بدوره على البقية الباقية من الاسلام التركى، ويحول اللغة التركية من الخط العربى الى الخط اللاتينى ليقطع هو الآخر أى صلة بين تركيا، والاسلام الى غير رجعة، ويصبح المصحف أثرا، ورسما، قال أحد المترددين على تركيا:

-"انهم يقرأون القرآن، ومنهم من يحفظه، ولكنهم لايفهمون منه شيئا".. ولانأس كثير ففى المنطقة العربية كثيرا ممن لايفهمونه أيضا..

يقول رشيد رضا فى كتابه "الخلافة" الصادر سنة١٣٤١هـ - ١٩٢٢م:

-"وقد نقل الينا من الأستانة أن أول جمعة حضرها الخليفة الروحى الجديد ألقيت فيها خطبة الصلاة باللغة التركية، ومن المعلوم من الاسلام بالضرورة أننا متعبدون بتدبر القرآن، والاعتبار، والاتعاظ بآياته، وبفهم تلاوة الصلاة، وأذكارها، وكل ذلك يتوقف على معرفة اللغة العربية"..

يقول لورانس فى "أعمدة الحكمة السبعة":

-"قصد الأتراك القضاء علي اللغة العربية نفسها، ومنعوا استخدامها فى الدواوين، والمحاكم، والمدارس العليا لعلهم بذلك يقضون على العنصر العربى"..

وليس من شك فى احتقار الأتراك الحاكمين للعرب المحكومين؛ وكلاهما مسلمون من أقوالهم التى جرت على ألسنتهم مجرى الأمثال السائرة:

-"ديلنجى عرب".. العرب الشحاذون، قالوها فى عرب الحجاز..

-"كور فلاح".. الفلاحون الأجلاف، قالوها فى المصريين..

-"بيس عرب".. عربى قذر..

-"عرب عقلى".. عقل عربى صغير..

-"عرب طبيعتى".. ذوق عربى فاسد..

عندما انعقد المؤتمر العربى فى باريس عام ١٩١٣ فقال عنه العثمانيون بأنه مؤتمر الجواسيس، ووكلاء الافرنج لأن العرب قاموا يطالبون بحقوقهم..

وهو ماجعل العرب الذين نقلوا لهم الاسلام يبادلونهم الاحتقار أيضا فى تعبيرات مقتضبة:

-"ثلاث خلقن للجور والفساد؛ القمل، والترك، والجراد"..

وكانوا يسمونهم "الأروام" ريبة فى اسلامهم..

يقول الشيخ محمد الغزالى فى كتابه "الاسلام والاستبداد السياسى" عن العثمانيين:

-"فتحوا مصر المسلمة كما فتحوا اليونان المسيحية، وفرضوا الجزية على كليهما، وخربوهما معا؛ أفكان ذلك نزولا على هدى الاسلام؟!"..

لقد كانت الدولة العثمانية عسكرية، وحربية فى المقام الأول، ولم يكن لها فى سياسة الدولة أدنى معرفة، فقد كان الأتراك طوال تاريخهم فى الدولة الاسلامية رجال حرب، ومؤمرات، ودسائس، فلايدين الجندى منهم الا لولى نعمته الذى كان ينقلب عليه حين تمتنع عنه هذه النعمة، أو يجد من هو أنعم عليه منه..

استأثر الأتراك بالحكم، والحكومة، واستعانوا بالمماليك من أغراب البلاد على أهلها المقيمين، قاموا الى الاسلام بحماس المقاتلين بغير قضية؛ فاتخذوا الاسلام قضيتهم لدفعهم فى الحروب، واتخذوه مبررا للغزو، والفتح؛ فغزوا شرق أوروبا، وفتحوا فى أوروبا بلادا استعصت من قبل على العرب، مثل "القسطنطينية"، ولكنهم عندما فتنوا بالنظم الأوروبية تخلوا تدريجيا عن الاسلام الذى اتخذوه درعا، وسلاحا، وفكرا دون المسلمين، فانعزلوا تماما عن المسلمين - خاصة العرب منهم - ممايدل على الخواء الادراى، والسياسى لهذه الدولة، ورجالها، حين تكبروا علي العرب المسلمين، وأذلوهم، واستعبدوهم، وأسلموهم بعد ذلك لقما سائغة للاستعمار الأوروبى قرنين من الزمان..

أدى سقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين الى دفع حركة النهضة الأوروبية فى ايطاليا بعد هروب العديد من العلماء ومعهم الكثير من المخطوطات، والوثائق الاغريقية للاستقرار فى المدن الايطالية؛ حيث كانت المدن الايطالية وقتها أكثر المدن الأوروبية تقدما فى التجارة، والصناعة مما أدى الى تراكم الأرباح، والثروات، وظهور المؤسسات البنكية، والمالية، والأسر الغنية التى عملت على تطور الحياة الثقافية، والفنية، مع انتشار الكتب بعد ظهور المطبعة(جوهان جوتنبرج) سنة ١٤٥٥م، وانتقلت هذه المظاهر خلال القرنين الخامس، والسادس عشر لتشمل أسبانيا، وفرنسا، وانجلترا، وألمانيا، وبلجيكا..

ولم يكن الاستعمار الأوروبى للبلاد العربية، والاسلامية فقط من مساوىء الخلافة العثمانية التى أباحت له هذه البلاد "تسليم مفتاح"، فمن الخلافة العثمانية أيضا بدأت نكبة فلسطين حتى يومنا هذا، حين بدأت الهجرات الصهيونية الى فلسطين من سنة ١٨٨٢م بتهاون، ومباركة هذه الدولة؛ حتى أقيمت أول مستوطنة صهيونية هذا العام تحت مسمى "مستعمرة"، وكان المهاجرون أيامها يدخلون فلسطين بسهولة شديدة بترحيب من دولة الخلافة، وتقديم ولاة الدولة العلية كافة التسهيلات لهؤلاء المهاجرين؛ باعتبار أنهم سوف يستغلون الأراضى غير المزروعة التى ستزيد دخل الدولة من الضرائب، فتضاعف عدد اليهود فى فلسطين بهذه السياسة من خمسة آلاف سنة ١٨٤٠ الى ٢٤ ألفا سنة ١٨٨٢م، أى حوالى خمسة أضعاف، فازداد عدد المستوطنات، وبدأت الاحتكاكات بين عرب فلسطين، والوافدين الجدد، وسرى همس بين الفلسطينيين أن رشاوى تدفع الى المسئولين العثمانيين لاقامة المستوطنات، والسماح بهجرة هذه الأعداد التى وصلت الى ٣٥ - ٤٠ ألفا سنة ١٩١٤م، ويعتبر المؤرخون المتحمسون السلطان عبد الحميد بطلا أسطوريا عندما رفض اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، كما رفض مبلغ ٥٠ مليون جنيها ذهبيا من أجل ذلك، ولكنهم لم يذكروا أنه كان يريد منحهم العراق ذات الأعداد الكبيرة من المسلمين الشيعة نكاية فى مسلمى ايران الشيعة أعداء العثمانيين القدامى..

وفى ٢٤ من يونيو ١٨٩١ أرسل أعيان القدس برقية الى الصدر الأعظم فى

الأستانة – عاصمة الدولة العلية – يشكون فيها من زيادة أعداد المهاجرين اليهود، ويطالبون بوقف هذه الهجرات، وايقاف تملكهم للأراضى الزراعية، ولكن لاحياة لمن تنادى؛ فكيف للمريض الغافى أن يتنبه؟.. فدخلت جيوش بريطانيا القدس سنة ١٩١٧م تمهيدا لتسليمها رسميا الى اليهود، بعد أن فر الضباط الأتراك من حامية القدس العثمانية لينتهى الحكم العثمانى نهائيا للمدينة الذى استمر ٤٠٠ عام..

وهذه الأيام يطلق الأوربيون على تركيا "جسد أوروبا المريض"؛ فهى أفقر دول القارة، وسكانها الأقل دخلا، رغم أنهم فى زمن ما حكموا ثلثى العالم، ولم يحكمهم أحد، وكانت بداية نهايتهم قصر شيدوه ببذخ فاق كل ما يوصف به اسراف الخديوى توفيق فى مصر، والقصر هو "الآستانة" المسئول عن افلاس دولة مترامية الأطراف، فهو يحتوى على خمسة عشر طنا من الذهب فى السلالم، والجدران، وطنان من الماس يتدلى من النجف، وهم يطلقون عليه الان "قصر ضلمة باشا"، والضلمة بلغتهم تعنى "المحشى"..

وكان العرب قد بدأوا نفورهم من التاريخ العثمانى الذى لم يلعبوا فيه سوى دورا ثانويا، واعتبروا ظهور الأتراك نهاية لازدهار الحضارة العربية الاسلامية، وعقبة فى سبيل اقتباس التطور الذى أحرزته أوروبا الحديثة..

بدأت أول معاول دك الخلافة العثمانية "بمحمد على" عندما هزمت جيوشه المصرية بقيادة ابنه "ابراهيم" جيش الخلافة العثمانية سنة ١٨٣٩م فى موقعة "نصيبين"، وأصبحت هذه الجيوش تهدد "الأستانة" عاصمة الخلافة؛ لولا تدخل الدول الأوروبية التى نبهها محمد علىّ الى مدى ضعف هذه الدولة الكبيرة، وعدم تمكنها من الدفاع عن نفسها، ثم "الشريف حسين" أمير مكة، الذى تحالف مع الانجليز ضد جيوش الخلافة العثمانية ليتم خروجها من الحجاز، والشام، والعراق سنة ١٩١٦م، ثم أجهز عليها "كمال أتاتورك" نهائيا سنة ١٩٢٤م، وقد حاربها الوهابيون فى الجزيرة العربية بعد الشريف حسين، ولم يعترفوا بها أصلا؛ حيث كان القضاء على السعودية الفتية، وعلى الدعوة الوهابية بقيادة طوسون ابن محمد علىّ الذى سيطر على الحجاز، وبعض نجد من أهداف

الدولة العثمانية، ثم قام أخوه ابراهيم الذى لحقه باحتلال "الدرعية" العاصمة (١٢٢٦ - ١٢٣٣هـ) (١٨١١ - ١٨١٧م)..

أعلن الشريف حسين بن علىّ بن محمد آل عون الهاشمى ثورته سنة ١٢٣٦هـ - ١٩١٦م بعد أن عقد اتفاقية مع بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى على أن يقودها العرب ضد العثمانيين؛ مقابل اعتراف بريطانيا به ملكا على العرب، وأعلن نفسه خليفة بعد الغاء الخلافة سنة ١٢٤٣هـ - ١٩٢٤م..

بعد أن قضت بريطانيا على نفوذ العثمانيين فى الجزيرة العربية، والعراق، والشام قسمت الوليمة مع فرنسا بمقتضى اتفاقية "سايكس- بيكو"، ثم تبعته "بوعد بلفور" سنة ١٩١٧ لزرع اسرائيل فى وسط العالم العربى، والاسلامى تحسبا لخروجها من المنطقة العربية، ولما ثار العرب، وعلى رأسهم مصر ابتدروها بالعدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦، ثم عدوان ١٩٦٧ بعد تدمير مشروع محمد على، ثم مشروع عبد الناصر، والتنكر للمشروع الذرى لكل من باكستان، وايران، واصرار أمريكا على أن تكون القوة الاسرائيلية أكبر من كل القوى العربية مجتمعة، ونقل السفارة الاسرائيلية الى القدس، ودور فرنسا فى الجزائر التى لم تتركها حتى قتلت أكثر من مليون شهيد، وتعود هذه الأيام الى الوقيعة بين العرب، والبربر فى دول المغرب العربى..

وظلت اتفاقية سايكس - بيكو لتقسيم أملاك الرجل المريض سرية، ولم يعلم بها العرب الا عن طريق روسيا بعد قيام الثورة البلشفية فى ١٩١٧..

■■■■■

سقوط الخلافة العثمانية:

وجدت بريطانيا فرصتها فى الاجهاز على دولة الرجل المريض بالمسلمين أنفسهم، وذلك بطرد الأتراك من السعودية(مكة، والمدينة اللذان كان المسيطر عليهما خليفة المسلمين) فدعمتها بريطانيا بفرقتين لمجموعتين من العرب المعارضين للعثمانيين، الفرقة الأولى بقيادة "هارى سانت جون بريدجر فيلبى" الذى تمرس فى استخدام السياسة فى المعتقدات الدينية، وكان تلميذا "لآى جى براون"، ورغم أن فيلبى كان ملحدا الا انه كان من أكبر دعاة استغلال الدين فى

السياسة، وقد وصف الدين فى السياسة بقوله:

-"الدين أعظم العهود، والمواثيق التى لها تأثيرا شديدا فى مقاومة المعارضة"..

وليم شكسبير العميل السياسى فى الكويت أول مبعوث بريطانى، وضابط اتصال مع آل سعود، وقد قام بابرام أول معاهدة رسمية بين بريطانيا والسعودية سنة ١٩١٥، وبذلك أصبحت المعاهدة اعتراف ضمنى من بريطانيا بابن سعود - وأسرته - حاكما مستقلا على السعودية، كما كانت ايذانا ضمنيا باطلاق يده على كامل الأراضى السعودية، ولما قتل وليم فى أحد المعارك مع ابن سعود خلفه فيلبى الذى اعتنق الاسلام بعد أن انتقل من الهند الى السعودية، ليصبح هو ضابط الاتصال الجديد..

فى القاهرة المكتب العربى فرع المخابرات البريطانية الذى خرج منه تى آى(لورانس العرب) الشهير الذى دعم الحسين شريف مكة رأس الأسرة الهاشمية وأولاده "الفيصل"، و"عبد الله"، وكانت هذه الأسرة تحكم الحجاز غرب الجزيرة العربية(مكة، والمدينة)، وهذه الأسرة ساعدها الانجليز فى التخلص من العثمانيين، وقد كافأه الانجليز بتولية ابنه عبد الله الأردن، وابنه الثانى فيصل العراق، ثم سلطهم الانجليز على بعضهم البعض لتخرج احدى الأسرتين، وتبقى الأخرى لتدعمها بريطانيا..

كانت هذه السياسة من تصميم فريق الشرق الأوسط فى لندن المكون من:

- اللورد "كورزون" الاستعمارى المتشدد وزير الخارجية، والحاكم الأسبق للهند..
- الآرستقراطى "روبرت سيسيل"، وابن عمه "آرثر لورد بلفور" صاحب الوعد المشهور لليهود بالتعاون مع آل روتشيلد..
- "مارك سايكس" رئيس قسم الشرق الأوسط فى الخارجية البريطانية..
- "ديفيد جورج هوجارت" رئيس المكتب العربى(مخابرات) وصاحب كتاب "اختراق الجزيرة العربية"، وعالم الآثار، والمستشرق، والقائم على متحف اكسفورد..
- المؤرخ المعروف "أرنولد توينبى"..

كتب الحسين شريف مكة للممثل الانجليزى فى جدة ١٩١٨ يقول:

-"ان جلالة الملكة ينبغى أن تجبر ابن سعود على حل، وتسريح مايسمى "بالاخوان"، الجماعة السياسية التى ترتدى عباءة الدين"..

ولكن الانجليز كالعادة رفضوا ببرود شديد، وقال مسئول بريطانى:

-"ان الاخوان يستلهمون أفكارهم من البلاشفة(ثوار روسيا)"..

ويقول السياسى البريطانى بيرسى كوكس فى أواخر ١٩١٥:

-"ان مذهب الاخوان يكتسب سيطرة على الأمور فى نجد، ورأى ابن سعود أن عليه أن يختار بين قرارين؛ اما أن يكون حاكما مؤقتا ويقضى على الاخوان، أو يكون القائد الروحى للوهابية الجديدة التى أوجدها، وفى النهاية أضطر لقبول مبادىء "الاخوان"، وأصبح زعيما لها والا سيخسر كل شىء"، ويقول مؤلف كتاب "لعبة الشيطان":

-"كانت الحركة الوهابية التى قادها الى السلطة أمرا ضروريا حيويا بالنسبة للسعودية، لقد استغل ابن سعود الاسلام لكسر الولاء القبلى، واستبداله بالالتزام بمبادىء العقيدة"..

وفى عشرينيات القرن العشرين ضم آل سعود كافة الأراضى السعودية بمساعدة جيش الاخوان من الوهابيين، وكانت حصيلة الغزوات، والمعارك:

- ٤٠٠ ألف قتيل، وجريح..
- شنق نحو ٤٠ ألف شخص..
- تقطيع أوصال ٣٥٠ ألف شخص..

بعد أن أعلن الحسين الهاشمى نفسه خليفة للمسلمين، كانت بريطانيا تميل نحو دعم الدولة الناشئة لآل سعود التى اكتسحت أراضى النفوذ الهاشمى فى الحجاز(مكة، والمدينة) فى توساعاتها، وطردوا منها الهاشميين، وذبح مئات الرجال، والنساء، والأطفال، ثم استدار ابن سعود نحو جيش الاخوان الذى خاف منه على نفسه، وكان عملهم بعد توحيد المملكة قد انتهى بعد أن استخدمهم فقام بحل الجماعة سنة ١٩٢٩م، وحول ماتبقى من القوات البدوية الى الجيش

النظامى السعودى، ولكنه لم يتخل عن الوهابية كمذهب للدولة، فأنشأ الشرطة الدينية التى تطورت بعد ذلك الى "جماعة الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر" التى تتكون من أعضاء أميين متشددين من البدو لاهم لهم سوى الأمر باقامة الصلاة، واغلاق المتاجر أثناءها بالقوة، ومنع التدخين وغير ذلك، ولازالت حتى الآن..

مساخر الخلفاء وصراع السلطة
واهدار حقوق الرعية

الخلفاء العرب:

بنى "معاوية" داره الخضراء فمر به أبو ذر الصحابى المعروف، وبدلاً من أن يهنأه، ويبارك له هتف فى وجهه:

-"إن كنت إنما بنيتها من مال المسلمين فهى الخيانة، وإن كنت إنما بنيتها من مالك فإنما هو السرف"..

وذكر المؤرخون أن "عمر بن عبد العزيز" كان قد شدد على أقاربه، وانتزع كثيرا مما فى أيديهم، ورد مالديهم من مظالم فتبرموا منه، وقتلوه مسموما..

اشترى "يزيد بن عبد الملك" جارية بأربعة آلاف دينار اسمها "حبابة" أحبها حبا شديدا، فهدده أخيه سليمان بالحجر عليه فباعها، فلما آلت اليه الخلافة اشترتها له زوجته بعدما عرفت هيامه بها، واستحواذها على عقله فتفرغ لها، واختفى معها، وأهمل الخلافة، والرعية، وبينما كان يلهو معها تناولت حبابة حبة رمان وهى تضحك فغصت بها، وماتت، فاختل عقله، وفاض حزنه عليها وظل يقبلها، ويلثمها، ولم يدفنها الا عندما أصبحت جيفة..

ثم ولى الخلافة ابنه "الوليد" بعد أخيه "هشام بن عبد الملك" رغم ماكان بينه وبين عمه من خلاف لاستخفافه بالدين، وشربه الخمر، واشتهاره بالفسق حتى هم عمه بقتله، ولكنه فر منه، ثم أقام بالخلافة سنة واحدة بعد عمه هشام، ثم أجمع أهل دمشق على خلعه، وقتله، وقطعت رأسه، وطيف بها، وصلب على قصره لاشتهاره بالكفر، والزندقة، بعد أن حاصروه، وقالوا انه واقع جارية وهو سكران، وجاءه المؤذنون لاقامة الصلاة فأقسم ألا يصلى بالناس الا هى، فلبست،

وتنكرت، وصلت بالمسلمين وهى جنب سكرى..

ثم بويع "لابراهيم بن الوليد" فمازالت أمور المسلمين مضطربة الى أن قتله "مروان بن محمد"، وصلبه بعد شهرين من ولايته..

وفى الأندلس عُزل أحد خلفاء بنى أمية "هشام المؤيد" فاختفى، ثم ظهر من جديد وتولى الخلافة فى قرطبة، وأصبح أمير المؤمنين فتحداه أمير آخر من بنى عمومته وزحف بجنده، فلجأ هشام الى الفرنجة على أن يتنازل لهم عن قشتالة فنصره الفرنجة بهذا الثمن، ولكن الأمير المغالب هذا انتصر عليه فى قرطبة وأسقطه ثم قتله، واستعان هو الآخر بالفرنجة ليوطد بهم أركان حكمه الجديد الى حين حتى جاءه العلويون من آل حمود ليسقطوا الأمويون، ويتولون على قرطبة..

قال كبير الفرنجة عند فتح الأندلس:

-"لاتقاوموا الفاتحين فهم يتحركون بروح الفداء، ويزحفون بالحرص على الاستشهاد، وطمعا فى نعيم الآخرة، وبايمان جائح يستطيع أن يقتحم كل الصعاب، ولكن انتظروا حتى ينشغلوا بالمال، والسلطة، ويتنازعوا على الحكم، وحينئذ يستطيع الفرنجة أن يستردوا الأندلس"..

ظهر "أبو مسلم الخرسانى" صاحب الدعوة للعباسيين، وظهر "أبو العباس السفاح" بالكوفة، وبويع له بالخلافة، وجهز عمه "عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس" جيشا لقتال مروان بن محمد أخر خلفاء بنى أمية، فالتقى الجمعان بموقعة "الزاب" بالقرب من الموصل، انهزم فيها مروان، وغرق مالايحصى من جنده، ثم دخلوا دمشق بعد أن فتحوها عنوة، وأباحوها ثلاثة أيام، ونقضوا سورها حجرا حجرا..

فى عهد "المنصور" أمر والى المدينة رجاله فضربوا الامام "مالك بن أنس" أسواطا وهو فى السوق وكان كبير السن، ثم جذبوه جذبا غليظا من يده، وجروه منها حتى انخلع كتفه، ثم أعادوه الى داره، وألزموه الاقامة بها لايبرحها حتى للصلاة، ولايستقبل بها أحد، وهو الفقيه الذى أفتى بوجوب طاعة الحكام مهما كانوا ظالمين، وكان على الحياد بعيدا عن السياسة، والحكم، ولكنه رجل علم

يشرح الحديث فى المسجد النبوى:

-"ليس على مستكره يمين".. فيبين للناس أن من طلق مكرها لايقع منه طلاق، فثار "محمد النفس الزكية" على الخليفة المنصور لأنه أخذ منه البيعة لنفسه قسرا، فبايعه الناس مستكرهين، وانتفض معه الناس الذين بايعوا الخليفة مستكرهين اعمالا لهذا الحديث، وأرسل والى المدينة للامام مالك أن يكف عن هذا الحديث، ويكتمه عن الناس لأنه يحرضهم على الثورة، ونقض البيعة، ولكن الامام لايكف؛ فلايستطيع أن يكتم علما..

وفى عهد المنصور أفتى الامام "أبو حنيفة" بعدم جواز قتل المسلمين، ومحاربتهم حتى لو كان السبب هو الاعتراض، ورفض الخليفة؛ فكادوا له حتى يقبل ولاية القضاء فى بغداد، ويصبح قاضى قضاة الدولة العباسية فيكف عن هذه الفتوى، ومن قبل ضُرب، وعُذب فى عهد الأمويين حتى ورم رأسه لأنه رأى أنهم ظالمون، ومغتصبون للسلطة فى عصور تحكمها الدسائس، والسموم، وسياط الجلادين، والفتوحات العسكرية، وعهد ينكل فيه برهبان الحرية، وفرسان الفكر، والرأى فلقى الامام الأعظم حتفه وقد شارف على السبعين بعد أن ملأ الدنيا علما، وفقها، وبعد أن عذبه العباسيون فى السجن، وخافوا أن يطلقوا سراحه فيروى للناس معاناته فى السجن فيثوروا عليهم، فاقترحوا دس شىء من السم له ليخرج منه صامتا وهو يعانى سكرات الموت..

ومات "المهدى" مسموما؛ سمته جاريته عندما وضعت السم فى طعام ضرتها، فبينما كانت الضرة تأكل دخل المهدى ومد يده فأكل، فماجسرت أن تعلن أن طعام ضرتها مسموما..

صادق المهدى "شارلمان" المسيحى فى غرب أوروبا، واستمرت المودة بين الدولتين حتى زمن الرشيد، وذلك لتأليب شارلمان على الدولة الأموية فى الأندلس للقضاء عليها..

ولما تولى "الهادى" عزم على خلع أخيه "الرشيد" من ولاية العهد؛ فعاجلته المنية قبل أن يفعل ذلك، وكانت خلافته سنة ملأها طغيانا، وجبروتا..

استوزر هارون الرشيد "يحيى بن خالد بن برمك" من الفرس، وعندما علم

بزواج ابنه "جعفر" من أخته "العباسة" قتله، ومثل بجثته، وأودع يحيى، وولده "الفضل" السجن..

يروى صاحب الأغانى عن هارون الرشيد:

-"كان الرشيد من أغزر الناس دموعاً فى وقت الموعظة، وأشدهم عسفاً فى وقت الغضب، والغلظة"..

وعنه يقول د. أحمد أمين فى ضحى الاسلام:

-"إنه كان يصلى فى اليوم مائة ركعة، ويسفك الدم لشئ لا يستحق سفك الدم"..

كان لدى هارون الرشيد ألفان من الجوارى، وقد اختص ثلثمائة منهن بالغناء، والضرب على آلات الطرب، وقد طرب ذات يوم فنثر ستة ملايين درهم على الحضور، وطرب فى يوم آخر فعين المغنى الذى أطربه والياً على مصر..

وقد اشترى جارية بمائة ألف دينار، وأخرى بستة وثلاثين ألف دينار باتت عنده ليلة واحدة، ثم أهداها إلى أحد اصحابه، ومن هنا يمكننا حساب الثروة الطائلة التى لديه من الجوارى التى يتسرى بهن، والأمة تتضور جوعاً..

كان الامام "الشافعى" يعمل فى وظيفة لدى الدولة العباسية فى اليمن، ويميل الى الطالبيين من أنصار علىّ بن أبى طالب؛ فوشى به الوالى الى الخليفة هارون الرشيد؛ فجىء بالشافعى مقيدا بالقضبان، والسلاسل فى رجليه، ورقبته من اليمن الى بغداد بأمر الخليفة حتى نال منه التعب، وطول السفر، وكان معه بضعة عشر متهما آخرين مقيدين مثله؛ قتلهم الخليفة هارون الرشيد جميعا؛ لأنهم خارجون على الخلافة، فلما قدم الشافعى ليلقى نفس المصير قال:

-السلام عليك يأمير المؤمنين، وبركاته..

فرد هارون:

- وأين رحمة الله؟.. قال:

- عندك ياأمير المؤمنين.. فعفا عنه..

خلف الرشيد لأبنائه أكبر قدر من الأموال فى بيت المال الخاص به

مامقداره ٤٨ ألف ألف(مليون) دينار، حيث كان بيت المال مباحا فى عهد خلفاء بنى أمية، وبنى العباس كأنه ملك خاص لهم على الرغم من وجود بيتين للمال، أحدهما بيت المال العام، والثانى بيت المال الخاص، وكثيرا ماكانت تحمل الأموال العامة الى بيت المال الخاص، وكانت الأموال تجمع فيحمل منها القليل الى بيت المال العام، والأضعاف المضاعفة الى بيت مال الخليفة، عدا نفقات الخليفة، ومعيشته، وهباته، وعطاياه التى كانت تدفع عادة من بيت مال المسلمين..

جدد الرشيد فى طوس(خارج بغداد) الوصاية بالبيعة لابنه "المأمون" بعد ابنه "الأمين"، ولكن الأمين خالف الوصية بتحريض من أمه "زبيدة"، وأعوانه فاضطر المأمون الى خلع الأمين من الخلافة، وجهز لقتاله جيشا بقيادة "طاهر بن الحسين"، فسار اليه، وحاصره ببغداد فى عدة معارك تراشقوا فيها بالمنجنيق، وعظم الأمر، واشتد البلاء حتى خربت منازل المدينة، ووثب العيارون، والشطار(البلطجية، واللصوص) على أموال الناس فانتهبوها..

قام الحصار على الأمين مدة سنة حتى ضاق عليه الأمر، وفارقه أكثر أصحابه، وكتب طاهر الى وجوه بغداد سرا يعدهم ان أعانوه، ويتوعدهم اذا خذلوه، فأجابوه، وصرحوا بخلع الأمين، ولما تفرق عنه من معه حاصره طاهر حتى كاد يموت جوعا، وعطشا، فكتب الى نائب الجيش يستأمنه ليأتيه، وخرج الأمين راكبا حراقة(زورق) فرماها طاهر بالحجارة فغرقت، وسبح الأمين الى بستان فأدركوه، وأخذوه محمولا على برذون(حمار صغير) الى طاهر الذى بعث اليه جماعة لقتله، فهجموا عليه وبأيديهم السيوف؛ فاعتلوه، وذبحوه من قفاه، واحتزوا رأسه، وأتوا بها طاهرا، فأرسلها طاهر الى المأمون ومعها خاتم الخلافة، وبردة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقضيبه، فلما وضع الرسول الرأس بين يدي أخيه المأمون خر ساجدا شكرا لله، وأمر له بألف ألف درهم(مليون)..

ومن مساخر الخلفاء تحكى "زبيدة" زوجة الرشيد، وأم الأمين عن أم المأمون "مراجل"، وكانت عربية، وأم المأمون فارسية سوداء:

-"لعبت يوما مع أمير المؤمنين الرشيد بالشطرنج على الحكم، والرضا فغلبنى،

فأمرنى أن أتجرد من أثوابى، وأطوف القصر عريانة، فأستعفيته فلم يعفنى، فتجردت من أثوابى، وطفت القصر عريانة وأنا حنقة عليه، ثم عاودنا اللعب فغلبته، فأمرته أن يذهب الى المطبخ فيطأ أقبح جارية، وأشوهها خلقة فيه، فاستعفانى من ذلك فلم أعفه، فبذل لى خراج مصر، والعراق فأبيت، وقلت:

-"والله لتفعلن ذلك"..

فأبى، فألححت عليه، وأخذت بيده، وذهبت به الى المطبخ فلم أر جارية أقبح، ولاأقذر، ولاأشوه خلقة من مراجل أم المأمون، فأمرته أن يطأها فوطئها فعلقت منه"..

روى ابن عبد ربه فى العقد الفريد أن مغنياً أطرب الأمين ببعض أبيات من الشعر النواسى الرقيق فى التغزل بالغلمان فوثب عليه من مجلسه، وركب على المغنى، وأخذ يقبل رأسه ثم أمر له بجائزة، فقال المغنى مندهشاً:

-"يا سيدى لقد أجزيتنى إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم".. فأبدى الخليفة استصغاراً لهذا المبلغ البالغ عشرين مليون درهم وقال:

-"وهل ذلك إلا من خراج بعض الكور"..

هؤلاء هم الخلفاء الذين نهبوا الناس، واسترهبوهم بالخلافة ليضيعوا ما جمعوه على الملذات، والجوارى، والغناء الذى يحرمه فقهاء الخلافة على العامة المنهوبين من خلفائهم، ولايحرمونه على الخلفاء الماجنين، ولم يستنكروه..

أما الخراج الذى يبذله الخلفاء لمن يرضون عنه فى اللهو، واللعب، والغناء، والرقص فيصف أبو يوسف قاضى بغداد فى عهد الرشيد، ومؤلف كتاب الخراج طريقة جباية الخراج، والعاملين عليه لدى الخلفاء:

-"فإنه بلغنى أنهم يقيمون أهل الخراج فى الشمس، ويضربونهم الضرب الشديد، ويعلقون عليهم الجرار، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة، وهذا عظيم عند الله، شنيع فى الاسلام"..

هكذا الخلفاء، وحياة الخلفاء، ويشرح أبو يوسف فى نفس الكتاب طريقة الجباة فى جمع الخراج الذى ينعم به الخلفاء، والرعية تتضور جوعا، وحسرة بأن

جابى الخراج يستعين بمعاونين يضربون الناس، ويبرحونهم، ويصفهم بأنهم ليسوا أبراراً، ولا صالحين فيستلون من الخراج(يسرقون)، ومن لم يدفع جاءوا به فيضربونه، ويسوقون بقره، وغنمه، ولايفعلون ذلك إلا مع الضعفاء من المزارعين الأشقياء بالأعمال طوال العام..

والخلفاء يطربون، ويشربون، ويعتلون الغلمان، والجوارى على شرف الخلافة الرشيدة التى ابتدعوها لإذلال المسلمين بإسم الاسلام، ولايرى الفقهاء لهم سوى السمع، والطاعة، ومن خرج عليهم فقد شق عصا المسلمين، يروى عن النبى أنه قال:

- "لا تسبوا الولاة، فإنهم إن احسنوا كان لهم الأجر، وعليكم الشكر، وإن أساءوا فعليهم الوزر، وعليكم الصبر، وانما هم نقمة ينتقم الله بهم ممن يشاء، فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية، والغضب، واستقبلوها بالاستكانة، والتضرع"، ولم يكتفوا بحديث النبى كى يستكين الناس للولاة، ولكنهم اقتربوا أكثر نحو الله فدسوا عنه - تعالى - حديثاً قدسياً رواه الطبرى عن أبى الدرداء عن النبى يقول:

- "أنا الله لا إله إلا أنا، مالك الملك، وملك القلوب، قلوب العباد بيدى، وأن العباد إذا أطاعونى حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة، والرحمة، وإن العباد إذا عصونى حولت قلوبهم عليهم بالسخط، والنقمة، فساموهم سوء العذاب، ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر، والتقرب أكفكم ملوككم"..

وكان ابن عباس يسمع أحاديثا فيثور لها، ويوصم قائليها بالجهل، والكذب، وكذلك فعلت عائشة رضى الله عنها، وفى هذا قال ابن عباس عن هؤلاء الناس فى كل زمان، ومكان:

- "كلما لعق أحدهم من الاسلام لعقة ذهب يقول حدثنى رسول الله، فوالله ماحدثه رسول الله بشىء، ولاهو ممن يفقهون حديثا"..

وهذا يناقض انتقام الله سبحانه وتعالى من فرعون، والنمرود، ولم يطلب من بنى إسرائيل، وإبراهيم الدعاء عليهم حتى يهلكهم، ولكنه هو الذى أهلكهم

بظلمـهم، والا فـان من وضع الحـديث يتـهم الله تعـالى بالرضـا على الظلم، والاغتباط بظلم الراعى لرعيته لكى يكونوا مضطرين لعبادته، والا سلطه عليهم، وهو تعالى الذى خلق الانسان مختارا فى كل شىء..

يقول بعض الصالحين:

-"إن المؤمن لا يشعر بفقر، أو حاجة، فإيمانه يسمو به عن الشعور بمثل هذه السفاسف".. ويقول أبو ذر الغفارى:

-"عجبت لمن لا يجد القوت فى بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه".. ويقول أيضا:

-"إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر: خذنى معك".

ولكن منهم من نظر فيما آلت اليه أحوال الرعية من بؤس، وشقاء، فاعتبر طاعة الخليفة الظالم لونا من النفاق يجب أن يبرأ منه المؤمن؛ فقد تأثر الامام "أحمد بن حنبل" بقصة حدثت لشيخه "عبد الله بن المبارك" الفقيه الغنى الزاهد وهو فى طريقه الى الحج حيث مر بمزبلة قوم رأى عندها فتاة تأخذ منها طيرا ميتا، وتلفه فسألها عن أمرها فقالت:

- أنا وأخى هنا ليس لنا شىء الا هذا الازار، وليس لنا قوت الا مايلقى على هذه المزبلة، وقد حلت لنا الميتة منذ ثلاثة أيام(أى الجوع اضطرهما الى أكل الميتة)، وقد كان أبونا له مال فظلم، وأخذ ماله، وقتل، فقال بن المبارك لوكيله:

- كم معك من النفقة؟.. قال:

- ألف دينار.. فقال:

- عد منها عشرين دينارا تكفينا الى مرو، وأعطها الباقى، فهذا أفضل من حجنا هذا العام..

فما كان أحمد يذكر هذه القصة الا وهو يبكى فما فتواه اذن بوجوب طاعة خليفة ظالم؟..

أيطاع خليفة يظلم رجلا فيقتله، ويستولى على ماله، ويترك أبناءه جياعا ينقبون فى المزابل عن الطعام، فلايجدون الا الميتة؟..

وماجدوى العلم، والفقه؟..

ومالاسلام اذا كان على الأرض من يأكل من المزابل، وفى الأمة مسلمون يملكون الآلاف المؤلفة، وفيها علماء يمجدون الفقر، ويبررونه للناس باسم الزهد، ويكنزون الذهب والفضة كالخلفاء، والأمراء؟..

كانت الدولة العباسية فى أوج قوتها، واستقرارها فتفرغ المأمون للعلوم، والفلسفة، والأدب، وعقد المجالس للمناظرة فى الأديان، والمقالات، وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف المعتزلى الذى كان يقول بخلق القرآن فانحاز له المأمون، وحمل الناس على القول بخلق القرآن، وامتنع عنه الامام أحمد، ومن تبعه من أهل السنة الذى قال أن القرآن كلام الله..

فلاشك أن الجانب النظرى فى علم الكلام(الفلسفة الاسلامية) مثل البحث فى قضايا لاتهم ايمان، وقلب الأمة فى شىء كالعلاقة بين الله، والعالم، والأسس النفسية، والفلسفية لقضية النبوة، وطبيعة الانسان، وماهيته، ومصيره انما ينبع أساسا من الفترة التاريخية التى أفرزت هذه الأفكار، وهذه الفلسفات من انفتاح على العالم، وبما جلب هذا العالم على المسلمين من خيرات الأرض، والسماء، فكانت الكتب، والثقافة، والأفكار من هذه الخيرات، فكما جعلت هذه الخيرات المادية الأمة الاسلامية فى ترف مادى جعلتها هذه الأفكار، والفلسفات أيضا فى ترف فكرى؛ فكان ازدهار الفلسفة الاسلامية فى فترات الترف، والراحة، فتجعل الذهن يوجه الأفكار الى المالانهاية، واللامعقول، واللاواقع..

وبدا ذلك فى انشغال علماء الأمة بألوان الترف العقلى، فعكفوا على البحوث الفلسفية، والنظرية، والفرعية بما لايضير الحكام، والخلفاء، واكتفوا بدراسة آراء الاسلام فى الحكم، والمال، وأصبحت مجالس الفقه، وندوات العلم تطرح مسائل صفات الله، وعلاقتها بالذات الالهية، والجبر، والاختيار، وانصرف الناس عن العناية بالقرآن، وتدبر آياته، وفهم الأحكام، وتحرى مقاصد الشريعة بما يضبط معاملات الناس، وسيرتهم فى دينهم، ودنياهم، وانصرف العلماء، والفقهاء - الا قليلا - الى مناقشة صفة القرآن الكريم أقديم هو، أم مخلوق؟..

جدل نهى عنه الصحابة، وانصراف عن مصالح الناس، والعباد، ومباحث ما

كانت لتشغل حلقات العلم، والفقه من قبل؛ بل كانت تعرض لتختفى، وهاهى تسيطر على العقول، والقلوب، وواكب هذا دعوة ملحة للناس الى الزهد فيما أحله الله لعباده، وحض الناس على القناعة بالفقر ليكنز الكانزون، ويستمتعوا دون الرعية حتى بما حرم الله..

لايريد ولاة الأمور أن يكون للفقه شأن بأحوال الرعية ليقيم العدل، ولكنهم يشجعون الزهاد لتمجيد الفقر، وكأن الاسلام دعوة الى الفقر، ويحضون أهل العلم للانصراف عن الواقع لما وراء الواقع، وعن قبل الحياة، ومابعدها حتى لايحاسب أحدهم الرعاة، والحكام على ماارتكبوه فى حق الرعية، ومافرطوا فيه من واجب نحوهم، ووقع أهل العلم فى الفخ..

وكان من أسباب ذلك بطش الرشيد بكل معارضيه، ولازالوا تحت الأصفاد فى كهف سحيق، وامتد ذلك الى العلماء فكادوا لمخالفيهم فى الرأى عند المأمون الخليفة الذهبى، ومن ناحية أخرى ترك الرعاة، والحكام أراذل البشر من مدعى العلم، المصابين بالهوس الدينى يشيعون الرعب فى الرعية؛ فكتب ابن الأثير عن نفر من أتباع الامام أحمد بن حنبل سنة ٣٢٣هـ:

-"وفيها عظم أمر الحنابلة، وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون الدور فان وجدوا فيها نبيذا أراقوه، وان وجدوا مغنية ضربوها، وكسروا آلة الغناء، واعترضوا فى البيع والشراء، ومشى الرجال مع النساء، والصبيان فاذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن التى معه؛ من هى فأخبرهم والا ضربوه، وحملوه الى صاحب الشرطة، وشهدوا عليه بالفاحشة فأزعجوا بغداد"..

ولكن الامام أحمد كان بريئا من هؤلاء، وأولئك، ورأى أن انشغال المسلمين بهذه الأمور ترفا يصلح أن يتلهى به الخلفاء، والأغنياء فى قصورهم، فلايعنيهم العدل، وقد تؤذيهم اقامته، وانشغال الأمة بهذا الجدل اقصاء للفقه عن شئون الحياة، ومجافاة لمقاصد الشريعة، ومصالح العباد فى استنباط الأحكام، والضوابط ليظل الخلفاء، والأمراء على ماهم فيه من ظلم، واستبداد، ولتظل الرعية البائسة مشغولة بالبحث عن الطعام وسط مزابل، وسراديب الحياة..

وتشيع كل حزب لأفكاره، ومعتقداته، وانقسمت الأمة، والخليفة الجديد

يدرك كل هذه الأخطار، ويتوقع تألب أعداء الأمة عليها، وتصدق توقعاته فى تحركات الروم على أطراف الدولة، فيتأهب المأمون للقاء العدو، ويخرج الى طرطوس ليداهمه المرض، ثم يشتد عليه المرض حتى كان يفقد الوعى لفترات طويلة، ولم يفلح معه الطب فترك أمر هذه القضية لامام المعتزلة "أحمد بن أبى دؤاد" فجعلها قضية يلوى بها أعناق العلماء، والفقهاء، والقضاة بعد أن انتهز أهل السنة مرض الخليفة، وغيابه عن بغداد ليشعلوا الفتنة ضده فكفروا كل من قال بخلق القرآن، وعلى رأسهم الخليفة نفسه، حتى أن يحيى بن أكثم من كبار شيوخ أهل السنة، والرجل الأول فى قصر الخليفة مااستطاع اسكات أصحابه، ومن ناحية أخرى كفرهم المعتزلة؛ فان لم يكن القرآن مخلوقا وكان قديما فهو اذن شريك لله، وهذا شرك..

وضعت الأصفاد، والأغلال على الامام أحمد وحمل على دابة، وسيق به من بغداد الى طرطوس لمقابلة الخليفة، وعندما اقترب من طرطوس ترامت اليه الأنباء بموت الخليفة، فأعيد الى بغداد معززا مكرما..

ثم تبعه "المعتصم" من بعده فيما يقول به المعتزلة رغم كونه أميا لم يتعلم، وهو ابن جارية تركية، وربما اختاره المأمون ليقطع به الخلاف بين الناس، واستمر أحمد بن دؤاد فى بلاطه فاستصدر أمرا بحبس أحمد بن حنبل فى السجن الكبير ببغداد، وانشغل عنه المعتصم بتوطيد أركان الدولة، وتمكين أخواله من الأتراك فمكث ابن حنبل فى السجن شهورا طوالا، حتى اذا استأنس به من بالسجن نقله ابن أبى دؤاد الى سجن خاص، فى قبو بدار والى بغداد ليكون وحده، وضاعفوا له القيود، والأغلال، وأقاموا عليه سجانون غلاظ شداد من سفلة الأتراك المتميزين بالغباء، والجهل باللغة العربية حتى لايستطيع أحمد الكلام معهم فلايخرج الا لمناظرة العلماء لدى الخليفة، فلا يظفرون منه بشىء حتى هرع مريدوه الى دار الخلافة، وأوشكت الثورة أن تعم فى الناس لولا خروج الخليفة لجهاد الروم، فلعن الجمع، وأمر أن يعفوه من كل هذا حتى يعود، ولكنه أطلق سراح أحمد فأعيد الى بيته، ولزم داره مريضا منهكا بعد أن مكث فى سجن المعتصم نحو عامين ونصف العام، وخرج المعتصم الى الروم، وانتصر

عليهم، وفتح عمورية..

وقد عرف المعتصم بالثمانى لخلافته التى استمرت ثمانى سنوات، وثمانية أشهر، وثمانية أيام، وترك من الذهب مايقدر بثمانية آلاف دينار، ومن الدراهم ثمانية عشر ألف ألف(مليون) درهم، ومن الخيل ثمانية آلاف فرس، ومثلها من الجمال، والبغال، ومن المماليك ثمانية آلاف مملوك، وثمانية آلاف جارية..

ومن معاناة الامام أحمد فى دولة الخلافة الى معاناة مالك، وأبى حنيفة، والشافعى وغيرهم من العلماء زمن الخلافة يروى الامام الشافعى أنه عندما كان بالمدينة المنورة كان هناك واليا صالحا طيبا فقال:

- مالى لاأرى الناس يجتمعون على بابى؛ كما يجتمعون على أبواب الولاة؟.. فقالوا له:

- لأنك لاتضرب أحدا، ولا تؤذى الناس..

فقال هكذا.. علىّ بامام المسجد، فأحضروا له امام المسجد، وأمسكوا به على باب الوالى، وجعل الوالى يضرب الامام، والامام يصرخ:

-أصلح الله الأمير أى شىء جرى؟.. وظل الامام يصرخ، والوالى يضربه حتى اجتمع الناس، فسرى عن الوالى، وطابت نفسه؛ فقد اجتمع الناس على بابه، وهى رواية تشى بسوء العلاقة بين الخلافة، ورجال الدين الاسلامى الذى كان دين الدولة، والخلفاء، فكيف كان حال معتنقى الأديان الأخرى؟.. ولم يحظ هؤلاء بحسن المعاملة، والتوقير، والاحترام الا عندما نبذ المسلمون الخلافة، وعادوا الى القوميات التى جاءوا منها مرة أخرى، وهى سنة الله فى خلقه التى أنشأهم، واستعمرهم فى الأرض علي أساسها:

-"**وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عن الله أتقاكم**" الحجرات ١٣..

كان الخليفة "المتوكل" يبغض عليّا رضى الله عنه ويتنقصه، فذكره يوما، وغض منه أمام ابنه "المنتصر" الذى ساءه ذلك، وغضب من أبيه فشتمه المتوكل، فحقد المنتصر عليه، وأغراه ذلك على قتل والده المتوكل خاصة عندما علم بعزمه

على خلع ابنه المنتصر من ولاية العهد، مفضلا عليه ابنه المعتز لفرط حبه لأمه، وبينما كان فى قصره يشرب مع ندمائه ذات مرة حتى سكر؛ دخل عليه الغلمان الذين عينهم المنتصر لقتله، وبأيديهم السيوف مصلتة عليه؛ فلما هجموا عليه انصرف الندماء، وبقى وزيره "الفتح بن خاقان" الذى رمى نفسه عليه فقتلوهما معا، ثم خرجوا الى المنتصر، وسلموا له بالخلافة..

ولم تطل أيام المنتصر فى الخلافة أكثر من ستة أشهر، وعدة أيام اذ قتله أمراء الترك مسموما فى طعامه، وقيل دسوا له عند طبيبه بكيس فيه ألف دينار ففصده بريشة مسمومة..

تولى بعده "المستعين بالله" الذى كان كثير الجماع مغرما بحب النساء، فخلع نفسه من الخلافة، بعد أن أحل الناس من بيعته، وخطب "للمعتز بن المتوكل"، فنقل الى أحد القصور واعتقل تسعة أشهر، فدس له المعتز أحد الحجاب فقتله صبرا فى أول أيام شهر رمضان، وجى برأسه الى المعتز وهو يلعب الشطرنج فقال لهم دعوه حتى أفرغ من اللعب، ثم نظر اليه، وأمر بدفنه..

وماكاد المعتز بالله يكمل السنوات الخمس الا أشهرا حتى جاء اليه حاجبه "صالح بن وصيف" ومعه جماعة، فبعثوا اليه فى الخروج، فاعتذر بأنه تناول دواء، فأمر صالح بعضهم بالدخول اليه، فدخلوا، وجرّوه من رجله الى باب الحجرة، وأقيم فى الشمس الحارة وهو يرفع قدما ويضع أخرى وهم يلطمونه، ويلحون عليه بخلع الخلافة عنه، وهو يدفع عن نفسه، ويأبى أن يجيبهم حتى اذا مااشتدوا عليه أقر بخلع نفسه، ثم أخذه صالح ومنعه من الطعام، والشراب ثلاثة أيام، ثم أنزله فى سرداب مجصص أطبقه عليه حتى مات، وقيل بعد خلعه بخمسة أيام أدخلوه الحمام ومنعوه الماء حتى أصيب بالاعياء الشديد فأتوه بماء مالح وعندما شربه سقط ميتا..

بايعوا بعده ابن عمه "المهتدى بالله" فلما ولى الخلافة منع الملاهى، وحرم الغناء، والشراب، وأمر بابعاد المغنيات، وطرد الكلاب، والسباع، وأشرف بنفسه على الدواوين، وجلس الى الناس، وأزال المظالم، والمنكرات، وحسم الأمراء عن الظلم، واقتفى سيرة عمر بن عبد العزيز من بنى أمية ليكون مثله فى بنى

العباس، فلما تبرم منه "بابك التركى" أمر الخليفة بقتله، فهاج عليه الأتراك، ووقعت الحرب بينهم وبين المغاربة فقُتل أربعة آلاف من الجانبين، ثم خرج المهتدى وفى رقبته المصحف وهو يدعو الناس الى نصرته فانضم له المغاربة، وبعض العامة، ولكن الأتراك هزموهم، وجرح المهتدى والسيف فى يده فلما احتمى منهم فى احدى الدور تجمع الأتراك، وهجموا عليه، وأخذوه أسيرا، ثم حملوه على دابة، وأردفوا خلفه سائسا بيده خنجر حتى اذا دخل احدى الدور جعلوا يصفعونه، ويلحون عليه فى خلع الخلافة عن نفسه، وهو يأبى عليهم، ثم وطأه أحدهم وأخذ يركله فى مواضع جسمه الضعيفة حتى مات..

وكان "للمعتمد على الله" اسم الخلافة فقط، ولأخيه "الموفق" تدبير الملك حتى اذا مات قام بتدبير الملك بعده ابنه "أحمد"، فلاشأن للمعتمد بالخلافة؛ وغلب أحمد على عمه الخليفة كما كان أبوه غالبا عليه فاذا طلب الخليفة الشىء الحقير لا يستطيع اليه سبيلا الا اذا رضى عليه أحمد، وظل الخليفة على هذا الحال ثلاثة وعشرين سنة حتى شرب يوما شرابا كثيرا فتغشى ومات، وقيل مات مسموما فى وجبة من اللحم..

كان "المعتضد" يستفضل كل سنة من سنوات خلافته ألف ألف(مليون) دينار فى بيت ماله الخاص حتى صارت ٩ مليون دينار، وكان يريد أن تبلغ ١٠ ملايين ليجعلها سبيكة واحدة لولا أنه مات، فجاء ابنه "المكتفى" من بعده فبلغ بهم ١٤ مليونا، وعندما مات ترك ٢٥ مليونا(نصف ماترك الرشيد تقريبا) ليبدو لنا مقدار الثراء الذى كان عليه هؤلاء الخلفاء، والأمة فقيرة تشقى بالمرض، والجهل من أجل الخلافة، والخلفاء..

وكان الخليفة يرث مال الخدم، ومن لا ولد له من موالى أسرة الخلافة، ولما كان أصحاب هذه التركات من السادة، وذوى مناصب تدر الرزق الوفير فكم كان كم الأموال التى تصب فى جيب الخليفة، حتى جزية أهل الذمة كانت تحمل الى بيت مال الخليفة الخاص، باعتباره أميرا للمؤمنين لاالى بيت مال المسلمين الخالى الا قليلا..

تولى "المقتدر بالله" الخلافة وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وخلع منها مرتين،

كان مسرفا مبذرا يدعو بالأموال فى مجلس لهوه حتى اذا وضعت بين يديه لعب بها، وبعثرها، ثم نثرها على الجوارى، والنساء حتى تنتهى، قالوا انه محق من الذهب مايساوى ثمانين ألف ألف(ملون) دينار، وفى يوم وثب الجند على وزيره "العباس" فقتلوه، ثم خلعوا المقتدر، وجاءوا "بالمرتضى بالله عبد الله بن المعتز" وبايعوه، فأمر المرتضى صاحب الشرطة بايداع المقتدر احدى الدور مع أمه، وجواريه فما أن وصل صاحب الشرطة مع أصحاب المرتضى الى دار المقتدر حتى خرج غلمانه عليهم، ورموهم بالحجارة، وجرت بينهم حرب شديدة انتهت بظهور غلمان المقتدر عليهم، فلم يتم للمرتضى أمر الخلافة غير يوم، وليلة عاد فيها المقتدر الى الخلافة، وظفر بالمرتضى ليلا فقتله خنقا، وقيل أن المقتدر أمر به فطرح على الثلج عريانا بينما المقتدر يشرب حتى مات المرتضى من شدة البرد..

بلغ "مؤنس" الخادم مقدم جيش المقتدر عزم الخليفة على اغتياله فهاجم مؤنس دار الخلافة فى اثنى عشر ألف فارس، ودخل الى المقتدر وقبض عليه، وعلى والدته، وحملهما الى قصره، ونهب الجند دار الخلافة، وخلع المقتدر نفسه من الخلافة، وكتب بذلك الى الآفاق، ثم عاد وأعلن وزيره "ابن مقلة" عودته الى الخلافة؛ فقامت الحرب بين المقتدر وبين مؤنس الخادم حتى أحاط به جماعة من البربر فقتلوه، وأخذوا رأسه، وسلبه، وثيابه، وسلموها لغريمه مؤنس الخادم، ثم مر رجل من الأكراد بجثة المقتدر فستر عورته، ودفنه، وأخفى أثره..

قام بالأمر بعده أخوه "محمد القاهر بالله" وكان أهوج طائشا سفاكا للدماء، يدمن السكر، وكانت له حربة يأخذها بيده فلا يضعها حتى يقتل بها انسانا، قبض على ابن أخيه "المكتفى" وأودعه بيتا سده بالأجر، والجص حتى مات، وقبض على أم المقتدر ظنا منه أن لديها أموالا طائلة فلما أخبرته أنها لاتملك مالا ضربها بيده، وعذبها، وعلقها منكسة حتى سال بولها على وجهها، وماتت، وفى يوم شغب عليه الجند، وهجموا على داره من سائر الأبواب فهرب الى سطح حمام، ثم استتر فيه، ولكنهم جاءوه، وقبضوا عليه، وحبسوه، وخلعوه من الخلافة بعد أن سملوا عينيه، وتركوه يتسول الناس فى الطرقات، والمساجد..

تولى الأمر بعده "أبو العباس الراضى بالله" فأطلق من حبسهم القاهر، ثم استدعى الأمير "محمد بن رائق" من "واسط" فجاء الى بغداد، وجعله "أمير الأمراء"، وفوض اليه تدبير المملكة، ومن ذلك اليوم بطل أمر الوزارة فى بغداد، ولم يبق منها الا الاسم، وصار الحكم للأمراء، والملوك المتغلبين فى أنحاء الممالك الاسلامية؛ فقسموا المسلمين كل فى رقعته التى ملكها:

- فالبصرة، وواسط، والأهواز فى أيدى عبد الله البريدى، وأخويه..
- وفارس فى يد البويهيين..
- والموصل، وديار بكر، وديار ربيعة، وديار مضر فى أيدى بنى حمدان.. - ومصر، والشام فى أيدى الاخشيديين، ومن بعدهم المهديين..
- والمغرب، وأفريقيا فى أيدى المهديين..
- والأندلس فى أيدى بنى أمية..
- وخراسان، وماوالاها فى أيدى السامانيين..
- واليمامة، وهجر، والبحرين فى أيدى القرامطة..
- وطبرستان، وجرجان فى أيدى الديلم..

ولم يبق لدى الراضى العباسي سوى بغداد وماوالاها، فبطلت دووين الخلافة، وتناثرت هيبتها أدراج الرياح، ثم تولى "المتقى بالله" بعد موت أخيه، ورضى بلقب خليفة دون الحكم الذى تركه للأمير "حكم التركى"، الا أن اللقب - وهو أضعف الايمان - لم يهنأ به كثيرا اذ استولى "نوروز" على بغداد، وخلع المتقى، وسلمه لابن عمه "المستكفى بالله" الخليفة الجديد فأخرجه من بغداد بعد أن خلعه من الخلافة، ثم خلع المستكفى على نوروز، وفوض اليه أمور المملكة، حتى دخل البويهيون بغداد فخلع على الأخوة بنى بويه "معز الدولة"، و"عماد الدولة"، و"ركن الدولة"، وفوض الى معز الدولة ماوراء بابه، وضرب العملة باسمه، وأمر أن يخطب له على المنابر..

الا أن معز الدولة خلعه عندما دخل على المستكفى بحجة أن هذا المستكفى بالكرسى دون الحكم دبر لقتله فقبل الأرض بين يديه، ثم قبل يديه، فطرح له

كرسى وأجلسه، ثم دخل رجلان من الديلم، ومدا يديهما الى المستكفى فظن أنهما يريدان تقبيل يده، فلما مد يده اليهما جذباه من فوق سريره، ولفا عمامته حول عنقه، ثم سحباه الى معز الدولة، فأمر باعتقاله، ثم خُلع، وسُملت عيناه، وأغُلقت دار الخلافة، وتوالى خلفاء بنى العباس الذين فقدوا بغداد التى قنعوا بها من قبل، ولكن الملوك المتغلبين لم يتركوها لهم بعد أن دخلوها عليهم، واستخدموهم فقط فى اثبات شرعية حكمهم أمام المسلمين الذين تاهوا بين الملوك، والسيوف التى أصبحت شريعة الحكم، وظل الحال فى بغداد كما هو الا من استبدال السلجوقيين بالبويهيين..

أما المستعصم آخر الخلفاء فكان وزيره ابن العلقمى شيعيا ببغداد التى تنافس فيها الشيعة، والسنة؛ ومنهم الحنابلة، وأهل المذاهب الأخرى، غير أهل الدعارة، والفساد؛ فضاقت الحال على الخليفة الذى أسقط أرزاق الجند، وفرض أرزاق الباقين على البيعات، والأسواق، وفى المعايش فاضطرب الناس، وضاقت الأحوال، وعظم الهرج، ووقعت الفتن..

وفى عام ٦٥٤هـ وقع الاضطراب فى محلة الكرخ فنتج عنه ازهاق الكثير من أرواح أهلها، وسبى نساءها، ونهبت دورها، وثرواتها من الشيعة، وهم أقارب الوزير ابن العلقمى..

■■■■■

الخلفاء الأتراك:

كان مصرع "مراد الأول" فى معركة "حقل كوسوفو" سنة ١٣٨٩م رغم ماكان يحيط به من آلاف الانكشارية مدعاة لطرح مسألة وراثة العرش فى أرض المعركة؛ فاجتمع مجلس حاشية السلطان الراحل فورا، وأصدر قرارا بتسليم السلطة لابنه "بايزيد الأول"، ولما كان أخوه الأكبر "يعقوب خان" أحق منه بالخلافة فقد استدرجوه من أرض المعركة الى خيمة أبيه المتوفى، وقُتل غيلة ليأمن بايزيد منازعته الخلافة؛ وعندما لامه رجال البلاط، بعد المعركة قال لهم:

-"ان أمير المؤمنين الذى هو ظل الله فى أرضه يجب أن يكون واحدا فى الأرض

كما أن الله واحد فى السماء"..

ومنذ ذلك الوقت أصبح تخلص الخليفة من أخوته عادة لم يبطلها الا السلطان "عبد المجيد خان"..

بلغ أسراه فى معركته مع البلغار سنة ٧٩٦هـ - ١٣٩٤م عشرة آلاف أحضروهم اليه فذبحهم جميها أمام وجهاء البلغار الذين تركهم ليصابوا بالرعب منه، ويستفيد منهم فى دفع الفدية..

ألقت انتصارات "تيمورلنك" المغولى المسلم الرعب فى قلوب العثمانيين نظرا لقسوته فى معاملة أسراه، فعندما افتتح "سيزاوار" بنى فيها برجا من أجساد المحاربين، وأخذ ألفين من رجاله الأحياء فوضع بعضهم فوق بعض كالحجارة، وبنى فوقهم بالطين..

وعندما حاصر تيمورلنك مدينة "سيواس" سنة ١٤٠٠م لمدة ثمانية عشر يوما، وتم التسليم من أهلها على شروط المعاهدة التى وعد تيمورلنك بموجبها عدم سفك دماء المحاصَرين، أما المقاتلون الذين كانوا يدافعون عن المدينة أثناء الحصار فقد أمر بدفنهم أحياء، وأخذ فرسان الأرمن فوضع رؤوسهم بين أرجلهم؛ وألقى بهم فى خنادق واسعة وردمهم بالتراب، وهدمت سيواس كلها بعد أن أسر نساءها ورجالها..

وعلم تيمورلنك بخروج جيش المماليك الى "مرج دابق" بالقرب من حلب فلاقاهم بجيوشه، وهزمهم شر هزيمة فهرب قائد جيش المماليك وانضم أفراد الجيش المملوكى الى جيشه ثم اتجه نحو أسوار "حلب" فحاصرها، ثم استولى عليها وذبح أغلب أهلها ثم استولى على "حماة"، وكان حريصا أثناء مروره "بحمص" على زيارة أضرحة صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم..

فى سنة ٨٠٣هـ - ١٤٢٠م نشب قتال بين بايزيد، وتيمورلنك انهزم فيه بايزيد، وأسر وهو يهرب من أرض المعركة بعد أن سقط عن ظهر جواده، فمات بعد ثمانية أشهر..

بعد هزيمة بايزيد، وموته انشطرت الدولة العثمانية بين أبنائه "سليمان"

و"موسى"، و"محمد"، و"عيسى"، فدب النزاع بينهم على السلطة فى الشطر الأوروبى من الدولة، اذ عبر موسى الدانوب فى منطقة "سيليستريا" وجمع الكثير تحت رايته فاتجه نحو "أدرنة"، وقرب "صوفيا" استطاع هزيمة جيش أخيه سليمان الذى لاقاه هناك، ثم استأنف سيره نحو أدرنة بعد انحياز أحد أغوات الانكشارية العلنى له؛ فانحاز له كل الانكشارية المتبقيين من جيش سليمان الذى اضطر الى الهرب الى "القسطنطينية" مع بعض المخلصين له من رجاله، ولكنه قُتل فى الطريق من المطاردين له بايعاز من أخيه موسى ويقال ان الانكشارية ثاروا، وتمردوا عليه فقتلوه، فانتقم منهم أخوه موسى، وأحرق منهم الكثير..

استقر الأمر لموسى الذى تحول الى الكيد لأخيه محمد خان، فتقاتل معه فى "ساموكوف" على سهل بالقرب من قرية تشامورلو فى تموز من سنة ١٤٢٣م حيث حارب ببسالة، وقتل بسيفه الكثير ولكنه قُتل من أحد انكشاريه، ويقال انه هرب من المعركة فأدركه المطاردون وخنقوه، وبموته هدأت الفتنة فى البيت العثمانى، واستقر لمحمد خان كرسى السلطنة سنة ٨١٦هـ..

عقب موت "محمد الفاتح" تولى ابنه "بايزيد الثانى" فنازعه أخوه "جم" بأن جرد فرقة من الجنود التقى بها بانكشارية أخيه السلطان بايزيد فى معركة دموية انتهت بانتصاره فدخل المدينة ونودى به سلطانا عليها، وأمر خطباء المساجد بالخطبة باسمه، فلما علم بايزيد نزل مع جنوده للحرب ضد أخيه فى سهل "يكى شهر" حتى هزمه فهرب جم حتى التقى بجماعة من التركمان سلبوا ثيابه، وجردوه من سلاحه، فاستعار ثوبا من وزيره، وسار الى مصر فلما وصل اليها تلقاه "جركس قايدبك" وأكرم وفادته، فمكث فى مصر أربعة أشهر..

ثم توجه الى جزيرة "رودس" فأكرموا وفادته، فأرسل أخيه السلطان الى حاكم رودس يحذره بأنه لو أراد استمرار الصلح فعليه تسليم أخيه جم، فرفض الحاكم تسليمه، وخوفا من غضب السلطان أرسله على احدى المراكب الى "نيس" من أعمال ايطاليا، ومنها انتقل الى "روسليون" من أعمال فرنسا، وهناك طلبه البابا "اينوشنسيوس" من امبراطور فرنسا حتى يأمن غارات العثمانيين على ايطاليا؛ فظل هناك الى عهد البابا "اسكندر السادس" ولكنه توفى فى "نابولى"

مسموما..

كان "بايزيد الثانى" مريضا فى أواخر عهده، ولم يعد بمقدوره قيادة الكفاح العسكرى ضد دسائس الشاه الصفوى "اسماعيل" عدو العثمانيين، فسعى ابنه "سليم" الى جذب القمة العسكرية اليه حيث كان يتولى محافظة "طرابزون" وكان مطلعا على الوضع الداخلى للأناضول فى منطقة نفوذ اسماعيل الصفوى، وفى البلاط السلطانى من يؤيد ولاية سليم للعرش بعد أبيه المريض ، ولكن "أحمد" الابن الأكبر لبايزيد أحق، ولكى لايخرج زمام الأمور من يد بايزيد عقد اجتماعا مع كبار رجال الدولة صوتوا فيه على اعلان أحمد سلطانا..

كان الانكشارية الى جانب تنصيب سليم بدلا من أخيه أحمد بعد أن وعدهم بتنظيم حملة ضد الشراكسة(سلاطين المماليك فى مصر، والشام)، وأنه سيسلب منهم المدن العربية التى يتولون حكمها، وسيجرد حملة استعمارية ضد الشاه الصفوى، وأقسم لهم أنه لن ينقطع لحظة عن الحملات العسكرية حال استلامه السلطة، فاتهموا أحمدا بالضعف - على غير الحقيقة - وعدم صلاحيته للسلطنة، واقترحوا تنصيب سليم بدلا منه فلما علموا بتنصيب أحمد قاموا بنهب المدينة، وهجموا على بيوت أنصاره ثم جاءوا صباحا الى قصر السلطان، وطالبوا بعزل بعض الكبراء، والوجهاء ممن لايرضون عنهم، وتربصوا بالموانىء لمنع أحمد من القدوم الى العاصمة..

اقترح رجال الدولة على بايزيد ارسال سليم ابنه فى حملة لاخماد فتن الشيعة، فوافق السلطان، ووافق سليم على القيام بالحملة، وعندما هم بالخروج بجيشه من العاصمة رفض الانكشارية قرار السلطان، وأصروا على تولى سليم السلطة فى الحال، وبعدها ينطلقون فى حملتهم الى الأناضول لمحاربة الشيعة، فرفض السلطان تسليم السلطة فى حياته لأى من أولاده، ووجه رجاله للتفاوض مع الانكشارية، ولكنهم رفضوا التفاوض معهم حتى لو أمر السلطان باعدامهم، ونصحوه بتلبية رغبة الانكشارية خوفا من تمردهم، فرضح السلطان، وتنازل عن العرش..

عندما تولى الأمر سليم الأول بن بايزيد نازعه الحكم ابن أخيه "علاء الدين"

الذى دخل "بورصا" فاتحا، وفارضا على أهلها الجزية الباهظة، فخرج اليه سليم برا، وبحرا بعد أن خلف ولده "سليمان" على كرسى الحكم، فنهض أخوه "أحمد" – والد علاء – واستولى على "أماسيا" فقلده أخوه "مصطفى" تخت الوزارة، فلما أرسل سليم بعض الخيالة لاختطاف حرم أخيه مصطفى صادفهم أخوه أحمد فى الطريق، فخلص منهم حريم أخيه مصطفى، وأسر خيالة سليم، فلما علم سليم بذلك تملكه الغيظ، والغضب؛ ولكنه تجلد حتى تمكن من قتل سائر أخوته مع أولادهم؛ فتواردت اليه التهانى من جميع الدول ماعدا اسماعيل شاه العجم لأنه كان متحزبا لأخيه أحمد، كما حمى لديه بعض أولاد أخوته، وحرض والى مصر على مناهضة العثمانيين فحاربه سليم، وتخلص منه..

ولعدم تكرار صراع الأخوة من أبنائه على السلطة أمر سليم الأول باعدام ثلاثة من أولاده هم "عبد الله"، و"محمود"، و"مراد"، ولم يترك سوى سليمان الذى تولى العرش من بعده..

كان للسلطان "سليم الثانى بن سليمان" قبل جلوسه على العرش نديما يهوديا يدعى "زوسفنلسى" يعشق الخمر، ولاينقطع عن شربها فطلب من سليم الثانى ذات يوم أن يفتح جزيرة قبرص طمعا فى جودة خمرها؛ فوعده سليم بذلك فور جلوسه على العرش، بل وزاد فى وعده بأن يجعله حاكما عليها، فلما اعتلى سليم العرش سلطانا ذكّره اليهودى بوعده، فما كان من السلطان الا أن أعلن الحرب على قبرص، وساق لفتحها أسطولا بحريا قوامه ٣٦٠ سفينة، وتغلب عليها، وفتحها بعد حروب مضنية..

كان "لمراد الثالث" جارية من أهل البندقية فى ايطاليا، ارتقت فى حريم السلطان حتى صارت سلطانة؛ فما لبثت أن أصبحت هى المسيطرة على سياسة الدولة الداخلية، وتقمصت السلطة ثمانية وعشرين عاما تعين من تشاء، وتعزل من تشاء، وانتقلت السلطة فى القصر العثمانى بعدها لنساء القصر يدبرن الخلافة طيلة ثمانين عاما..

وفى عهد السلطان "عثمان الثانى بن أحمد" ثار عليه الانكشارية عندما بلغهم نية السلطان الخروج الى الحج، ومن المعروف أن سلاطين العثمانيين كانوا

لايخرجون للحج رغم أنهم خلفاء للاسلام، والمسلمين؛ لأن مناسك الحج تستغرق وقتا طويلا يؤدى الى ابتعادهم عن أعمال الدولة كل هذا الوقت، وقد أفتى بذلك شيوخ الاسلام التابعين للدولة بحجة أن أداء السلطان فى العاصمة، واشتغاله بأمور الدولة، والأهالى عبادة تفوق عبادة الحج، وقد أغلق السلطان عثمان هذا حانات الخمر، وكان يقتل من يصادفه ثملا من الانكشارية، والأهالى، وكان الكثير من الانكشارية يشربون الخمر، وقد رفض السلطان كل محاولات رجال الدولة لاثنائه عن الخروج للحج؛ فاستصدر الانكشارية فتوى من شيخ الاسلام "خوجة أسعد أفندى" تفيد أنه لالزوم لحج البادشاة(السلطان)، والبقاء فى مكانه، والحكم بالعدل أولى له من الحج حتى لاتكون فتنة، فحملوا الفتوى، واجتمعوا بها أمام سراى طوب قاى..

فما كان من السلطان الا أن مزق الفتوى، وألقاها فى وجوههم، وأصر على الذهاب للحج، وهدد بابطال الانكشارية، وابادتها، واستجلاب جندا من العرب فى الشام، ومصر تكون فى طاعته فيقطع بذلك نسلهم، ويزبل آثارهم، كما هدد بسحق هؤلاء العلماء المضللين، فانطلق العلماء الى مسجد السلطان أحمد وأخبروا زعماء الانكشارية، فاجتمعوا مع العلماء فى فسحة "آت ميدان" وأرسلوا الدفتردار الى السراى يطلبون من السلطان رأس الصدر الأعظم، وبعض الندماء، ورجال السلطنة فرفض السلطان طلباتهم، وزجرهم؛ فهجم بعضهم على السراى التى سجن فيها السلطان الذى كان قبله، ولكنه خلع بعد ثلاثة أشهر من تنصيبه لضعف عقله، وكان يدعى "مصطفى"، فأخرجوه من سجنه، ونصبوه على كرسى السلطنة بعد أن خلعوا السلطان عثمان الثانى، ثم طافوا به فى شوارع المدينة امعانا فى اذلاله، ثم أودعوه السجن مكان السلطان مصطفى، ولكنه قتل فى هذا السجن مخنوقا بطريقة مهينة بعد ذلك بأمر "داوود باشا" الصدر الأعظم سنة ١٠٣١هـ..

بعد تنصيب السلطان مصطفى عم الفساد، وكثر البلاء؛ وكانت السلطة الحقيقية فى يد الانكشارية، وقد تم خلعه قبل ذلك ولكن تدخل حريم القصر هذه المرة حسم الأمر لصالحه؛ فأصبحت السلطانة الوالدة نائبة السلطنة وقام

داوود باشا زوج أخت السلطان مصطفى بنهب سراى طوب قابى، وسرقة الخيول، والسيوف، والمقتنيات الأثرية الثمينة، وهدأ تمرد الانكشارية بتوزيع مليون ونصف المليون من العملات الذهبية هبة جلوس السلطان الجديد..

تجمهر جنود السباهية(الفرسان) أمام سراى الصدر الأعظم داوود باشا، ورددوا هتافات تحمله تبعة قتل السلطان عثمان الثانى، فأجابهم بأنه قتله بناء على أوامر السلطان مصطفى، وبعد فترة تجمهروا فى نفس الجامع الذى اقتادوا منه السلطان عثمان لقتله، وكتبوا الى السلطان مصطفى يستوضحونه اذا كان الأمر قد صدر منه فأنكر واتهم داوود باشا، ومن ساهم فى قتله مازالوا على قيد الحياة فليُقتلوا، فأسرعوا الى داوود باشا وقد حكموا عليه بالاعدام، فاقتادوه ولكنه أخذ يعترضهم ويؤكد لهم أن السلطان مصطفى هو القاتل وأظهر لهم خطا شريفا بذلك، فانعقد الديوان وقرر فى جلسته قتل داوود باشا وجميع من اشتركوا فى قتل السلطان عثمان، فقادوه الى السبعة أبراج، وأدخلوه الغرفة التى قتل فيها السلطان عثمان وجرعوه كأس الموت، ثم بحثوا عن شركائه فقتلوهم جميعا..

تقلد السلطان "محمد خان بن ابراهيم" سنة ١٠٥٨هـ وهو ابن سبع سنوات؛ فدبرت جدته ماهبيكر المعروفة باسم "كوسيم سلطان" أمور السلطنة فترة من الزمن، ثم انحرفت تصرفاتها وراحت تتلاعب بالأحكام حسب هواها ومصالحها، فأشار بعض رجال الدولة على السلطان بقتلها فأمر بذلك، ثم عين السلطان الطفل أكثر من مسئول بدلا منها لتسيير أمور السلطنة التى أشرفت على الاضمحلال، لولا أن قيد الله لها "طرخونجى أحمد باشا"، وابنه "أحمد" من بعده فحالا دون انهيار السلطنة..

ثار الانكشارية فى عهد السلطان "سليم الثالث بن مصطفى" فراحوا يثيرون الفتن، وعاثوا فى الأرض فسادا، وقتلوا بعض رجال السلطة الذين وافقوا السلطان على ادخال النظم العسكرية الحديثة فى السلطنة؛ فنادوا فى المدينة باسم السلطان "مصطفى الرابع"، وخلع السلطان سليم الثالث، وأرسلوا بذلك الى شيخ الاسلام الذى سار الى السلطان ليخبره بذلك، فماكان من السلطان الا أن

نزل عن كرسى السلطنة، وسار الى الحبس ليقضى فيه مابقى من عمره، ولكنه قُتل عند جلوس مصطفى الرابع الذى أشار بقتله فى سجنه، فنشط المفسدون، وأثاروا الفتن بين رجال الدولة بعد أن وجه السلطان الجديد عنايته نحو تنظيم الجندية، وتأديب الانكشارية، والحد من سلطانهم، فثاروا عليه عندما علموا بهذه الاجراءات، وخلعوه ثم حجروا عليه فى السجن حتى قُتل فيه بعد ثلاثة شهور..

قام "مصطفى باشا البيرقدار" الصدر الأعظم فى عهد السلطان "محمود الثانى بن عبد الحميد خان" بتنظيم الجند، وادخال النظم الحديثة الى الانكشارية حتى برعوا فيها، وقطع دابر مثيرى الفتن، وأعدم قاتلى السلطان سليم، ولم تمض ثلاثة شهور على ذلك حتى قام الانكشارية وأضرموا النار فى سرايته فأحرقوه فيها هو وعائلته، وراحوا يفتكون بكل مؤيدى النظام الجديد، ولما استفحل أمرهم جمع "قاضى باشا" العساكر الجديدة، وهجم بهم على الانكشارية بوابل من الرصاص فشتت شملهم، وسكن هياجهم..

وفى سنة ١٢٢٦هـ من حكم السلطان "محمود" تمرد "ابن سعود" فى الجزيرة العربية؛ وذلك باعتراض الحجاج، وقطع الطرق، وسلب المارة فكلف السلطان "محمد على" باشا والى مصر بتأديبه، فأرسل محمد على من حاربه، وقبض عليه، وأرسله الى الأستانة حيث حُوكم، وقُتل..

وفى سنة ١٢٣٧هـ ثار "الأروام" على مسلمى "المورة" باليونان؛ فأصدر السلطان أمره الى محمد على والى مصر بتأديب الأروام، فأرسل محمد على أسطولا بحريا بقيادة ابنه ابراهيم باشا وصل الى المورة، وانضم الى جيوش الدولة العلية، وقاتلوا اليونانيين وفتكوا بهم حتى استغاثوا بالدول الأوروبية عموما، وبانجلترا خصوصا فتوسطت بالصلح الذى لم يقبله السلطان محمود فاتفق وكلاء فرنسا، وروسيا، وانجلترا فى لندن وقرروا شروط الصلح، وأرسلوها الى السلطان ولكنه رفضها، فأرسلت هذه الدول أساطيلها الى "ناوران" فأطلقت قنابلها التى أغرقت أساطيل الدولة العلية، واستقلت بعدها اليونان سنة ١٢٤٣هـ..

أصر السلطان محمود على تعليم الانكشارية فنون الحرب الحديثة فاجتمع

بالصدر الأعظم محمد سليم باشا، ورجال السلطنة، وكبار قادة الانكشارية فى بيت شيخ الاسلام "طاهر" أفندى فحدثهم السلطان عن الأضرار التى لحقت بالبلاد من الانكشارية فى عدم طاعتهم لأوامر السلطنة، ثم تلا عليهم الأمر السلطانى بخضوعهم للأحكام القانونية وتعهدهم بتنفيذها، فنكث البعض منهم بما اتفقوا عليه بعد الاجتماع، وانحازوا الى الانكشارية فهجموا على منزل الصدر الأعظم مطالبين بقتله مع كل من أيد النظام الجديد؛ فهرب الصدر الأعظم منهم وذهب الى السلطان، فلما أخبره بما حدث أمره بجمع عساكر الطوبجية، والاسلام أمام باب السراى ثم خرج اليهم السلطان، وألقى خطابا حثهم فيه على قتل المفسدين الذين يخالفون أوامر خليفة الله فى أرضه، فهجم عليهم الجنود وأطلقوا وابلا من المدافع، والرصاص، وأعملوا فيهم السيوف حتى أبادوهم عن آخرهم، وبذا تخلصوا نهائيا من الانكشارية..

أعلن محمد على باشا حاكم مصر سنة ١٢٤٧هـ الخروج على الدولة العلية، وأرسل ابنه ابراهيم باشا بجيش قوامه ثلاثين ألف مقاتل، وأسطول بحري فتح به "غزة"، و"يافا"، ثم حاصر "عكا" بحرا، وبرا ثمانية أشهر، ولكنها استعصت عليه فاستنجد بالأمير "بشير" حاكم لبنان الذى أعانه بالمال، والرجال، ولما بلغ الدولة العلية أصدر السلطان محمود فرمانا بعصيان محمد على، وأمر حكام الشام بمحاربته، ولكن محمد على تقدم بجيوشه متغلبا على كل المواقع فاستولى على "صور"، و"صيدا"، و"بيروت"، ثم توجه الى "طرابلس" الشام، وصار الى "حمص" والتقى بجيوش الدولة العلية فى "أنطاكية"، و"بيلان"، فصدرت الأوامر العلية سنة ١٢٥٥هـ الى "حافظ" باشا بجمع الجيوش العثمانية لصد ابراهيم باشا فالتقي معه فى سهل بالقرب من زيب، واشتد القتال حتى حسمه ابراهيم باشا بالجيوش المصرية فى "مرعش"، ودانت له البلاد حتى بات يهدد عاصمة الدولة العلية، ولكن السلطان محمود مات فى هذه الأثناء..

استعان حزب "تركيا الفتاة" بأعضائه فى الوزارة الجديدة فى عهد السلطان "عبد العزيز خان بن محمود" كما استمالوا اليهم أمراء الحربية، وشيخ الاسلام الذى استصدروا منه فتوى بخلع السلطان عبد العزيز سنة ١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م

ونادوا بابن أخيه "مراد" سلطانا؛ فنقل عبد العزيز الى سراى جراغان ثم أشيع موته بعد خمسة أيام، وقيل قُتل عمدا، وقيل انتحر بقطع شرايين ذراعه بالمقص، وقد وجد من كشفوا على جثته أنها كانت فى الدور السفلى من السراى ملقاة على سجادة بالقرب من الباب..

خُلع السلطان مراد الخامس بن عبد المجيد خان بفتوى من شيخ الاسلام بعد ثلاثة شهور من جلوسه، بعدما دخل "جركس حسن" بك ياور السلطان عبد العزيز دار "مدحت" باشا فى اجتماع للوزراء وقتل السر عسكر، و"راشد" باشا ناظر الخارجية فأثرت هذه الحادثة فى السلطان مراد حتى اختل شعوره، فسجن فى سراى جراغان بعد خلعه حتى توفى سنة ١٩٠٨..

انتشرت جمعيات التحرير فى عهد السلطان "عبد الحميد" خاصة تلك التى تدافع عن حقوق الأرمن، وحمايتهم من الجراكسة، والأتراك نظرا لما وقع على الأرمن من صنوف الظلم، ولما انتشرت هذه الجمعيات فى أنحاء أوروبا أوعز السلطان الى المقربين اليه بث روح العداء بين الأكراد، والأرمن فاشتعلت نار الفتنة بينهم سنة ١٨٩٤م فحدثت مذابح ساسون وغيرها، وخربت ثلاثون قرية من قرى الأرمن عن آخرها، وذبح النساء، والأطفال ذبح الأغنام..

شجعت هذه الحوادث قيام الجمعيات الداعية الى التحرر، والتخلص من استبداد السلطان عبد الحميد، وانتشرت بين تلاميذ المدارس العليا فى الأستانة، وتكونت جمعية "الاتحاد والترقى" ومالت الى العثمانيين من رجال النظام ثم دخلها الضباط، وأمراء العسكر، وجاهروا بخلع السلطان، فلما علم بأمرها جمع القائمين عليها مع أسرهم، وأنزلهم فى باخرة وزعتهم فى أماكن نائية فانفرط عقد الجمعية ولم تقم لها قائمة، ثم جددت احدى شعب الجمعية أعمالها، وعاودت الانتشار ودخلها العسكريون فى أنحاء السلطنة فلما علم السلطان بدعم الناس لهذه الجمعية، وأعيته الحيل تظاهر بتعضيد الأحرار فجمع الوزراء، وشيخ الاسلام وشاورهم فى شأن الجمعية من حيث هدفها اعادة القانون الأساسى (الدستور) فأشاروا عليه باعادته..

أنشأ السلطان عبد الحميد جمعية موازية أطلق عليها الجمعية المحمدية؛

ضم اليها العلماء، والأشراف فأقبل عليها الناس فى عموم الولايات العثمانية، وقامت بأول عمل لها يوم المولد النبوى الشريف فقام الجنود مع عامة الشعب بمظاهرة كبرى أمام الباب العالى مطالبين بحصول الشريعة، واقتتل الناس بين مؤيدين، ومعارضين فعمت الفوضى أنحاء البلاد فزحف جنود الاتحاد والترقى وحاصروا الأستانة، واحتلوا مواقعها وقبضوا على الجنود الثائرين، ولكن السلطان عبد الحميد أصر على المقاومة فحوصرت السراى حتى استسلم السلطان، وجنود حاميته بعد طلب الأمان فنقل الى سراى طولمة بغجة، وأعلنت الأحكام العرفية..

اجتمع مجلس النواب فى سان ستفانوس، وقرر خلع السلطان بعد صدور فتوى بذلك سنة ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م، ونودى "برشاد" أفندى سلطانا باسم "محمد الخامس"، وانتقل السلطان المخلوع من الأستانة الى سالونيك فى سراى اللاتينى تحت الحراسة مع نسائه الأربعة بعد مصادرة أملاكه..

الاسلام دعوة عالمية وليس حربا على البشر:

لم يقف المسلمون كثيرا على قوله تعالى:

-"**ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**" النحل ١٢٥..

-"**قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وماأنا من المشركين**" يوسف ١٠٨..

فالاسلام ماهو الا دعوة على بصيرة من الداعى اليه بالحكمة، والموعظة التى اشترط فيها الحُسن، والجمال، أما اللجوء الى السيف ففى حالة واحدة وهى الدفاع فقط الذى يسبقه اعداد القوة المتاحة، والرباط لارهاب من تسول له نفسه الاقتراب، فحرم على المسلمين الاعتداء:

-"**ولاتعتدوا ان الله لايحب المعتدين**" البقرة ١٩٠..

ولكن ماحدث على طول التاريخ الاسلامى كان يتسم دائما بالهجوم، والمباغتة، والحجة جاهزة لدى الفقهاء وهى نشر الاسلام، ولم تكن سوى الطمع

فى المغانم، والخراج، والجوارى، والحكم بدليل خروج المسلمين من بلاد دخلوها بالسيف فخرجوا منها كما دخلوا؛ بل تنصر المسلمون الذين تمسكوا بأرضهم، ولم يستطيعوا الخروج فعادت نصرانية كما كانت مثل بلاد شرق أوروبا(شبه جزيرة البلقان)، وغرب أوروبا(الأندلس، أو أسبانيا)، ودليل آخر أن البلاد التى دخلها الاسلام بالحكمة، والموعظة الحسنة مازالت مسلمة مثل أوساط أفريقيا، وجنوب شرق آسيا(جزر أندونيسيا، والملايو، وماليزيا)، ماعدا جزر الفلبين التى تنصرت فى أوج قوة الامبراطورية العثمانية..

كما تنصر مسلمو الأندلس، ولم تستطع لها الامبراطورية العثمانية شيئا، لظهور مبدأ توازن القوى فى هذه الفترة من التاريخ، فاذا كان للمسلمين امبراطورية قوية فاللنصارى أكثر من امبراطورية تجوب أعالى البحار، وتستعد لاستعمار العالم بما فيه من المسلمين؛ فقد تهيأ لذلك البرتغال، ثم الأسبان، ثم الألمان، ثم الفرنسيين، ثم الانجليز، حتى آلت القوة الاسلامية الوحيدة(الدولة العثمانية) فى النهاية الى الفرنسيين، والانجليز فقسموها بينهم بموجب اتفاقية سايكس - بيكو، والمسلمون غافلون لايدرون من أمرهم شيئا..

اعتمدت الدول الاسلامية التى أنشأها العرب على المتطوعين للحرب، والجهاد، ولم تنتظر أى دولة انشاء جيش نظامى خاص بها، ولكن خلفاء المسلمين العرب أحاطوا أنفسهم بالجيوش، ولأنهم لايثقون كثيرا فى بنى جلدتهم فقد استعانوا بالمماليك الذين كانوا يشترونهم من أموال المسلمين، أو من أسرى الحروب الذين شكلوا جزءا من غنائمهم؛ كما فعل الخليفة المعتصم فى أواخر الدولة العباسية الأولى، عندما أصبح المماليك الأتراك(أخواله) وبالا عليه، وعلى الدولة، فأضطر الى انشاء مدينة سمراء(سُر من رأى) كى يبعدهم عنه، ولكنهم صاروا شوكة فى ظهر الدولة أضعفوها حتى سقطت، وكذلك فعل الخلفاء الأيوبيون فى مصر حتى ورثوا منهم الدولة، وقتلوا "توران شاه" آخر خلفاء الأيوبيين فى مصر، وكون الأتراك السواد الأعظم من المماليك فى مصر، والشام، حتى ساد الأتراك أنفسهم، وكونوا دولة بنى عثمان..

اعتمد العثمانيون على القوة العسكرية لنشر الاسلام فكانت الانكشارية -

فرق المشاة الدائمة – هى العنصر الرئيسى فى هذه القوة، وحظيت باهتمام بالغ من الدولة، وتتكون الكلمة من مقطعين "ينى تشارى"، وبالتركية "يكيجرى أو Yeni" بمعنى الجديد، و"شيرى Cery" بمعنى العسكر؛ فتكون الكلمة هى العسكر، أو الجيش، أو الجند الجديد، أو الحديث..

وقد أجمع المؤرخون على أن المشاة الانكشارية كانوا أكثر أهمية من سلاح الفرسان(السباهية)، وكان مصير، أو مستقبل الدولة العثمانية يعتمد الى حد كبير جدا على الانكشارية، وقد أحرزت انتصاراتها فى ساحات القتال بفضلهم، حتى أنه بمجرد تمرد الانكشارية، وفساد نظامها تراجعت فتوحات الدولة العثمانية، وبدأت تخسر أراضيها تباعا، بل ووقفت موقف المدافع عنها، وهو مايثبت أن الدولة لم تكن تعتمد عليها فى الفتوحات فحسب، بل فى الحفاظ على هذه الفتوحات..

كانت الانكشارية تكلف الدولة أموالا طائلة حتى لو لم يكن هناك حروب، حيث كانت لهم عطايا من الدولة فى المواسم، والأعياد، وعند تولية السلطان بما يسمى "بقشيش الجلوس" وكانت تمثل عبءا كبيرا على الدولة وقت الحروب؛ اذ كان لابد من دفعها عاجلا قبل الحرب والا ستقوم الانكشارية بالثورة، والتمرد مما يتسبب فى تعطيل سياسة الدولة، وأهدافها، ولايستطيع أى سلطان تجاهل هذه العطايا والا تعرض للمهانة من الانكشارية؛ حتى ألغيت هذه العطايا سنة ١١٨٨هـ – ١٧٧٤م بعد تولى السلطان عبد الحميد الأول؛ حيث كانت الأزمة المالية هى السبب لضخامة الانفاق العسكرى للقوات العثمانية أبان الحرب مع روسيا التى امتدت لست سنوات تحطم فيها الجيش، والأسطول العثمانى..

وكان القدر الأكبر من الانفاق الباهظ على الانكشارية يذهب الى جيوب ضباطهم (الأغوات) الذين كان لهم نصيبا من كل مايأخذه الجنود وحتى بعد موت هؤلاء الجنود، فكان الضباط هم الذين يوزعون المرتبات على الجنود فتؤل اليهم المرتبات التى لم يتسلمها الجنود لأى سبب..

وكان من أسباب تمرد الانكشارية تقاعس السلاطين عن الخروج للمعارك على رأس الجيش، وتفضيل الجلوس فى قصورهم التى تموج بالبذخ، والرفاهية

على تكبد مشاق السفر، والجهاد، فكان سليمان القانونى أول من أبطل قاعدة خروج السلطان كقائد عام للجيش، واكتفى بارسال القائد العام من الانكشارية، ففقد السلطان هيبته فى نفوس الانكشارية، وأصبح لقائدهم من الانكشارية الشأن الأكبر الذى تجاوز شأن السلطان نفسه، فلا يرد طلبه، ولايعصى له أمر..

استخدم أغوات الانكشارية الرشوة للوصول الى المناصب العليا، وكذلك تولية المناصب لمن يدفع أكثر، وكانوا يشعلون النار فى جزء من العاصمة حتى يخرج السلطان لسماع رغباتهم فتكون النار قد أكلت جزءا من العاصمة، وكانوا يحافظون على علاقاتهم بالعلماء، وشيوخ الاسلام فصارا قوتين يرهبهما السلطان، ولايقضى فى أمر حتى يقف على ضمان مساعدتهم؛ فأصبحت الدولة عارية من الحماية داخليا، وخارجيا..

كان الانكشارية لايلتزمون بمعاهدات الهدنة فى الحروب التى تتضمن شروط التسليم من المحافظة على الأرواح، والممتلكات، فلم يعبأوا بشروط التسليم فمارسون أعمال السلب، والنهب، والقتل، وهتك الأعراض، واحراق المنازل، والحوانيت، أما فى الداخل فكانوا يعترضون موكب السلطان، ويحولون دون دخوله الى القصر لتحقيق مطالبهم، وزيادة عطاياهم..

واذا أرادوا نهب أحد أحياء المدينة أشعلوا فيه النار فاذا ماارتفعت ألسنة اللهب، وانشغل الأهالى بالاطفاء سارعوا الى الأحياء الأخرى فنهبوها، وانتهكوا حرمات بيوتها حتى فعلوا ذلك مع الصدر الأعظم نفسه..

كان التشويه الجسدى من علامات الجندى الشجاع، وكانت الدولة تقدره بمقداره فى جو من المنافسة، فكان الجند يتسابقون فى تشويه أجسادهم طمعا فى زيادة مكافآتهم(العلوفة) من علف الحيوانات، وكانت تدفع كل ثلاثة شهور، فلم يعد يهمهم الجهاد كثيرا، أو الانتصار فى المعارك، وفى المعارك يسارعون فى جمع الروؤس من قتلى الأعداء، وتسليمها الى القائد العام فى خيمته من أجل المكافأة فأصبح الغرض من الحرب استلاب الغنائم، والمكافآت ولم تعد جهادا، واستشهادا..

وكان انكشارية الأقاليم فى دمشق، وحلب، والقاهرة يبتزون الأهالى لقدرتهم

على ذلك، وبحكم وظيفتهم فيجمعون الضرائب المقررة على الاقليم أضعافا مضاعفة فيرسلون المقرر على الاقليم، وينهبون الباقى، وفى اليمن رغم ابتزاز أموال الأهالى لجأوا أيضا الى بيع متاعهم، وأسلحتهم، وثيابهم الرسمية حتى استولى الزيديون بقيادة "مطهر الزيدى" على بلاد اليمن فانضم اليه الانكشارية، ومن ثم استطاع اعلان التمرد على العثمانيين..

ويقال ان الجيش كان قوام الدولة التى كانت قاعدة لهذا الجيش، ومسخرة لخدمته، وقواد الجيش هم قادة الدولة الذين يتولون مناصبها فيما عدا القضاء، والوظائف الدينية، ومن ثم غلب على الدولة الطابع العسكرى، والعقلية الاستعمارية التى تعتمد على ماتحصل عليه من موارد المستعمرات، والغنائم؛ فلم يكن للدولة موارد زراعية، أو صناعية وبالتالى كان الاقتصاد العثمانى بدائيا، ولهذا سمحوا للانكشارية باحتراف الزراعة، والصناعة، والتجارة بهدف اثراء الاقتصاد العثمانى، كما سمحوا لهم بعدم الالتزام بالتواجد فى الثكنات؛ فاتسعت امتيازاتهم فى المدن، وقوى نفوذهم، واختلطوا بالسكان، ومالوا لحياة المدن، وفقدوا اللياقة، والآداب العسكرية فلم يذهبوا الى الثكنات الا لاستلام رواتبهم، أو مايسمونها العلوفة التى كانوا يبيعونها للحصول على العائد المادى..

الثورات والخوارج

الثورات:

حركة المختار الثقفى للرد على مقتل الحسين (٦٤ - ٦٧هـ) (٦٨٣ - ٦٨٦م):

كان المختار من أتباع ابن الزبير بمكة، فانشق عليه، ورحل الى الكوفة، ودعا بامامة المهدى من آل البيت، استولى على الكوفة، والموصل، وهاجم مكة، وتغلب على جيش عبد الملك بن مروان، وقتل قتلة الحسين، ومثل بجثثهم، وأخرج جثث من مات منهم، وألقاها فى الطرقات، قضى عليه مصعب بن الزبير والى البصرة من قبل أخيه عبد الله بن الزبير..

قتل عبد الملك مصعب سنة ٧١هـ - ٦٩٠م فخضعت له العراق، ثم استدار نحو المدينة فأخضعها، ثم سير جيشا الى مكة بقيادة الحجاج فحاصر عبد الله بن الزبير الذى خذله الناس، فقاتل مع خاصته بشجاعة نادر - مثل الحسين - عند الكعبة حتى سقطت عليه احدى شرافات الكعبة فمات سنة ٧٣هـ - ٦٩٢م فخضعت كل الأمصار لعبد الملك، ومن ثم أصبح الخليفة الشرعى..

حركة عبد الرحمن بن الأشعث (٨١ - ٨٥هـ) (٧٠٠ - ٧٠٤م):

سار عبد الرحمن على رأس جيش من قبل الحجاج والى العراق الى بلاد الترك، وحقق انتصارات كبيرة فخلع طاعة الحجاج، وعبد الملك، وقاتل الحجاج، واستلب منه العراق؛ فدان له المشرق ماعدا خراسان حتى هزمه الأمويون بعد معارك ضخمة، وفر منهم سنة ٨٢هـ، وقتل سنة ٨٥هـ، وقتل معه الحجاج كثير من العلماء الذين أيدوه، وكان منهم سعيد بن جبير..

ثورة الامام زيد بن على:

خرج زيد بن على بن الحسين على الأمويين بالكوفة، وثار عليهم سنة ١٢١هـ - ٧٣٨م، ولكن الكوفيين خذلوه فقاتل قتالا عظيما حتى قتل سنة ١٢٢هـ - ٧٤٢م، وتنسب اليه الفرقة الزيدية الشيعية، وتنسب كذلك الى ابنه يحيى، وكانت الفرق فى ذلك الوقت بمثابة الأحزاب السياسية فى العصر الحديث، وكانت عادة ماتقاوم من قبل الدولة المتغلبة..

كان أبوه الامام على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب هو أصغر آل البيت فى كربلاء بعد استشهاد أبيه الحسين، أنقذه من القتل فى كربلاء مرضه، واستماتة عمته السيدة زينب دفاعا عنه بعد أن ذبح جيش يزيد كل الذكور حتى الأطفال، وشردوا نساء الرسول الكريم فى الصحراء، ثم ساقوهن فى موكب مهيب حزين الى دمشق يتقدمه رأس الحسين سيد الشهداء على رأس حربة..

اختار زين العابدين أن يعلم الناس ويفقههم فى أمور دينهم، وربى ولديه على ذلك، وأخذهما بالنظر فى علوم الدين ليكونا من بعده امامان صالحان، وترك زين العابدين علما غزيرا، وترك ابنه الأكبر محمدا راعيا، وأستاذا لابنه الأصغر زيد..

وكانت النفوس تغلى سخطا، ورفضا، ونشأت فرق فى أطراف الدولة تتهم معاوية بالكفر، وتدين كل من أيدوه، وأوصلوه للحكم من الفقهاء، وغيرهم، وكان زيد يرى أن شروط الخلافة هى الشورى، والبيعة الحرة، والعدل فى الرعية، وهذا كله مفقود لدى بنى أمية الذين جعلوا الحكم وراثة، وأحاطوا أنفسهم بمستشارى السوء، فأين الرعية من توفير المطعم، والملبس، والمركب، والدواء، والعلم، والأمن للناس..

ماصبره على ذلك؟.. جعل يتقلب بين البصرة والكوفة والمدينة يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويدين كل تصرف يخالف الشريعة ويطالب بالتغيير والاصلاح وحرية الفكر والرأى، ويحث الناس على شحذ عقولهم لمعرفة الحسن من القبيح..

عاهد زيد نفسه أن يقف ضد هذا الظلم، والتف حوله الناس، وأخذوا يطالبونه بأن يتقدم لاسترداد الامامة؛ فبايعه الناس حتى بلغوا أربعين ألفا فى السلاح، والعتاد فخاف عليه أبناء عمه أن يخذلوه كما خذلوا جده الحسين، ولكنه اتفق مع من بايعوه على أن يخرجوا لجهاد الظالمين فى الأول من صفر سنة ١٢٢هـ فلما علم الخليفة هشام بن عبد الملك أرسل الى والى العراق يوبخه، فتتبع الوالى رؤوس المبايعين حتى قضى عليهم ففارقوه، ونقضوا البيعة ولم يف بعهده سوى مائتين تقدم بهم نحو الآلاف من جند الأمويين الذين انقضوا عليه، وعلى أصحابه حتى قتلوه، فجهزه من معه، ودفنوه فى ساقية مهجورة، ولكن الأمويون نبشوا قبره، ومثلوا بجثته، وصلبوه على جذع نخلة..

ثورة عم المنصور عبد الله بن علىّ:

ادعى عم المنصور أحقيته بالخلافة لقتله مروان بن محمد أخر الخلفاء الأمويين، وأنه ثبت دعائم الدولة الجديدة، كما ادعى أن السفاح عهد اليه بالخلافة فبايعه جيشه، وبايعه أهل الشام، والجزيرة، وتحصن بحران؛ فسير اليه المنصور جيشا يقوده أبو مسلم الخرسانى؛ فدارت المعارك بينهما خمسة أشهر انهزم على اثرها عبد الله؛ وفر الى البصرة فقبض عليه المنصور سنة ١٣٧هـ - ٧٥٣م وسجنه حتى مات، ثم قتل المنصور أبى مسلم بعد أن قدم عليه خوفا منه، ومن انقلابه عليه..

ثورة محمد وابراهيم (ابنى عبد الله بن الحسن بن علىّ):

ثار محمد النفس الزكية فى المدينة المنورة سنة ١٤٥هـ - ٧٦٢م فبايعه أهلها، وثار أخوه ابراهيم بن عبد الله نفس العام فى البصرة؛ فبايعه أهلها، فأخضع أغلب أراض العراق، وفارس، والأهواز، وظل عبد الله بن الحسن والدهما فى سجن المنصور يعذب حتى مات، تمكن منهما المنصور بجيش ضخم ؛ فقضى عليهما بعد مقاومة عنيفة، وقتل أفراد بيتهما، وأصحابهما، وأتباعهما شر قتلة، ومثل بأجسادهم، فقد كان العلويون يطالبون بالخلافة، ويؤكدون على أحقيتهم بها من العباسيين..

ثورة الحسين بن علىّ بن الحسن بن الحسن بن علىّ:

ثار الحسين فى المدينة، ومكة مطالبا بالخلافة، فاستطاع الهادى القضاء عليه فى معركة فخ قرب مكة سنة ١٦٩هـ - ٧٨٥م، وأفلت ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن الذى فر الى المغرب الأقصى، وأسس دولة الأدارسة، كما ثار أخوه يحيى بن عبد الله فى بلاد الديلم، وأخضع بعض الأقاليم سنة ١٧٦هـ - ٧٩٢م فتمكن منه العباسيون وقضوا عليه سنة ١٨٠هـ - ٧٩٦م..

نكبة البرامكة (١٨٧هـ - ٨٠٢م):

البرامكة أو "برمكيان" باللغة الفارسية من عائلات فارس العريقة ترجع أصولهم الأولى الى "برمك المجوسى"، وكان من سدنة النار، وكان منهم خالد بن برمك من دعاة الدولة العباسية، وقد تولى الوزارة فى عهد السفاح، ثم جاء ابنه يحى بن خالد من أشهر شخصيات الأسرة التى عملت مع العباسيين، وعمل وزيرا لهارون الرشيد ففوض له كل الأمور، وكان هو المسئول عن تربية الرشيد، وأرضعت زوجته الرشيد وهو طفل، ولما كبر من السن ترك الأمر لابنيه الفضل وجعفر، وكان الفضل من كبار قادة الدولة، وأوكل له هارون تربية ابنه الأمين، أما جعفر فكان لايفارق هارون الرشيد فى مجلسه حيث كان نديمه المفضل..

كان البرامكة ذو مكانة كبيرة فى الدولة العباسية، وكانوا أصحاب الأمر، والسلطان حتى نكبوا فى عهد هارون الرشيد بعد توليه بسبعة عشر سنة، ولم يقر للمؤرخين سببا يعزى اليه بلاءهم بهذه النكبة الا أنها من حيل السياسة التى لامجال فيها للدين، والمثل العليا، فعندما تعتمد الدولة فى قيامها على من يدعمها، ويخدمها حتى تستقر؛ تستغنى عنه الدولة عادة بالقتل، أو السجن، أو كلاهما معنا؛ كما فعل المنصور بأبى مسلم الخرسانى أكبر دعاة، وقادة العباسيين، فقد كان جزاء هؤلاء القتل، والتشريد، ومصادرة الأموال، والممتلكات، ومن الممكن ادخاله فى المنافسة بين العرب، والفرس ازاء تعاظم نفوذ البرامكة، واحتدام الصراع بين الفريقين بعد نجاح الدسائس، والوشايات التى أوغرت قلب الرشيد على البرامكة حتى أمر بالقبض عليهم، وأعلن أن لاأمان لمن آواهم،

ونصرهم، وقتل جعفرا، وصلبه على جسر بغداد، وحبس الباقين فى السجون، وعذبهم حتى الموت..

ثورة خراسان:

قادها رافع بن ليث بن نصر بن سيار لاستبداد، وتعسف والى خرسان، فعزل الرشيد الوالى، وحبسه، وظلت الثورة حتى أخمدها المأمون، وقضى عليها..

ثورة الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠هـ) (٨٦٨ - ٨٨٣م):

أثار الزنج (طائفة من عبيد أفريقيا) الرعب، والزعر فى بغداد عاصمة العباسيين قرابة أربعة عشر عاما، يقودهم "على بن محمد" الفارسى الأصل الذى ادعى نسبه الى على زين العابدين بن الحسين، وادعى الغيب، والنبوة، وجهر بمعتقدات الخوارج داعيا الى تحرير العبيد، فانضم اليه الكثير..

دخل على بن محمد البحرين، والعراق، واستقر ببغداد سنة ٢٥٤هـ - ٨٦٨م، وبنى مدينة أطلق عليها "المختارة"، انتشرت جيوشه بالعراق، وخوزستان، والبحرين فاستولوا على سفن الحجاج، ودمروا المدن، وذبحوا السكان بعد أن انتصروا على جيوش العباسيين فى عدة مواقع، استولوا على مدينة "الأبلة" الفارسية، والأهواز، وعبدان، والبصرة سنة ٢٥٧هـ - ٨٧٠م، وواسط سنة٢٦٧هـ - ٨٨٠م..

خرج الخليفة المعتمد العباسى بجيوشه فأجلاهم عن الأهواز، ثم حاصر المختارة مدينتهم حتى تمكن من قتل زعيمهم الفارسى، فانفض من حوله، وتفرقوا ، وانتهت ثورتهم التى أتت على قرابة المليونين من البشر حسب تقديرات الاخباريين..

القرامطة (٢٨٧ - ٤٧٠هـ) (٩٠٠ - ١٠٧٧م):

فرقة دينية باطنية، تعتقد أن لكل ظاهر باطن، وطبقوا هذه العقيدة على القرآن فلكل آية تفسير ظاهر، وباطن، فالظاهر يعرفه العامة، أما الباطن فيختص به الامام، والفكر الفارسى هو أساس هذا المذهب، ادعوا التشيع فانتسبوا الى الاسماعيلية بداية، ثم تنصلوا منهم، واستقلوا بأنفسهم فتفرقوا

الى مذاهب..

من أفكار هذه الفرقة الخارجة أنه من زار الحسين عليه السلام كمن زار الله في عرشه، وكانوا يفرضون الضرائب على أتباعهم إلى حد يكاد يستغرق الدخل الفرديَّ لكل منهم ، ويبيحون استخدام العنف لتحقيق أهدافهم..

أسس دولتهم "حمدان بن الأشعث" الملقب "بقرمط"، وهو يمنى الأصل، وقد تلقى الباطنية من "حسين الأهوازى" الفارسى الأصل، تزعم الحركة فى الكوفة سنة ٢٨٧هـ - ٩٠٠م فتبعه الكثير، ومدوا نشاطهم الى الشام، والخليج العربى، ثم اليمن، والحجاز، قضى عليهم الخليفة العباسى المعتضد فى العراق، وسوريا بعد حروب طاحنة، فانحصروا فى البحرين، والأحساء، وكونوا قوتهم الضاربة..

كان "أبو سعيد حسين الجنابى"(٢٨٧ - ٣٠١هـ) أول دعاتهم فى البحرين، وفى سنة ٣١٧هـ - ٩٢٩م بنى ابنه "سليمان"(٣٠١ - ٣٣٢هـ) مدينة "الأحساء" على أنقاض "هجر" واتخذها عاصمة له، وقد ارتكب مذابح عظيمة فى البصرة، والكوفة ظلت سبعة عشر يوما، ثم دخل مكة، والمدينة سنة ٣١٧هـ فهاجم الحجّاج يوم التروية في مكّة على حين غرة فقتلوا منهم جمعاً غفيراً ممن كان معظمهم متمسّكاً بأستار الكعبة ،وليس ذلك وحسب بل هجموا على أهل مكّة وعملوا منهم مذبحة مريعة، وانتهكوا حرمة وقدسية المسجد الحرام، وقد وصل عدد من قُتلوا في هذه الحملة الوحشية قرابة ٣٠ ألف، ورمى القرامطة بجثث أكثر هؤلاء في بطن بئر زمزم، ودُفن الكثير منهم دون أن يُغسلوا، أو يكفّنوا؛ فكان النّاس يصيحون عليهم:

-أوَ تقتلون ضيوف الله؟..

فيجيب القرامطة:

-إنَّ من يخالف أوامر الله ليس بضيف لله..

وجرد الكعبة من كسوتها، واقتلع الحجر الأسود من مكانه، وهو يقول:

-أين الطير الأبابيل؟..

-أين الحجارة من سجيل؟..

وحمله الى "القطيف"، فلبث لديهم اثنتين وعشرين سنة،
حتى أعادوه بشفاعة الفاطميين فى مصر سنة ٣٣٩هـ - ٩٥٠م..

قام القرامطة بشنّ هجوم على دمشق فقتلوا الكثير من أهلها، بل قاموا بحملتهم على مصر فاصطدموا مع جيش جوهر الصقلي قائد قوات المعزّ لدين الله الفاطمي، في منطقة "عين شمس" فتمكنت جيوش الفاطميين بعد هذه الحملة من دحر القرامطة، وطردهم من مصر..

تغلب عليهم العباسيون، والسلاجقة بقيادة "عبد الله العيونى" سنة ٤٦٢هـ - ١٠٦٩م، وأخرجوهم من البحرين، ثم قضوا عليهم نهائيا فى موقعة الخندق بالأحساء سنة ٤٧٠هـ - ١٠٧٧م، وحل محلهم العيونيون بالبحرين(٤٦٦ - ٦٣٦هـ)(١٠٧٣ - ١٢٣٨م)..

ثورة عبد الله بن علىّ العيونى على القرامطة:

ثار على القرامطة بمساعدة العباسيين، والسلاجقة كما ذكرنا فخضعت له المنطقة، والعيونيون ينسبون الى فرع من قبيلة بنى عبد القيس سكنوا "العيون" بالأحساء فى البحرين، وكان يقصد بالبحرين الساحل الشرقى للجزيرة العربية كاملا..

الحشاشون فى قلعة ألموت وبلاد الديلم حول بحر قزوين(٤٨٣ - ٦٥٤هـ) (١٠٩٠ - ١٢٥٦م):

جماعة أثارت الذعر فى البلاد الاسلامية خلال فترة حكم السلاجقة، اشتهروا بالتآمر، والغدر، والقتل، وهم فرقة باطنية تزعمهم "الحسن بن الصباح" الفارسى(٤٨٣ - ٥١٨هـ)، دعا للفاطميين، وبدأ دعوته فى فارس سنة ٤٧٣هـ - ١٠٨٠م، استولى على قلعة ألموت سنة ٤٨٣هـ - ١٠٩٠م وهى من أخطر حصون السلاجقة تقع فى أعالى جبال شمال غرب بحر قزوين..

استولى الصبّاح أيضا على كثير من الحصون فى فارس، وسوريا، وفشل السلاجقة فى القضاء عليه فاتسع نفوذه حتى تمكن المغول فى عهد هولاكو من احتلال معاقله فى فارس سنة ٦٥٩هـ - ١٢٦٠م، ثم سحق الظاهر بيبرس المملوكى هذه الفرقة نهائيا فى سوريا سنة ٦٧١هـ - ١٢٧٢م..

الخوارج:

الخوارج بدو أجلاف، شديدو الايمان، شديدو البأس، والناس عندهم مؤمن، وكافر، والمؤمن من رأى رأيهم، والكافر من ليس معهم، كفروا عثمان، وعليّا، ومعاوية، يستبيحون دماء المسلمين الذين لايوافقونهم فى الرأى، ومن ليس فى جماعتهم، وهم فرق أهمها الأزارقة، والأباضية، والعجاردة، والصفرية، كان الأمويون، والعباسيون بعد علىّ لهم بالمرصاد لخطرهم على الدولة، و الحكم..

وهم دائما خارجين على اجماع المسلمين، وعلى دولتهم، ولايرون داعيا لتنصيب خليفة، ولو تشدق الأحداث منهم بالخلافة، ولكنهم لايؤمنون بالدولة على الاطلاق، وحجتهم الدين؛ يتمسكون به الى الدرجة التى لايرون شيئا غيره فى الحياة(المبالغة، والتطرف)، ويبدو تأثير البيئة عليهم فى ذلك..

لقد أنكر الخوارج "الخلافة المُلك"، وقالوا انها ليست اسلامية، وان الحكم بالقوة، والغصب ردة بالاسلام الى نظم الجاهلية؛ وخالفوا ماورد فى الأحاديث فى شرط القرشية، وتمسكوا بالشورى، واحترموا قيمة الانسان، وقالوا لاحكم الا لله، واختاروا واحدا من عامتهم وهو "عبد الله بن وهب الراسى" وبايعوه بالامامة على الشورى، والعمل بكتاب الله، وسنة رسوله، وأرادوا اعادة الأمة الى الجادة كما فعل أبو بكر مع أهل الردة، ولكن الخلفاء الملوك حاربوهم باسم الدين، وسموهم الخوارج، ووقفت الأمة كلها تتفرج حتى انكسرت شوكتهم، ولم تبق منهم الا شراذم متفرقة فى أطراف البلاد فى الغرب الأوسط، وفى جبال عمان..

وينبغى التفريق بين نزعة الخروج على صورة ما فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم(اعتراض عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى فى احدى الغزوات على قسمة رسول الله، وهى حالة فردية)، والخروج على اجماع المسلمين فى حياة علىّ فى موقعة صفين بعد قضية التحكيم، وظهورهم كفرق لها آراء كثيرة، وتجمعات قوية، وعديدة، وحركات ثورية..

بعد موقعة القيروان، ومقتل علىّ، بقى من الخوارج كثرة عددية توزعت فى الرقعة الاسلامية، وعند انتقال الحكم الى الأمويين قوى نشاطهم فى العراق؛ فتصدى لهم القائد الأموى "المهلب بن أبى صفرة" وقضى على أعداد كبيرة منهم

فى معارك عظيمة، وكان من كبار قوادهم "قطرى بن الفجاءة"، و"شبيب الشيبانى"..

نشط الخوارج فى عهد يزيد بن عبد الملك بقيادة "شوذب" الذى هزم الأمويين فى عدة معارك، ولكنهم تمكنوا منه، وقضوا عليه، وفى عهد يزيد ثار أيضا يزيد بن المهلب بن أبى صفرة فى العراق فانتصر عليه الأمويون، وقتلوا يزيدا، وقضوا على آل المهلب قضاء مبرما بعد أن كانوا من أكبر أنصار الأمويين..

نشط الخوارج فى خلافة المنصور، ولكنهم ابتعدوا هذه المرة عن مركز الخلافة، والدولة حيث استطاعوا اقامة الدولة الصفارية فى سلجماسة بالمغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ - ٧٥٧م فنشط المنصور فى حربهم..

أما الخوارج الأباضية فقد أقاموا دولتهم الرسمية فى تاهرت بالجزائر سنة ١٦٠هـ - ٧٧٦م..

ثار الخوارج سنة ١٧٨هـ فى الجزيرة العربية يقودهم "الوليد بن طريف(الشارى)"، وكان ذو بأس شديد، ولكن جيوش العباسيين فى خلافة الرشيد استطاعت القضاء عليه بعد حروب عدة..

لم يكن الخوارج منظمين فى خروجهم على الدولة، كما اتصفت قياداتهم بالتهور، والاندفاع، الأمر الذى جعل الدولة تقابلهم بالعنف فتأثرت قوتهم، وقوة الدولة أيضا..

والخوارج أهل شجاعة، واندفاع، تميزوا بكثرة العبادة، والزهد، والفصاحة، وصدق الحديث، والصبر على الجدل، والمنازعة، وغلوهم الشديد فى الحكم على مخالفيهم عموما الأمر الذى جعل البعض يكفرهم، والبعض فسقهم، والبعض اكتفى باتهامهم أنهم أصحاب بدعة، ولكنهم ليسوا سواء فى الأخذ بمبدأ التأويل، أو التمسك بظاهر النص حسب مايقتضيه تحقيق أهدافهم..

كما تغلب الزنادقة على جرجان سنة ١٨١هـ - ٧٩٧م، وعاثوا فيها فسادا، فقضى عليهم العباسيون..

هوس الامارة والسلطة:

داء السلطة، والرياسة، وسحر لقب "أمير" المؤمنين مرض يصيب عادة المنادين بالخلافة، أو الحكم باسم الدين فى العصر الحديث، وهم عادة من العاطلين، أو الفاشلين فى تخصصاتهم، أو لم يستطيعوا أن يحققوا فيها شيئا ذا قيمة، فتجد أغلبهم فى الوظائف الرتيبة - ان وجدت - التى تناسب عقولهم البليدة، وأفكارهم النمطية، وأنشطتهم الفارغة التى قد تغطى الحاجات المتواضعة للبسطاء من الناس، والفقراء منهم، فيما يعيشون هم كطبقة طفيلية من طبقات المجتمع التى ترتفع معدلات استهلاكها من السلع، والخدمات، فلا يركبون الا السيارات الحديثة، والكبيرة، ولا يسكنون الا الفيلات، والشقق الفخمة، ولايتزوجون الا من صغيرات السن مثنى، وثلاث، ورباع، ومن اقتصر منهم على واحدة فعادة ماتكون الثانية، أو الثالثة، أو الرابعة، ولايشتكون اطلاقا من غلاء السلع، وارتفاع الأسعار، فلديهم من الأموال مايستطيعون به مواجهة طوارىء الحياة..

فان جاز هذا على التجار، وأرباب الأملاك، والصنائع فلاتجده مناسبا لمن لايعملون شيئا سوى القاء الدروس الدينية هنا، وهناك فى أنحاء القطر، ومن كان منهم غير مفوه فى القاء الدروس ضارب فى العملة، والمزايدات، والعقارات، والسيارات، والذهب، وكل سلعة يمكن تخزينها(تصقيعها)، فهم عادة لاينتجون شيئا ينفع الناس، أو الوطن فلا هم أهل زراعة، ولا أهل صناعة، ومن هنا جاء طمعهم فى السلطة، وتكفيرهم لمن كان فى السلطة من المسلمين؛ فهم قد حازوا المال من كل طريق، ولابد من تأمين هذا المال، وتنميته بالسلطة التى لابد من الاستحواذ عليها، وأسهل الطرق، وأيسرها هو الدين، ولابأس من امتلاك السلاح، والتدريب عليه أملا منهم فى صناعة الانقلابات المسلحة التى كانت سمة من سمات دولهم التى عانت من الاستعمار الغربى فى النصف الثانى من القرن العشرين..

وهم لاينكرون أى وسيلة للاستيلاء على السلطة، حتى لو استعانوا بأعداء الوطن، والدين، وحتى لو خالفوا صريح القرآن، والسنة التى يستطيعون

تفسيرها، وتأويلها، أو حتى لوى عنقها، وتحريفها لتبرير أفعالهم ضد القائمين على السلطة من المسلمين، وهو مابدا فى كتاباتهم الصريحة مثل كتاب "صالح سرية - رسالة الايمان" الذى كان يلقن مبادئه لثمانية عشر طالبا من طلاب الكلية الفنية العسكرية فى مصر أراد أن يستخدمهم للاستيلاء على الحكم فى فترة ولاية الرئيس السادات..

والمرضى بهذا الداء الذى لاشفاء منه الا بالموت الذى يلبسونه بالشهادة فى سبيل الله كى يوهموا الشباب التائهة، والباحث عن دور فى حياته البائسة بالحرب المقدسة ضد اخوانهم المسلمين الذين لابد من اخراجهم أولا عند هذا الشباب الضائع من زمرة المسلمين، ومن حوزة الاسلام، فهاجم "صالح سرية" هذا(وهذا الرجل فلسطينى الجنسية، وبلده محتلة من اليهود، وعندما يأتى الى المسلمين فى مصر للاستيلاء على الحكم فيها دون أن تهتز له شعرة لبلده المحتلة باليهود أعداء المسلمين، فمن يكون سوى عميل لليهود يتمسح بالاسلام؟!) فى كتابه كل الرموز الوطنية، وأسماها طقوس الشرك الجديدة التى تعيد الى الأذهان عبادة الأصنام، ومنها تحية العلم الذى هو قطعة من القماش..

فهو أيضا صنم يعبد، وقام أيضا بتكفير السلام الجمورى، أو الملكى، أو الأميرى، وتحية قبر الجندى المجهول، وأدان بالكفر كل من وقف فى مواجهة دولة الخلافة، وكفر القومية العربية، أو أى قومية أخرى، والديمقراطية، والاشتراكية، والشيوعية، والبعثية، والرأسمالية، والاتحاد الاشتراكى، ولاندرى من أين يأتى هؤلاء الفاشلين بهذه الكتب، والمؤلفات التى عادة ماتؤلف فى غضون أيام بأفكارها، وتبويبها، وفهرستها، ولغتها العربية المكتوبة بعناية الا اذا كانت معدة لهم سلفا؛ حتى أنه عند القبض عليه لتفاهة خطته التى أعدها عقله السقيم ضبط معه بيان ينم عن الهوس العقلى بالسلطة، والشذوذ الفكرى يقول فيه:

-"أيها الشعب الحبيب، أيتها الأمة المجاهدة الصابرة(هذه الندءات المتملقة للسامعين لاتختلف كثيرا عن نداءات رؤوساء الأحزاب الدينية الموجودة حاليا على الساحة رغم تكفيرهم للشعب، والأمة) لقد نجحنا والحمد لله صباح اليوم فى السيطرة على الحكم، واعتقال جميع المسئولين عن النظام السابق"..

قامت الحركات السياسية الاسلامية لتملأ فراغ التسلط باسم الدين، وجعلت هدفها الوصول رأسا - بلا مواربة - الى السلطة، والحكم؛ فأوهموا الأمة أن الاسلام قد سقط بسقوط الخلافة، فصدروا فكر الخلافة فى أول مبادئهم على أساس اجتماع السلطة الدينية، والدنيوية فى شخص واحد، ووجوب طاعته، باعتباره الممثل الشرعى المحقق لشروط الاستخلاف، واقامة شعائر الاسلام، وأحكامه، والمبدأ الثانى أن الوطن هو أرض الاسلام كافة؛ حتى تلك التى تركها المسلمون فى الأندلس، والبلقان، وهذا الطرح ليس نظاما سياسيا لدولة قطرية محدودة؛ ولكنه أيديلوجية تستند على ميراث سابق تتوسع به الدولة، وتتمدد مادامت تمتلك أسباب القوة(من أين والأمة لاتستطيع الحفاظ على مواردها أصلا، لأنها تستورد السلاح الذى اخترعه، وأنتجه الغرب الذى استحوذ على الأندلس، والبلقان بهذا السلاح، والأمة تستورد حتى الأكل، والشرب من الغرب؟)..

ويبدو أن الفكر المخادع لهذه الحركات الهائم فى الخيال، والغوغائية قد أعد فقط لحشد الجماهير الضالة المتعطشة لأمجاد الماضى؛ بعد أن أوهموها بأنها كانت خلافة راشدة تنهل من عدل الاسلام، ومن بحور اللبن، والعسل فى البلاد التى فتحوها بالجيوش الجرارة، وهى عصور لم تعد تذكرها البشرية، اعتمدت على قوة السيف، والخيل، بينما تعتمد الآن على قوة الأثر التدميرى للقنابل، والأسلحة التى تتعدد بين النووى، والهيدروجينى، والذرى، والكيميائى، والجرثومى، والانشطارى، والعنقودى، ولاتعتمد على قوة التفجير فقط بل على قوة خلخلة، وتفريغ الهواء، وتوليد آلاف الدرجات الحرارية الحارقة التى يمكنها صهر أى كتل حديدية يمكن اختراقها أيضا بأشعة الليزر، وعدد آخر من الأشعة النفاذة، والقاتلة لاختراق المعدات العملاقة، فما بال الانسان الضعيف بالنسبة للمعدات، والكتل الحديدية، وهو ماليس فى مقدور المسلمين فى دولهم النامية التى لاتستطيع اشباع شعوبها من الطعام، ولايستطيعون الحصول عليها من الغرب الذى يريد تصفيتهم، والتخلص منهم لأنهم أصبحوا شعوبا مستهلكة، وعبأ على الحضارة بعد أن يبيد بعضهم بعضا مثلما يحدث الآن، وهى المرحلة قبل الأخيرة..

ومن عجيب أمر هذه الجماعات تعمدهم الخروج على النظام، والقانون، والدولة ماهى الا نظام، وقانون؛ بل ان بعضهم يفتى بجواز الخروج على الدولة، وقوانين الدولة، ثم يأتيك بادعاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أقام الدولة فى المدينة، فإذا كان كذلك فكيف تكون هناك دولة بلا قوانين؟!.. سيقولون بلا تفكير لقد كانت قوانين اسلامية، وهو يجهل تماما أنها كانت قوانين تحكم العصر، والدول، والقبائل، وتختلف بإختلاف المكان؛ فالبيئة العربية التى نشأ فيها الرسول الكريم كانت تحكمها القوانين التى جاء الاسلام ليقر بعضها، وينظم البعض الآخر، ويعدل بعضها، ويلغى ما كان ينطوى على جهل، أو عصبية، أو اضرار بالناس..

وقادة هذه الجماعات عادة ليس لهم دراية بالتاريخ، والسيرة، والدراسات البيئية التى منها بيئة الرسول التى نشأ فيها، وتأثر بها إلى حد كبير، فيعتبرون الخروج على الدولة، وعلى القانون مفخرة زائفة، وبطولة من يلبس الريش، والألون الصاخبة من رجال القبائل البدائية، فلا يفعلون ذلك قناعة، وتعقلاً، فالعقل عندهم قد سلموه كاملاً بمحتوياته إلى المرشد، أو الشيخ المأفون ليأخذوا عنه كل ما يأمرهم به بلا تفكير، وهو لم يتبع هذا الشيخ، أو ذاك المرشد إلا لأنه لا يرى فى عقله أى ميزة تجعله يختلف كثيراً عن الأنعام، والأشياء التى يستخدمها..

يحكى أحدهم – من المرشدين، والمشايخ – فى مذكراته، ويشيد بنفسه كيف أنه كان فى شبابه يرتدى زياً مخالفاً لزى المدرسة التى قبلته على مضض، لأنه كان ناقص الأهلية لدخول مثل هذه المدرسة، وعادة ما يجد هؤلاء من يدافعون عنهم، وينحازون لهم فى دخول هذه المدارس ذات الأنظمة الصارمة، وعندما يدخل يجد نفسه فى صدام دائم مع أرباب المدرسة، أو مع أترابه لعدم قبول نظام، وقوانين المدرسة، فيلجأ إلى الدخول فى مهاترات، ومناقشات عقيمة مع الكبير، والصغير فى سبيل فرض رأيه، وتفكيره المريض على النظام القائم أصلاً..

لقد أدرك الغرب نزوع هذه الدول التى استعمرها الى الحرية، والتقدم بحكم

شعوبها النابهة التى يدعوها دينها الى التحرر، والنهوض بالعلم، والأخلاق فتنبأت أجهزة مخابراته بحتمية تحرر هذه الشعوب يوما ما، وانطلاقها نحو التقدم، والمنافسة خاصة بعد ظهور الثروات الطبيعة، والمواد الخام التى تعتمد عليها حضارته الحديثة؛ فأنشأت اسرائيل من العدم(لم تقم لاسرائيل دولة فى تاريخها الا أيام داود، وسليمان فقط، وهى فترة قصيرة جدا)، وأسكنتها فى قلب هذه الشعوب معتمدة على تعصب حفنة من اليهود لدينهم، فأغروهم بالعودة به الى منابعه الأولى فى مدينة القدس بعد أن أمدوهم بالمال، والسلاح..

ثم استداروا نحو المسلمين لينفذوا نفس المخطط اعتمادا على حفنة من المتعصبين الجهلة باسم الجهاد(الغالبية العظمى منهم لايحفظون القرآن، وممنوعون منعا باتا من تفسيره الا عن طريق الشيخ المرشد)، وأغروهم بضرورة العودة الى الخلافة الأولى فى الصحراء، ونبذ مفهوم الدولة الحديثة وتكفيرها، أو نبذ مفهوم الدولة أصلا، فأنشأوا الوهابية، ثم الاخوان المسلمين، ثم تنظيم القاعدة بعد أن أمدوهم بالمال، والسلاح لمقاومة أى حركة وطنية تظهر مستقبلا من أجل التحرير من الاستعمار، فاذا ماتم التحرر من الاستعمار أصبحوا وبالا على الحكم الوطنى باشهار سيف التكفير ضده، والعمل على الابتعاد عن الدولة، ومؤسساتها، وتسفيه من يعمل بها، ثم العمل على تخريب الدولة، وهدمها فى النهاية حتى يعود الدين الحق - بزعمهم - بجهاد المسلمين الذى كفروا به الى الصحراء مرة أخرى بعد ذبح الغالبية العظمى منهم..

عندما استتب الأمر للدولة السعودية الناشئة بعد لم شمل المملكة؛ عملت الدولة على التخلص من فلول الجماعات الوهابية المسلحة(جيش الاخوان) بضمها الى جيش الدولة النظامى؛ وبذلك استطاعت الدولة احتواء هذه الفورة، والاستفادة منها، وساعدها على ذلك ظهور البترول الذى أنعش اقتصاد المملكة الناشئة، ثم عملت الدولة على احتوائهم مرة أخرى عندما زادت عوائد البترول، وأراد الملك فيصل تحديث المملكة، وبذلك استطاعت الدولة احتواء الوهابية، وتحجيمها، ودمجها فى عمليات الطموح الى التطور، والتحديث، ومواكبة العصر؛ فاحتفظت الدولة بكيانها، واحتفظت الوهابية بمبادئها دون اصطدام بالدولة..

أما الاخوان المسلمين فهم الورم السرطانى للدول؛ الذى من الممكن ألا يزول الا بزوال الدول نفسها، فهم بالأساس تنظيم كالأنظمة الصهيونية، والماسونية التى تتذرع بالدين، والقيم للنفوذ الى هذه الدول، وجلب المؤيدين لها بالمال، والمناصب فى قلب الجماعة، ولايمكن احتواؤها فى الدولة كما هى، ولكن الحل الأمثل معها هو الضرب، والتفتيت، وسيطرة الدولة على التنظيم، واختراقه من الداخل، وتتبع مصادر تمويله، وخضوع أمواله للدولة، ورقابتها كأى جمعية خيرية تتبع وزارة الشئون الاجتماعية..

وبعد نجاح المخابرات الغربية فى زرع هذه النظم السرطانية من قلب العالم الاسلامى، فقد جلسوا الآن فى استرخاء وهم ينفثون الدخان، ويحتسون البيرة ليشاهدوا اللحظات الأخيرة لانهيار الدول العربية، والاسلامية، وبالتالى انهيار هذه الشعوب، واندثارها بدءا بانهيار الصومال سنة ١٩٨٩م، وانخفاض عدد السكان من ٢١ الى ١٨ مليونا مع الحروب البينية بين السكان المسلمين، مع الدمار، والخراب، وانهيار البنى التحتية، وتحويلها الى صحراء جرداء ليصبح طفل الصومال المسلم عبرة لمن اتخذ الاسلام دينا، وعقيدة، والمسلمون فى مقاعد المتفرجين يتنظرون دورهم، ثم سقوط الجمهورية الديمقراطية الأفغانية سنة ١٩٩٢م، حتى دخلت العراق فى الدور بداية من الحصار الاقتصادى سنة ١٩٩٠م، وانخفاض النمو السكانى من ٤ الى أقل من ٢٪، ولحقتهما السودان، تونس، وسوريا، واليمن، وليبيا بالثورات المستوردة من الغرب التى اختلط فيها الوطنى بالمتآمر، وعندما اتضحت الأمور برز دور المخابرات الغربية، والمحلية من حيث تلقى الصدمات وتفاديها، أو امتصاصها..

جاء الاسلام ببناء الفرد الذى هو نواة المجتمع المسلم، وبدأ الفقهاء بالحياد تجاه الدولة، ثم تجنب الخلفاء، والدولة بحجة أنهم ظالمون مع أن الفقهاء لم يبذلوا لهم النصيحة التى أوصوا بها سوى ماكان من الليث بن سعد، والعز بن عبد السلام فى مصر، ثم جاءت الحركات الحديثة فى الفكر الاسلامى بتكفير الدولة، ومؤسساتها وهو مالم يقل به أحد من الفقهاء من قبل، ولكنه استحداث، وبدعة توافق العمالة للمخابرات الغربية التى أنشأت هذه الجماعات، ودعمتها

ضد القوى الوطنية، والدول الناشئة، ومن ثم ساروا فى اتجاه هدم الدولة، والفرد معا، وهو ماأتى بثماره هذه الأيام فأصبح العنف بين الفرد، والدولة من موجبات الدين الذى أخذوه عن المخابرات الغربية مع العملات الصعبة..

أما القاعدة كتنظيم فهم كلاب النظم الغربية، وعملاء مخابراته الذين يطلقونهم وقتما يشاءون على من يشاءون؛ فليس له مستقبل الا كمستقبل كومباس الأفلام السينمائية، فهو قد فقد كثيرا بمقتل مؤسسه بن لادن، ولن تسمح له القوى الغربية بأن يكون له كيان، أو مكان محدد، كما أنه مقطوع الصلة بجنسية بن لادن السعودية التى تبرأت منه، كما أن أصله الوهابى غير التنظيمى يؤهله الى أن يعود أفراده الى الدول التى جاءوا منها مرة أخرى؛ كما حدث بعد خروج الاتحاد السوفييتى من أفغانستان..

■■■■■

الاخوان المسلمون:

يعتقد الاخوان أن اجتهاد حسن البنا هو اجتهاد ولى من أولياء الله، ولذا يعتقدون أنه لايخطىء(من صفات الله تعالى، والعياذا بالله وهو شرك بيّن) رغم أنه غير مؤهل بالمرة، فلم يدرس فى المعاهد الأزهرية المعتمدة، ولاأكمل حفظ القرآن على شيخ، وقد تجامل الجماعة حسن البنا لمجاملته لهم بأنهم الاسلام، ولااسلام خارج الجماعة..

ثم جاء سيد قطب الذى تربى فى كنف الماسونية، والالحاد ليصبح منظرا للجماعة التى نشأت فى كنف الانجليز المحتلين للبلاد الاسلامية، فيرى أن الخرافة جزء من المنطق الدينى(كيف يتفق المنطق مع الخرافة؟!)، وأنه يجب خصخصة الدين من خلال الجماعة لتخليص الأمة من أعدائها(وهو لايعترف بالأمة أصلا خارج الجماعة، ولكنها طنطنة سياسية يضمن بها ولاء شباب الأمة الجاهل خارج الجماعة)، واعادة تأسيس الخلافة العالمية، وتسويق النضال ضد السلطة، وحلفائها فى العالم لتجديد الاسلام(فهل أصبح الاسلام قديما يحتاج الى التجديد؟!)..

وكان سيد قطب ضمن خطة ادخال أفراد صوريين فى الاسلام، ثم ايصالهم الى مراكز القيادة، والحكم لتطبيق، وتحقيق أهداف وزارة المستعمرات البريطانية فى السيطرة على العالم الاسلامى، وتشكيل توجهاته التى تخدم أهدافهم الاستعمارية، كما استعانوا بالمستشار الهضيبى الذى كان ماسونيا معروفا بتولى مرشد الجماعة بعد مقتل حسن البنا مع أنه لم يكن أصلا من أعضائها، وقد قاما الاثنان بدورهما خير قيام فى خدمة الأهداف الاستعمارية، وليس فى خدمة الاسلام كما ادعيا هما وأتباعهما..

لقد اختار قطب فترة حياة النبى مع الصحابة فى المدينة كفترة مثالية من حياة الاسلام تستحق المحاكاة، ولايدرى الجاهل كيف عاش الغالبية العظمى منهم حياة الترف، وعاشوا كملوك الفرس، والروم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم الذى عاش حياة التقشف مختارا، ومع اصطدام المنظرين الجدد باستحالة محاكاة هذه الفترة(عشر سنوات) لاختلاف الزمان، والمكان، والظروف، والبشر، اضافة الى عدم وجود الرسول، والقدوة ليدخلوا بالمسلم المعاصر فى الانسداد الكبير، ويتحول الى يآس يلجأ به الى العنف، والتدمير فيصبح ارهابيا، أو الحيود الكامل عن الدين بالالحاد، أو الارتداد..

ويرى قطب الماسونى أن خليفة المسلمين من الرؤوساء المدنيين ضد التوجيه الالهى على مر التاريخ(لم يورد لنا التوجيه الالهى من القرآن كالعادة، وانما هى نظريات فى الرؤوس المكددوة بالهوس الدينى، كما لايعلمون شيئا عن مساخر الخلفاء، وماآل اليه الاسلام والمسلمون على مر العصور من جراء هذه المساخر)، ولذا فالمجتمع يعيش تحت حكم غير حكم الخلافة الاسلامية، فهو لذلك مجتمع جاهلى(لم تكن الخلافة موجودة فى فترة حياة النبى، ولابشر بها، فهى بهذا المنطق فترة جاهلية أيضا، وقد أيد الاسلام كثيرا من أخلاق هؤلاء الجاهليين، وقوانينهم فى الزواج وغيره)، وبالتالى فهو مجتمع كافر(راجع ابن تيمية، ومحمد عبد الوهاب، وأبا الأعلى المودودى)، ويتعين على المسلمين(لم يحدد خارج، أو داخل الجماعة؟!) الجهاد ضده، كما يحق للمسلم(طبعا مسلم الجماعة) تكفير، واقصاء من لايشاطره هذه المعتقدات، والآراء..

الوهابيون:

تكفير محمد بن عبد الوهاب لمن اعتبرهم أعداءه هو شخصيا(فلايقول عدو الله ورسوله، ولاعدو الاسلام)، وهم أنواع وجب قتالهم لكفرهم:

- نوع عرف التوحيد، ولكنه لم يلتفت اليه، ولاتعلمه، ولادخل فيه، وعرف الشرك أيضا ولم يتركه..

- من عرف هذا؛ ومع ذلك فضل أهل الشرك..

- من عرف هذا، ولكنه يكره الموحدين، ويحب بقاء المشركين على الشرك..

- من عرف ذلك؛ وأهل بلده يعادون التوحيد، وأهله، كما يتعذر عليه ترك بلده، وأهلها(يعنى الهجرة اليه شخصيا ليفدى نفسه من القتال، مع نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الهجرة بعد الفتح - فتح مكة - لقوله:"لاهجرة بعد الفتح، ولكن جهاد، ونيه")..

ولذا قالوا عنه أنه يكفر من لايكفر بتكفيره(يكفر المسلمين، ومن لايكفرهم)، ولم يقاتل معه لهذا الغرض..

وفى كتاب "تاريخ نجد" الذى صنفه حسين بن غنام أحد رفقاء محمد بن عبد الوهاب، وبايحاء منه عن حياته، وأفكاره، وغزواته لايذكر الكتاب المسلمين الا اذا كانوا أتباع ابن عبد الوهاب، أما ماعدا هؤلاء من مسلمين فقد ذكرهم الكتاب مرة "بأهل الضلال"، ومرة أخرى "بالأعداء"، ومرة ثالثة "بالمرتدين" الذين وجب قتالهم حتى يدخلوا فى اسلام محمد بن عبد الوهاب، ويدفعون الأموال..

وهو نفس كلام أتباعه فى هذه الأيام التعسة الذين يرمون كل من ينتقد جهلهم، وتصرفاتهم المشينة، وسلوكهم الهمجى الخارج عن الدين الحنيف بأنهم يكرهون الدين كلية..

قتل "الوهابيون" فى مطلع القرن التاسع عشر قرابة ٣٠ ألف مسلم من حجاج بيت الله الحرام بملابس الاحرام، ونهبوا متاعهم بزعم أنهم كفار، مما حذا "بالسلطان العثمانى" الى الاستعانة "بمحمد على" والى مصر الذى بعث بدوره ابنه "ابراهيم" على رأس جيش من المصريين لملاقاة الوهابيين فى "موقعة

الدرعية"..

هيأ الاستعمار الأموال، والسلاح، والتدريب لهؤلاء للسيطرة على الجزيرة العربية ليجعلوا للمسلمين مرجعاً دينياً بديلاً عن الأزهر الشريف الذى كان يعمل على نشر عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد نجحوا فى ذلك بعد أن تحول الأزهر الى مرتع، وحظيرة لهذه الدواجن الاستعمارية أفرزت الارهاب، والارهابيين فى وقتنا الحاضر..

والوهابية لاترى شيوخاً سوى ابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب فهى تجعل كلامهم نصوصاً لا تقبل التأويل؛ فجعلوا لهذه النصوص قدسية توازى نصوص القرآن، والسنة..

لقد ثارت أسرة ابن عبد الوهاب عليه، وانتقدت ميوله التكفيرية، فألف أخوه سليمان كتاباً أسماه "فصل الخطاب فى الرد على محمد بن عبد الوهاب"..

كان ابن عبد الوهاب إذا باينه أحد ولم يقدر على قتله يرسل إليه من يغتاله فى فراشه، أو السوق ليلاً لتكفير من خالفه، واستحلال قتله، ويقول كل ماهو تحت السبع الطباق مشرك على الاطلاق ومن قتل مشركاً فله الجنة..

وكان يقول إنى أتيتكم بدين جديد، وهو يعتقد أن الاسلام منحصر فيه، وفيمن تبعه، وأن الناس سواهم كلهم مشركون..

ويقول أحمد بن زينى دحلان فى كتابه "أمراء البلد الحرام":

-"ان الوهابية عندما دخلوا الطائف وجدوا جماعة يتدارسون القرآن فقتلوهم عن آخرهم، وقتلوا الرجال فى المساجد بين راكع، وساجد، ونهبوا النقود، والآموال، وصاروا يدوسون بأقدامهم المصاحف، ونسخ البخارى، ومسلم، وبقية كتب الحديث، والفقه، والنحو بعد أن نشروها فى الأزقة، والبطائح، واقتسموا أموال المسلمين المنهوبة كما تقسم غنائم الكفار"..

ومع هذا السلب، والنهب ارتفعت أسعار السلع الغذائية، وعم البلاء بلاد نجد كلها، وطال لعدة سنوات مات فيها الكثير من الرجال، والنساء، ومن عاش منهم لم يستطع أداء الصلاة من شدة ضعفه، وهزاله فضلا عن وفيات الأطفال،

ونفوق البهائم، فهم لايفعلون شيئا سوى الاغارة، وتقسيم الغنائم..

نال ابن عبد الوهاب من الأنبياء، والمرسلين، والأولياء والصالحين، وقد أفتى الشيخ أحمد بن زينى دحلان - مفتى مكة - بأن النيل منهم كفر بإجماع الأئمة الأربعة..

وأفتى ابن عبد الوهاب فقال:

-"أيها المسلمون لا ينفع إسلامكم إلا إذا أعلنتم الحرب الشعواء على هذه الطرق الصوفية فقضيتم عليها، قاتلوهم قبل أن تقاتلوا اليهود، والمجوس"..

وعلى ذلك يكفرون كل المسلمين فى كافة الأمصار الاسلامية لأنهم يعبدون البشر مثلما يعبد المصريون أحمد البدوى، وأهل الشام يعبدون ابن عربى وهكذا، ويكفرون أيضاً من يصل على النبى عشرة آلاف مرة، أو يقول لا إله إلا الله ألف مرة..

فى جريدة السفير ٣٠ /٢٠٠١/٦ كشف الأستاذ محمد حسنين هيكل عن وثيقة لأحد كبار زعماء الوهابية يقول فيها لا ينبغى أن يكون هناك قتال بين أخيار المسلمين، أو الوهابيين إلا مع المشركين، والكفار، وأول الكفار المشركين هم الأتراك العثمانيون، وأيضاً الأشراف الهاشميون؛ وباختصار كل المحمديين فيما عدا الوهابيين..

ويمتنع شيخ الوهابية المغربية "ابن داود الخملى" عن الصلاة فى المساجد، ولا يصلى الجمعة لأنها تقام فى بلد كافر، كما دأب على التحريض على القتل، والتفجير، والتخريب..

ونلحظ من سيرة هؤلاء أنهم لم يقاتلوا غير المسلمين كما اتفق معهم المستعمر الانجليزى، ولم يقاتلوا اليهود، ولا غيرهم، ولن يقاتلوا كما وصفهم الرسول الكريم:

-"يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الأوثان" صحيح البخارى..

وهم كما يفعلون فى سورية، والعراق هذه الأيام كانوا يفعلون فى الجزيرة العربية، وجنوبى الأردن يذبحون المسلمين وهم يقولون بسم الله .. الله أكبر

وكأنه يذبح حيوانا، وقد كرم الله تعالى الانسان..

بل أفتى أحدهم؛ وهو "ناصر الدين الألبانى" بخروج الفلسطنيين من أرضهم، وتركها لليهود، وهو مايبين لمن يعمل، ومع من يعمل هؤلاء..

حول الدعوة الى الاسلام

الدعوة لاتبذل عادة الا لغير المسلمين لتدعوهم الى الاسلام، كما أن أسلوب الدعوة المتبع هو الخطاب، والبيان الذى يحرك المشاعر، ويتحدث الى القلب؛ فلا تخرج الكلمات موزونة منطقية، بل عبارات أريد بها فقط اثارة الحس بالتهويل، والكلمات المثيرة، أما الدعاة المطلوبين فدورهم الأساسى هو التعليم، يعنى تعليم المسلمين أمور دينهم كما فعل القدماء، وتبصيرهم بمبادىء الاسلام، وأهدافه فى بناء الفرد، والمجتمع والا فقد جاؤا لدنيا يصيبوها لصالحهم..

يقول على الوردى فى كتابه "وعاظ السلاطين":

-"لقد صار الوعظ مهنة مربحة لكل من فشل فى الحصول على مهنة أخرى، فهى تمنحه مركزاً اجتماعياً لا بأس به، ولا تحتاج إلا الى حفظ بعض الآيات، والأحاديث، واطلاق اللحية، وارتداء ملابس فضفاضة قصيرة، ثم اعلان الويل، والثبور على الناس، فيبكى، ويستبكى، ثم يأتى المترفون، والأغنياء ليغدقوا عليهم، فيقوموا بارهاب الفقراء، والمساكين من هؤلاء ومن الآخرة، ويبررون غناهم، وسفاهاتهم"..

إن الواعظ يؤدى فرائض الاسلام التى عليه بأموال الأغنياء الطائلة، وينسى، أو يتناسى أن الفقر، والكفاح المرير، والذل فى الحياة من أجل سد الرمق فقط قد يلهى عن الاسلام، وفرائض الاسلام كلية؛ فالصلاة تحتاج الوقت الذى لا يمتلكه الفقير لأنه مربوط فى الساقية، وربما لو صلى يعتبره صاحب العمل سارقا من وقت العمل، والصوم يحتاج افطارا، وسحورا وهو صائم أصلا، أو صائم عن الكثير من أطايب الطعام كاللحم، والفاكهة، والحلوى مثلاً، كما أنه يسمع المشايخ يعللون الصوم من أجل الاحساس بآلام الفقير، وهو فقير فعلا

فلما الصوم اذا؟!..

جهل القائمين بالدعوة يوقعهم فى التكرار الممل، أو النقد المخل دون ذكر لقرآن، أو سنة، وهم يعتمدون على الاسترسال الذى يسعفهم فيه السجع، والجناس، وشىء من الشعر يذكرنا بشاعر الربابة فى عصور التخلف، والاستعمار الذى كان يجتمع عليه الناس قبل انتشار الاذاعة، والتليفزيون قطعا للوقت، والملل سواء على المقاهى، أو فى الطرقات، وهم أيضا لايملون تكرار المناسبات مثل الأعياد، والمواسم؛ فتراهم يرددونها برتابة دون تجديد، أو حتى ابتكار فى السرد(اشتهر الشيخ الشعراوى عندما استضافه الأستاذ أحمد فراج فى برنامجه نور على نور، فتحدث الشيخ عن الاسراء والمعراج بطريقة لم يسمعها الناس من قبل فطلبه الناس، بعد أن سمعوه)، وقد يوردون أشياء، ويعرضون عن أشياء، ويغفلون عن أشياء جهلا، أو اعراضا..

ففى العيد مثلا حفظنا منهم شروط الأضحية التى يتحدثون عنها كل عام على الرغم من أن واحدا فى الألف من المستمعين هم من يستطيع شراء الأضحية، ولم نسمع أن أحدهم تحدث عن طريقة، وشروط الذبح، وتحريم أن يرى الحيوان السكين، وأدوات الذبح، كما يجب ارهاف السكين، وماذا يقال عند الذبح، وقد انعكس هذا على المسلمين جميعا من حيث جهلهم المطبق باحكام الذبح، خاصة الجزارين منهم(حتى ضرب بهم المثل فى سفك الدماء بغير حق)، والعاملين فى هذا المجال الذين يتعاملون مع الحيوانات بمنتهى القسوة، واللامبالاة، حتى أن أستراليا فى أحد الأعوام امتنعت عن تصدير الخراف الى مصر؛ نظرا للتقارير التى ترفع اليهم من المنظمات العالمية للرفق بالحيوان عن المعاملة السيئة، التى تلاقيها هذه الخراف المسكينة فى مذابح مصر، وأتذكر حكاية أخبرنى بها أحد سكان الضفة الغربية عن الذبح لدى اليهود فى فلسطين المحتلة؛ حيث لايتم الذبح اطلاقا الا على أيدى ثلاثة متخصصين منهم أحدهم لسن السكين، والثانى لاختبار السكين بأن يمر بظفر الأصبع الابهام على جوانب السكين للتأكد من نعومة الجوانب؛ ليعيدها الى السنان مرة أخرى فيقوم بسنها من جديد، وارهافها حتى يستطيع مناولتها للجزار الذى يقوم بالذبح قبل أن يرى

الحيوان السكين فى يده، فيا حظ الحيوان الذى تذبحه اليهود، ويابؤس الحيوان الذى يذبحه المسلمون فى مصر، وياويلنا اذا قلنا للجزار هذا الكلام لأغرق منا ضحكا، وسخرية من الحنان المفرط الذى أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم..

لماذا لاتكون الخطبة موضوعية بحيث يلقيها الخطيب من ورقة أمامه يقرأ منها؟.. أو يتذكر على الأقل، فتلقى الخطبة على الناس متجانسة، وشاملة، ومدعومة من الكتاب، والسنة، وأقوال الفقهاء، والمجتهدين بدلا من السجع، والاسترسال، وخروج المصلين من الخطبة دون معلومة يدعم بها تدينه، والتزامه، وقد يلجأ بعض الخطباء الى مواراة جهلهم بالقاء سيلا من النقد، والتهكم على خلق الله من المسلمين الذين لايعرفون معلومات معينة عن الدين، وأحكامه، أو بعض المعلومات عن الشهور العربية مثلا الذى كال فيها أحد الخطباء للمصلين النقد، والتهكم من أن البعض لايعرفون عنها الكثير؛ رغم أنه لم يبذل مجهودا فى قراءتها على الناس كى يحفظها من لايحفظها، ومالمانع أن يتلوها على الناس كل جمعة فهو لايدرى أن الناس تأتى للصلاة، والتعلم فى يوم كهذا، ومن هذا ندرك ماجناه هؤلاء على الاسلام، والمسلمين، من غرابة الاسلام بين أتباعه(الغالبية العظمى منهم لاتميز بين الدعوة، وتعليم الاسلام) حتى لتستشعر أن همه الأكبر ينحصر فى ادخال المصلين الى جهنم، واحكام اغلاقها عليهم بالمفتاح الذى عادة مايأخذه معه بعد الخطبة..

وهم قد ثبتوا فى عقول الناس كثيرا من الترهات، والأضاليل، والخزعبلات التى تدل على أخذها شفاهة بالوراثة عمن قبلهم(المناولة)، فيأخذون عن مشايخهم دون تفكير، أو تدبر، ودون مراجعة، أو تساؤل، والهول، والثبور، وعظائم الأمور لم ينتقد أحد مشايخهم، فربما كان القتل هو الرد المناسب..

وعندما ينقلون لنا سير بعض الصالحين الذين عاشوا قبلنا ليباهونا بها، وعادة لايغفلون اتهامنا بالقصور عن بلوغ مابلغه هؤلاء، ولايدركون أن العصر – كما فى كل العصور – لم يكن كله على هذا الصلاح، ولايفهمون أن كل عصر، وكل مكان فيه الصالح، والطالح كما فى عصرنا تماما، ولم يخل عصر من هذا، وذاك

حتى فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم، والا فما كان الله ليرسل رسلا لاناس مهديين سلفا!..

راحوا إلى السلف، وجردوهم من جميع عيوبهم، وماكانوا الا بشراً مثلنا يأكلون، ويمشون فى الأسواق كسائر الناس يخطئون، ويتحاسدون، فجعلوهم من طراز الملائكة، وكأنهم قد فاقوا النبى نفسه فى أخلاقه، وزهده فى الدنيا، فنسوا أخلاق من علمهم، وهذبهم..

-"**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**" الفتح ٢٩..

الرعيل الأول الذى عاصر الرسول الكريم لم يكن كله معه على النحو الذى تصفه الآية، فليس كل من صحب الرسول بصحابى، ولم يكن بعضهم أشداء على الكفار، رحماء بينهم، والا ماميز عنهم هؤلاء:

-"**من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه**" الأحزاب ٢٣..

بعضهم جاهد نفسه، وسما بها الى أعلى عليين، والبعض أرهقه الضعف الانسانى، وغلب عليه أصله البدوى الغليظ، وبيئته القاحلة فأخطأ، والقسم الثالث منهم لزم بيته، وآثر اتقاء الفتنة التى حذر منها رسول الله مثل عبد الله بن عمر، وسعد بن أبى وقاص الذى قال قولته البليغة فى الفتنة:

-"ائتونى بسيف يميز بين الحق والباطل"..

وهذه نماذج ممن صحبوا رسول الله، ولم يكونوا معه:

-"**ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين**(٧٥) **فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون**(٧٦)" التوبة..

-"**ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن**" التوبة ٦١..

-"**ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون**(٦٥) **لاتعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم** (٦٦)" التوبة..

تقاتل المسلمون فى صدر الاسلام، وتنازعوا، وأصبحوا فرقاً بالآيات، والأحاديث، وكل فرقة منهم تحارب الأخرى بفيض من الآيات، والأحاديث، يقول

على بن أبى طالب:

-"القرآن حمال أوجه"..

بمعنى أنه محمل بتفاسير متنوعة أطلقها كل حزب، ليستطيع أن يدلس بها ضد الآخرين..

قاتل المسلمون، وقتلوا من خالفهم فى الرأى فى صدر الاسلام بدم بارد، وسبوا نساءه مستندين الى الآيات القرآنية التى فسروها لصالحهم، وكم هائل من الأحاديث التى تبرر أفعالهم، بل التى تعتبرهم فى مرتبة المجاهدين الغيورين على الدين؛ حتى أنه لم يسلم من ذلك أحفاد، وحفيدات رسول الله عندما قتلوا الحسين، وسبوا نساءه، وبناته بعد قتله سافرات باعتبارهن سبايا من سمى نفسه بأمير المؤمنين يزيد بن معاوية، ثم قام وراءه أرتال من مشايخ سموا أنفسهم بأهل السنة يبررون مافعله الحاكم، وينعون على الحسين فعلته التى خالف بها جده صلى الله عليه وسلم حتى نسبوا قتله لجده ظلما، وسفها، وارتزاقا بالدين؛ فقالوا: -"لقد قُتل الحسين بسيف جده"..

ويروى البخارى أن الصحابة تشاتموا مرة أمام النبى، وتضاربوا بالنعال، ويروى أيضا أن النبى أثناء مرضه الذى توفى فيه أمر أن يؤتى له بدواة، وقرطاس ليكتب للناس كتاباً لن يضلوا بعده أبداً، فرفض البعض، وقالوا عنه انه "يهجر"، أى "يهذى"، وتنازعوا فيما بينهم، فأمرهم النبى بالخروج، ولم يكتب ما يريد(مع الأسف)..

-"ان الأمة فى تدهور خلفى، وخلل اجتماعى بدت أعراضه فى كل مظهر من مظاهر الحياة فى المنزل، وفى الشارع، وفى المصنع، وفى المتجر، وفى كل بيئة، وفى كل وسط، ودوام هذا الحال يؤدى بنا إلى أوخم العواقب، وأحط النتائج"..

هذا نموذج قيل فى خطبة أحدهم عام ١٩٣٠، ومنه يرى القارىء أن الأسلوب لم يتغير منذ التاريخ المذكور(أكثر من ثمانين عاما)، حيث الخطاب لازال متداولا على المنابر حتى وقتنا هذا، ولاأعتقد أن التقصير منا نحن بقدر ماهو من هؤلاء الدعاة، المصرين على العودة بنا الى القرون الوسطى بنفس أسلوب القرن الماضى، ولايرون تغييرا فى الناس، والزمان، فهم لايريدون الذهاب بعيدا عن

هذا الزمان، فهذه طاقاتهم الذهنية ولايستطيعون تجاوزها، وعندما زرت المركز الاسلامى فى لندن وجدت المؤهلين علميا من المهندسين، والأطباء، والعلميين أكثر بروزا فى مجال الدعوة، والاقناع بها من المشايخ المبعوثين لأجل ذلك..

سمعنا عن دورات عقدتها وزارة الأوقاف المصرية لأئمة المساجد بخصوص قضايا موجهة، أو ماأطلقوا عليه "تجديد الخطاب الدينى" الذى تحول هذه الأيام الى مايمكن أن نسميه "البذاءة باسم الدين"، وحل التقيؤ، وطرح قذارة الألسنة فوق المنابر محل الحكمة، والموعظة الحسنة..

المشايخ، وأنصاف المشايخ، وأشباه المشايخ، واللامشايخ المستعدين لتأليف دين لكل المقاسات، والأذواق، والظروف؛ الذين اتخذوا دينهم لهوا، ولعبا عندما يفرضون تشريعا معينا، ثم يبحثون فى الدين عما يؤيد ماذهبوا اليه تراهم من أشد المتشددين فى انحيازهم للسنة؛ التى تعتبر متسعا لهم لفرض مايرونه من تطرف فى أحكام الدين لآن القرآن واضح، وصريح حتى اذا تم تأويل الآيات، أو ابعادها عن مسارها، أو الهدف الذى نزلت له فيلجأون الى التعميم، أما السنة ففيها متسع لكل من هب ودب، واذا لم يجد - وهذا محال - ذهب الى تصحيح ماضعفه البعض فهناك أكثر من ٦٦٠ ألف حديث يمكن القول أن ٩٠٪ منها موضوع، فأغلب الأحاديث التى رواها رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت فى العشر سنوات التى قضاها فى المدينة، وهى المعروفة بفترة التشريعات التى نزلت بها الآيات المدنية، فلو كانت السنة الهجرية ٣٥٤ يوما مضروبة فى ١٠ سنوات، فيكون عدد الأيام ٣٥٤٠ يوما، فاذا روى عن الرسول ٢٠ حديثا يوميا عبارة عن أقوال، وأفعال(وهو كثير لأن الأحاديث ليست هى العمل الوحيد للرسول الكريم الذى كان يقوم بعمل أشياءه الخاصة بنفسه كمساعدته لأهل بيته مثلا، بما كان معروفا عنه بمشاركة أصحابه فى حفر الخندق، وبناء المسجد مثلا) فتكون الحصيلة الفعلية ٧٠٨٠٠ بما يساوى ١٠ ٪ تقريبا من المرويات الصحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أو أقل..

قال صلى الله عليه وسلم:

-"انكم ستختلفون من بعدى، فما جاءكم عنى فأعرضوه على كتاب الله فما

وافقه فمنى، وماخالفه فليس عنى"..

وفى معرض طرحه لقضية روايات الحديث قال ابن خلدون فى مقدمته:

-"لو انتقدت روايات الحديث من جهة فحوى متنها، كماتنقد من جهة سندها لقضت المتون على كثير من الأحاديث بالنقض، وقد قالوا ان من علامة الحديث الموضوع مخالفته لظاهر القرآن، أو القواعد المقررة فى الشريعة، أو للبرهان العقلى، أو للحس، والعيان، وسائر اليقينيات"..

انتشر وضع الحديث خلال الصراعين السياسى، والاجتماعى خدمة لهذا الجانب، أو ذاك فوقف "أبو حنيفة" موقف أستاذه، وصديقه "جعفر الصادق" من الحديث بتحرى الرواة وصدقهم، وتحرى معانى الحديث، ورفض منها ماشك فى صدق رواتها وتقواهم، أو مايخالف نصا قرآنيا، أو سنة مشهورة، أو مقصدا واضحا من مقاصد الشريعة؛ وقد فحص أحاديث عصره التى كانت بعشرات الآلاف فلم يصح منها فى نظره الا نحو سبعة عشر ولذا اتهمه خصومه - ومنهم "ابن أبى ليلى" قاضى القضاة، وتابعه "شبرمة" - بأنه يفضل القياس على الحديث، فرأى أبو حنيفة أن القياس الصحيح يحقق مقاصد الشريعة، ويجعل الأحكام أصوب، وهو خير من الاعتماد على الأحاديث غير الصحيحة، وكان "عبد الله بن مسعود" يفضل أن يفتى باجتهاده؛ بدلا من أن يسند حديثا الى النبى لايرى يقينا أنه صح عنه صلى الله عليه وسلم..

أما مالك فكان أفقه الناس بالحديث، وآثار الصحابة، والرأى عنده سنة فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

-"أنا أقضى بينكم بالرأى فيما لم ينزل فيه وحى".. وكان الرسول الكريم يشاور أصحابه ويأخذ برأيهم..

فوضى الفتاوى وجهل رجال الدين بالعلوم المادية:

أثارت فتوى الدكتور "القرضاوى" التى نشرتها جريدة الجمهورية فى العاشر من يونيو ٢٠٠٤ بجواز اختيار الزوجين لنوع الجنين ذكرا كان، أو أنثى ردود فعل كبيرة ليس لدى علماء الدين فقط، ولكن بين علماء الوراثة، والبيولوجى الذين

حذروا من التمادى فى العبث العلمى من استخدام ماوصل اليه العلماء من اكتشافات فى تطبيقات قد تأتى بآثار سيئة على المجتمع العالمى، ويدعو الدكتور "عبد الحكيم الصعيدى" أستاذ الوراثة بكلية زراعة الأزهر علماء الدين بألا يبرروا للناس أهواءهم، وأن يشرحوا لهم الصواب ليلتزموا به، وألا يتحدث علماء الدين فى قضايا علمية الا بعد استشارة المتخصصين فى ذلك، لأن من يفتى بجواز تحديد نوع الجنين قد تكون معرفته بعلم البيولوجى ضئيلة؛ حيث شدد على أن هناك توازن يفرضه الله تعالى بين الذكر، والأنثى لاينبغى للانسان بمحدوديته العلمية، والزمانية أن يتدخل فيه حتى لاتحدث كارثة فى التوازن البيولوجى، كما أحدث فى الاخلال بالبيئة..

شاهدت حلقة تليفزيونية تناقش أحد الشباب الملحدين، وقد جاءت له المذيعة بعميد كلية الدراسات الاسلامية بالأزهر الشريف ليرد عليه دينيا، بينما أوضح الشاب الملحد أن نظرية التطور لداروين كانت من الأسباب القوية لما هو عليه، وهى النظرية التى أثرت علينا عندما درسناها فى المرحلة الثانوية، وفى الجامعة، ولكن عمق الدراسة جعلنا ندرك الثقوب، والمآخذ الكثيرة على هذه النظرية مثل افتراض الحلقة المفقودة بين الشُعب الحيوانية كالزواحف، والطيور مثلا والتى لم تستطع النظرية التدليل عليها، أو القطع بها، فكان ينبغى أن تأتى المذيعة بأحد الأساتذة المتخصصين فى هذه النظرية التى قرأ قشورها هذا الملحد، ولم يتعمقها وهو مايمكن به لهذا الأستاذ كشف قصور الفهم الذى لديه، والجهل بأبعاد النظرية، وكيف هُجرت ولم تعد تصلح علميا الا لتقسيم الكم الهائل من الحيوانات التى تموج بها الحياة والتى لايزال العلماء يكتشفون الجديد منها حتى الآن، أما رجل الدين الذى كان موجودا فكان من الواضح جهله التام بهذه النظرية، فبدت الحلقة كما لو كان كل منهما فى واد، ووجود المتخصص كان سيفيد كثيرا فى تسفيه اتجاه هذا الملحد الذى استسهل الالحاد دون التحقيق فى أسبابه، كى يعود الى دينه خاصة أنه سوف يتزوج فى غضون سنوات، وسينتقل شكه، والحاده بالضرورة الى زوجته وأبنائه فتتسع دائرة الالحاد، وهى مشكلة رجال الدين، أو تقصيرهم، وكسلهم الذى سيحاسبون عليه بالتأكيد فى

هذا العصر الذى يجب عليهم فيه الالمام بعلومه الكثيرة..

لاتكفى دراسة العلوم الشرعية، والنقلية فقط للمتصدرين للدعوة، والافتاء فى أمور مسلمى العصر الحديث، ولكن ينبغى الاحاطة بالعلوم الانسانية، والعلوم التقنية، والحديثة، وبدون هذه النوعية من الفكر المزجى، والمتنوع، فلن تجدد الأمة شيئا من دينها، وعرضه، وتبليغه سوى البغض، وصراع المصالح، وماستجد عليها هذه الأيام من صراع الكراسى، واكتناز الأموال لتسقط فى غياهب الجهل، والتخلف..

الحجاب:

ومن القضايا المطروحة؛ هل كان انتشار الحجاب بسبب زيادة الهجرة من القرية الى المدينة فى مطلع عصر الانفتاح؟.. حيث احتفظ الريف بمظاهر الحشمة ظاهريا - الى حد ما - عن المدينة فلما جاءت المرأة الى المدينة(بالهجرة، أو الزيارة) وجدت فى الحجاب مظهرا من مظاهر الحشمة، والحفاظ على التقاليد، حتى لايقال أنها انقلبت على أصلها، على أن عمل المرأة الريفية قد حال فيما يبدو بينها وبين الحجاب الكامل التى عرفته المدينة؛ والتى ارتدته المرأة فى المدينة بداية كنوع من الموضة، وقد ساعد خروج المرأة بكثرة الى التعليم، والعمل فى مصر(بسبب مجانية التعليم) على انتشار الحجاب بينهن بسرعة كبيرة، حيث تركز الحجاب فى تغطية الشعر الذى كان شغل المرأة الشاغل عند خروجها من البيت؛ بما توليه من عناية خاصة به، فكانت نسبة كبيرة منهن يذهبن الى حلاق السيدات(الكوافير) لهذا الأمر، فأصبح الحجاب هو الحل العملى للخروج من المنزل(كان أحد كبار الدعاة يندد - على المنبر - بالمرأة التى لاتتطهر من الجنابة، وتذهب الى عملها جُنُبا حتى لاتغسل شعرها فتضطر الى الذهاب مرة أخرى الى الكوافير)..

ثم بعد ذلك ارتدته المنفلتات من أرباب تجارة الجسد كنوع من اضفاء الاحتشام، والوقار، ودرء الشبهات كما يحدث فى النقاب الآن الذى أصبح ستارا أخلاقيا لكل من أرادت ممارسة ماهو خارج حدود الفضيلة، والأخلاق من سرقة، ودعارة، وتزوير، وقتل، وأرى أن مرتكبى الجرائم قد دفعهم مروجى هذا الملبس

دفعا الى التمادى فى جرائمهم دون رقيب، أو حسيب، وانتشر هذه الأيام من ترتدى نقابا، وهى تستجدى الناس فى الطرقات، ومن تجرى بسيارتها دون أن يعرف من حولها من يقود السيارة، وماذا لو صدمت سيارة أخرى، أو دهمت انسانا؛ هل ستقف؟.. وهل ستكشف عن وجهها عندما يطلب منها رخصة القيادة؟.. وما فائدة الرخصة، أو حتى البطاقة الشخصية لانسان لايكشف عن وجهه؟.. وبدون الوجه كيف أميزه عن غيره؟.. ولماذا تخرج من بيتها أصلا مادامت تريد التستر، والتوارى عن الناس؟!.. ومن المضحكات هذه الأيام ظهورهن فى الصور فوق اللافتات ككتلة سوداء، فما هو المبرر؟..

ان الأدهى أن هناك من يطالب بعدم كشف الوجه المنقب عند التحقق فى القضايا، انه شىء أشبه بتجار المخدرات، وعصابات المافايا حين يقدمون شخصا آخر للمحاكمة يحمل التهمة على عاتقه ليسجن، أو حتى يعدم والمجرم الحقيقى قد أفلت بحيلة بسيطة، خدع بها كل المجتمع الغافل عما يفعل هؤلاء المجرمون بزعم أوامر الدين، الدين الذى حرم النقاب على المعتمرة، والحاجة، وكره الزواج ممن لاتتطلع الى وجهها، فالوجه مناط الخير، والشر فى مظهر الانسان بصفة عامة، وقد أمرنا رسولنا الكريم باستحسان الوجوه، وأمرنا بالتبسم فى وجه من تلقاه لأنه من الصدقات التى لاينبغى على المسلم التخلى عن اكتسابها، فكيف لو كان هذا الوجه يستتر بالسواد، والأولى أن يستتر الجسم كلة وراء جدران البيت، ان قمة العدل الالهى سيبلغ ذروته يوم القيامة عندما نقف أمامة تعالى للحساب عرايا جميعا دون تمييز بالملابس..

أموال المسلمين تقتل المسلمين وتخرب بلادهم:

الخطأ الأفدح هذه الأيام هو ترك جمع الزكاة، والصدقات للجمعيات الخيرية تحت مسمى العمل الخيرى، الذى أصبح اختراقا لأمن الدولة الداخلى أدى الى تحول هذه الجمعيات - كنتيجة لذلك - للعمل السياسى، أو للاستقطاب السياسى على الأقل بعيدا عن مركزية الدولة فى جمع الأموال من الناس تحت أى مسمى، وهو ماحرص النبى صلى الله علي وسلم على اجتنابه فى حياته عند جمع الزكاة، والصدقات، وتبعه فى ذلك أبو بكر الصديق من بعده، اذا شدد على

أن تكون الزكاة، والصدقات فى يده هو، تعبيرا عن مركزية سلطة جمع المال وعدم تركها على المشاع، فأنفذ الجيوش، وأقام الحروب من أجل ذلك، ثم جاء عمر ليجعل للمال العام بيتا خاصا يشرف عليه هو شخصيا، صرفا، وايداعا كحاكم للمسلمين..

ولكن لأهمية تأدية الزكاة له شخصيا كممثل أوحد للمسلمين، ومسئول عنهم، وعن دولتهم، والا لصار جمع الزكاة، والصدقات مجالا لانقسام المسلمين، وتشرزمهم، وحذا الأمويون، والعباسيون حذو أبى بكر، وتأتى الدولة المصرية هذه الأيام لتتركها فى أيدى العامة، وأئمة المساجد، وكل من أنشأ جمعية خيرية، فنشأت بعض المستوصفات العلاجية، وبعض مظاهر كفالة الأيتام، ورعاية بعض الأسر الفقيرة رمزيا، فتخلت الدولة ببساطة عن قضاء حاجات الناس المنوطة بها، ثم بدأ الارهاب بالاستفادة بهذه الأموال الطائلة، التى لاتعلم الدولة عنها شيئا، فاشتروا بها الأسلحة، وجندوا بها العاطلين، لتصبح هذه الأموال ارهابا يهدد الدولة، ومواطنيها، وتصبح هذه الجمعيات دولا داخل الدولة؛ فلا أقل من وجود مؤسسه مستقلة تعمل على تحصيل الزكاة، والصدقات بطريقة منظمة، تضمن تحصيلها من كل فرد فى الأمة، ثم تحدد أوجه الانفاق بطريقة علمية، ومنظمة، كما تخضع لأجهزة الدولة الرقابية، ولايسمح لأى مواطن مهما كان بجمع الأموال من الناس باسم الدين، أو غير الدين..

مشكلة المسلمين مع القرآن:

تصنيف المسلمين بالنسبة للقرآن:

- حفظ من الأول الى الآخر، فلا يكلف نفسه فهم شىء منه طوال حياته..
- قراءة بلا تدبر، ولافهم..
- حفظ سور صغيرة من أجل الصلاة، ربما تكون محرفة، أو لايدركون لها معنى..
- تلاوة صماء من المصاحف، ولايفهمون شيئا الا بالقرائن فقط، فاذا ماصادفه لفظ لغوى غير مفهموم يحتاج الى المعجم، أو سؤال من له دراية باللغة،

ولايبلغ مراده فى الناحيتين، لأنه لايمتلك معجما، وان وجد فلا يعرف طرق البحث، وان عرف فلا وقت، ولاصبر، ويقال هذا عن التفاسير، وأما السؤال فقد لايجد من يسأله، وقد يتحرج من السؤال، وقد لايتلقى اجابة شافية؛ أو قد يتلقى اجابة على هوى المجيب، فيستريح الى مافهمه بالسليقة؛ علاوة على أن ذلك يعطله عن القراءة فيقل مايقرأه، وهو يريد أن يعدد الأجزاء، ويختم القرآن..

- حتى لو فهم القارىء، وأدرك المعانى بأى طريقة مما ذكرنا فانه سيجهل أسباب النزول، نزول الآيات، فقد نزل القرآن منجما حسب الأحوال، والوقائع، فمن لايعرف الحادثة التى من أجلها نزلت الآيات لم يتذوق المعنى، وبالتالى يظل القرآن رهينا بالقراءة، والحفظ فقط، ولأنه لم يتذوق، ولم يدرك المعانى، وأسباب النزول فهو يخشى التحدث به مع أحد على عكس ماأراد الله تعالى للقرآن:

-"**وأما بنعمة ربك فحدث**" الضحى ١١..

-"**فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**" ق ٤٥..

- تقصير الدعاة أنفسهم؛ فقد ترى خطيبا مفوها يخطب فى صلاة الجمعة مثلا قرابة الساعة، وبعض الساعة لايذكر فى حديثه كله سوى آية، أو اثنتين لتأكيد كلامه، وماذهب هو اليه من مذاهب، أما استنباط أحكام الآيات فنجد كثيرا لايحفظونها لعدم عنايتهم بها؛ حتى أصبح هناك الكثير لايحفظون القرآن، ويتصدرون للفتوى، والدعوة، والخطابة المنبرية، والبعض ذهب الى الحديث يأخذ منه الموضوع المنافى لصريح كتاب الله، ويدافع عن الحديث الموضوع، ويخاصم، ولاتوجد تفاسير مسموعة للدعاة سوى الشيخ الشعراوى(رحمه الله) الذى أطلق عليه "خواطر"، وهو الوحيد الذى عرض القرآن بطريقة بسيطة دون الدخول فى مصطلاحات المفسرين، والفقهاء قريبا من فهم السلف البسيط لآياته، كما أنه أخذه كما هو، فلاألف زائدة، ولاناقصة، وفى ذات الوقت تحدث عن الجديد الذى لم يتحدث عنه الأقدمون، ولاخطر لهم على بال، خاصة عما أظهرته العلوم الحديثة..

مشكلة المفسرين مع القرآن:

لاأرى تفسير القرآن الا وضع قوالب حددها المفسر سلفا فى ذهنه، وأفكار رسمها لنا كى نفهم القرآن فى حدود تلك القوالب، والأفكار دون تحديد منهجه سلفا فى التفسير، والا مازالت هذه الأسئلة قائمة:

- لماذا لم يفسره الله تعالى؟.. (كان جبريل يدارس الرسول كتاب الله)، ولم يقولوا انه كان يفسره، والا تنافى مع مقصد الله تعالى منه بأنه يسره للذكر، وجعله بلسان عربى مبين، وأنه محفوظ بحفظ الله..

- لماذا لم يفسره الرسول صلى الله عليه وسلم سواء بأمر من الوحى، أو من نفسه؟.. ولماذا لم يطلب الصحابة من النبى تفسيره؟.. الا لأنهم فهموه تلقائيا بغير تفسير..

من هذه الأسئلة التى نجد أن اجاباتها جميعا واحدة؛ وهى عدم ورود تفسير فى زمن نزول القرآن، ولاالقرآن طلب ذلك من المسلمين، ولا وصى به رسول الله، فلا نرى التفسير الا بدعة، واحداث فى أمر من أمور الأمة قصد به ادخال الأمة فى متاهات أصحاب التفاسير، وأفكارهم، وقوالبهم المعدة سلفا، وعلومهم الصعبة الا على الخاصة(مثل الكهانة فى القرون الأولى)، وتقعروا بها على الناس؛ خاصة أن كثيرا من الناس لايقرأ، ولايكتب، وهم لم يهتموا بازالة أميتهم أولا، ولكنهم وجدوا فى أمية الناس مجالا فسيحا لأفكارهم، حتى أن الناس عندما يقفون عند آية صريحة الفهم من آى القرأن، واضحة الدلالة يتسآلون، وماذا قال عنها الامام فلان، أو المفسر فلان، أو الشيخ فلان؟!..

يقول تعالى:

-"ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما" النساء ٩٣..

كلام الله تعالى واضح كل الوضوح، ولالبس فيه بلسان عربى مبين، فلم يترجم لنا من لغة أخرى، ولم ينقله الرسول الكريم مبهما لنفهمه كيف نشاء، ولكن ابن كثير المفسر لايروقه هذا الكلام الالهى كثيرا فتركه وشأنه فليقل الاله

مايريد قوله، وعلينا السمع فقط، ولاطاعة فالمفسر له رأى آخر فيقول:

-"والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فان تاب وأناب وخشع وخضع وعمل عملا صالحا بدل الله سيئاته حسنات وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظالميه"..

والرجل قد أورد كثيرا من الروايات التى تؤكد كلام الآية الوضح عن ابن عباس، وعن الامام أحمد بن حنبل والحمد لله أنه لم يشهر فى وجهنا مسألة الناسخ والمنسوخ لاسكاتنا)، ولكنه يبدو أنها للعرض فقط، فهو ينقل، ولايفسر، والعهدة على الراوى، فهو ليس مفسرا، ولكنه عطارا يحتوى حانوته على كل الأفاويه التى يجد فيها العامة مايحتاجونه، ويجد فيها السلاطين، والأمراء، والمماليك مايهدىء روعهم اذا ذهبوا للقاء ربهم مادامت دنانيرهم تسبق استفساراتهم عندما يقتلون العامة، أو عندما يهمون بذلك، وضمن لهم الرجل أيضا تعويض رب العالمين لهؤلاء العامة المقهورين، وارضائهم يوم القيامة، فصدق فى المفسر، وأمثاله قوله تعالى:

-"**أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالاتعلمون**" البقرة ٨٠..

ثم يقدم لهم الهدية الكبرى برواية خبر طويل ورد فى كتب الحديث أن من قتل مائة أيضا له توبة.. فالرجل يروج لمذابح للمسلمين من أمثالهم المسلمين، ولا اعتبار لديه لكلام رب العالمين الواضح المبين فيدخل الرجل بين الله تعالى، وحقه فى الاقتصاص من القاتل، ومعاقبته، فهل يقر هذا مسلم ذو ضمير يؤمن بالله، واليوم الآخر؟!..

ورغم العدد الهائل من كتب التفسير الا أننا نلاحظ أن المفسرين لم يفسروا شيئا من القرآن مانلمح منه عدم فهم المفسر كثيرا للنصوص القرآنية اللهم ان ورد فيها قولا لأحد القدماء فى الآية بدعوى أنهم السلف الصالح، أو أنهم من عاصروا الرسول الكريم الذى نزل عليه القرآن ولم يفسره، ولا أشار الى تفسير، ولاهم سألوه تفسيرا، أو مفسرا أقدم منه جاء برواية تفسر هذه الآية، ولاسند

لهذا ولا لهذا يؤكد به ماذهب اليه فى تفسير الآية، كأن يكون حديثا للرسول مثلا، وقد يورد كما كبيرا من الأقوال لاتفهم منه الآية الا بفهم هؤلاء الرواة الذى قد يتدخل المؤلف فيرجح أحدها، أو يصمت نهائيا، ويترك لك الاختيار الذى لم يتركه لك الا لعجزه هو عن الفهم..

يقول ابن كثير عن قوله تعالى:

-"يؤتى الحكمة من يشاء" البقرة ٢٦٩..

-"قال علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس:

- يعنى المعرفة بالقرآن ناسخه، ومنسوخه، ومحكمه، ومتشابهه، ومقدمه، ومؤخره، وحلاله، وحرامه، وأمثاله، وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا:

- الحكمة القرآن، يعنى تفسيره، قال ابن عباس:

- فانه قد قرأه البر، والفاجر؛ رواه ابن مردويه..

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد:

-يعنى بالحكمة الاصابة فى القول، وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد:

ليست بالنبوة، ولكنه العلم، والفقه، والقرآن، وقال أبو العالية:

- الحكمة خشية الله، فان خشية الله رأس كل حكمة، وقد روى ابن مردويه من طريق بقية عن عثمان بن زفر الجهنى، عن عمار الأسدى عن ابن مسعود مرفوعا:

-"رأس الحكمة مخافة الله"، وقال أبو العالية فى رواية عنه:

- الحكمة الكتاب، والفهم، وقال ابراهيم النخعى:

- الحكمة الفهم، وقال أبو مالك:

- الحكمة السُنة، وقال ابن وهب عن مالك قال زيد بن أسلم:

- الحكمة العقل، قال مالك:

- وأنه ليقع فى قلبى أن الحكمة هى الفقه فى دين الله، وأمر يدخله الله فى القلوب من رحمته، وفضله" الخ من كلام المفسر..

فأين هى الحكمة من هذا كله؟!..

ومع احترامنا لكل الرواه ماهو سندهم من قرآن، أو سنة فيما ذهبوا اليه؟.. لم يدلل أحدهم بآية قرآنية كاشفة، أو ذات قرينة، ولا بحديث صحيح عن رسول الله..

فقد دخلنا بكلمة، وخرجنا غارقين فى خضم كلمات لاندرى أيها هى مراد الله تعالى من كلمة الحكمة، فهل نصوص القرآن متروكة لكل متقول بلا سند لهذا الحد؟.. ثم ندعى أن الاختلاف رحمة، لقد ذهب الاختلاف بالأمة مذاهب شتى، ولاعزاء، والحمد لله أنها ليست آيه حكم شرعي..

وقلما تجد من المفسرين من استعان بوضع ألفاظ الآيات على مائدة اللغويين العرب، ولاتشعر أن المفسر قد أجهد نفسه بالاطلاع، أو النظر فى أحدها، وكأنها غير موجوده بالنسبة له، ناهيك عن كم الخلاف بينهم جميعا فى تفسير الآية، أو حتى سبب نزولها مع ثبات وجود الرواة زمن نزول الآية، أو غيرها، فقد كانوا يتلقون القرآن رأسا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وربما حال نزوله عليه مباشرة، وهو ماحاد عنه المفسرون فى استطلاع السيرة النبوية بكل دقائقها قبل أن يدلوا بدلوهم فى تفسير الآية التى بين أيديهم التى ربما تكون أوضح فهما لو قرأتها بدون تفسير هذا المفسر، أو ذاك، ومنهم من سكت عن تفسير آيات فى منتهى الأهمية فمر عليها مر الكرام، فكتبها كما هى فى المصحف، وكأنها ليست من القرآن الذى تصدر لتفسيره..

التفسير النفسى، والاجتماعى للنصوص القرآنية لأصحاب هذه النظرية ممن فسروا التوارة من اليهود، وممن فسروا القرآن من المسلمين الذين يأتون بالأفكار الجاهزة، والمعدة سلفا فلا يعدمون نصا فى القرآن، أو حديث مهما كان ضعفه يعززون به نظرياتهم، وتوجهاتهم، ثم يأتى مَن بعدهم ليأخذوا بها على أنها تفسيرات مسلم بها لنصوص القرآن، وأقوال النبى صلى الله عليه وسلم، فقط يردفها بعبارة باجماع الأمة، وهو لايعلم أى أمة، ولاأين هذه الأمة، حتى لو حادت كلية عن النص القرآنى الواضح؛ والذى جاء على ضفاف السيرة النبوية، والبيئة العربية، وعلاقاتها الواسعة كأهل تجارة، ورحلة..

ان وقوع المفسرين العصريين فى براثن المادية الفجة جعلهم يؤجلون مالايفهمون من الواضح من القرآن لو ردوه الى الله، والى الرسول، لقد وصل أحدهم - من المفسرين المعاصرين - أن قالوا أن معطيات القرآن ستظل الى يوم القيامة على أساس تقاطر الاكتشافات العلمية، ولماذا اكتشافات؟.. وقد كشف لنا القرآن عن كل شىء- من الخالق رأسا- وصاحب الصنعة، فهل يعقل تجاهله، والانتظار لما يأتى به العلم من اكتشافات، أو لايأتى!..

لقد قضت أستاذة متخصصة بأكبر الجامعات الفرنسية عشرين عاما من عمرها لتثبت أن دم الحيض فاسد، ولهذا لايصح اقتراب الرجل من المرأة أثناء حيضها، ففاجأها أحد طلابها السعوديين بأن القرآن نهى عن معاشرة الزوجة الحائض منذ مئات السنين، اذن ننتظر، وننتظر، وهو مايعنى أننا ننظر للقرآن فقط لأجل العلم، وتكييف الآيات بما يتفق مع فروض النظريات التى لاتلبث حتى تظهر نظريات أخرى تزلزل عرشها، وتنقضها، والقرآن سبق وانتهى الأمر، ومن الآيات التى ينتظرون تفسيرا لها ليأتى من الغرب فى سورة الرحمن:

-"**يامعشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون الا بسلطان**" الرحمن ٣٣..

ثم يؤكد سبحانه وتعالى بعدها:

-"**يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلاتنتصران**" الرحمن ٣٥..

وهو مايرتبط بما يفعله الشياطين الذين يرتقون السماء لاستطلاع خبرها، والتكبر على البشر بالعلم، والمعرفة، والامساك بدفة الأمور، وهاهو الانسان يقتفى هو أيضا أثر الشياطين فى ارتقاء السماء، لالشىء أيضا سوى الاستعلاء، والزهو على البشر، فهناك سفنا تذهب، وتعود، وأخرى لاتعود تتلصص على مالايعنيها، وهذا عدا مالا يخبروننا به، فهم يقولون مايقولون، وعلينا السمع، والانبهار، والتصديق كالبلهاء، ثم يقولون انها سقطت، أو احترقت لوجود عطل فنى، ونحن نصدق؛ فبالله شيئا احترق، وتناثر فى الفضاء كيف يمكن أن نتبين سبب سقوطه، أو احتراقه سوى أنه:

-"**يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلاتنتصران**".. كما أخبر سبحانه، وتعالى منذ مئات السنين..

الاستعانة بأقوال السلف الصالح - مثل ابن عباس الذى نعتوه بحبر الأمة، وقد كان صغيرا فى حياة الرسول - فى نقل المفسرين لكثير من أقوالهم فى تفسير القرآن؛ أدى الى اغلاق باب الاجتهاد فى هذا الوقت المبكر، وليس بعد ذلك - كما يظن - فالواقع أن السلف الصالح لم يفسر له النبى القرآن، ولاهم طلبوا ذلك لأنهم لم يهتموا كثيرا بتفسيره؛ حيث قاموا بتطبيقه مباشرة فور وصوله اليهم منجما؛ خاصة وأن آيات كثيرة فى القرآن نزلت حلا لمشاكل فى المجتمع، وتصحيحا لمعتقدات، فكانت الآيات تدخل مباشرة حيز التطبيق، ومن هنا كان جهل المفسرين الذين لم يفسروا شيئا من القرآن بحجة أنهم يستشهدون بأقوال السلف، فلم يتجاوز المفسرون مرحلة النقل، فلا يعتبر مفسرا بالمعنى اللغوى، علاوة على جهلهم المطبق باللغة العربية فلم يتعرضوا لها فى التفسير، والأولى فى التفسير البحث عن مدلول الكلمة فى لغة العرب أولا، خاصة أن السلف الصالح كان يجهل بعض المصطلحات التى كان يضمنها الرسول فى أحاديثه مثلما سألوه عن كلمة "امعة"، وكلمة "ديوث" وغيرهما من الكلمات التى لم يكن الرسول يأتى بها من القواميس، أو من اللغات الأجنبية، ولكنها لغة العرب الذين بعث فيهم، وبعض المصطلحات كان لها أكثر من مدلول بين القبائل..

فلم يكن تفسير القرآن منهم الا الدخول فى خضم هائل من المرويات التى لاأصل لها من كتاب، أو سنة، فعندما يجزم صاحب الرواية بكلامه فى معنى آية لايطلعنا على مصدره، أو من أين أتى بهذا الكلام، خاصة أن منهم من كان ينقل عن اليهود كأهل كتاب، وعلم، كما لم يتطرق أحد المفسرين الى الفرق مثلا بين كلمة "كفر"، و"يكفر"، ولماذا جاءت الأخرى بصيغة الفعل المضارع على حساب أن كل كلمة جاءت فى مكانها المحدد فى القرآن دون زيادة، أو نقصان، كما ادعى بعض المفسرين بأن هناك زيادة فى كلمات، أو نقص فى أخرى فعلى مايبدو كان لديهم قصور لغوى، ومن هنا نستطيع القول بأنهم لايبعدون كثيرا عن كونهم

نساخا، أو نقلة فقط، ولاينسب لهم فضل، أو علم..

الا أن التراث قد حوى كتبا قيمة، لم يحتف بها كثيرا قد تعتبر أقيم كثيرا من التفاسير بما أطلق عليها أصحابها "الوجوه والنظائر"، أو "الأشباه والنظائر" جمعوا المصطلح القرآنى، ووضعه، ودلالاته فى السور، والآيات المختلفة على مافى ذلك من جهد، واستقصاء لغوى، وتشريعى الا أنه لم يستقص بشكل كامل فى أغلب التصنيفات ربما لصعوبة توافر أدوات الجمع، والاستقصاء فى ذلك الوقت؛ فكثر التفسير، والمفسرون لسهولة النقل، والنسخ من الروايات، ومن بعضهم البعض..

لقد جاء المفسرون باجتهادات من عندياتهم كانت فى أذهانهم قبل التفسير، فغلبت آراؤهم على النص القرآنى الواضح الذى ماجاء الا على أساس وجود عادات، وتقاليد كانت شائعة سلفا، ومنتشرة فى المجتمع مثل الملابس، وطرق الزواج، فهل ذكر أحدهم من اطلاعه على السيرة ماهو الزى الذى كان شائعا مثلا، وماهى أنماط الملابس التى كانت ترتديها المرأة قبل نزول القرآن؟.. لاشك أنها كانت معروفة، ولكنهم تجاهلوها عمدا ماداموا سيفرضون نصوصهم التى غطت مع الزمن على نصوص القرآن، وأصبحت فى قداسة هذه النصوص، بل تزيد هذه القداسة مع قدم المفسر..

ذهب كثير من المفسرين مذاهب شتى فى التفسير، لاندرى كيف أتوا بها؟.. ولم؟.. فهذا هو الطبرى مثلا ينفق الصفحات الطوال فى تحقيق الذبيح لينتهى الى أنه اسحاق، لا اسماعيل اتفاقا مع توراة بنى اسرائيل المعروف تحريفها، لأن بنى اسرائيل هم أحفاد اسحق عليه السلام جد الأسباط، وهم يعترفون باسماعيل ابنا لابراهيم، ولكنه لديهم طريد القفار، وقومه من العرب – وهم يكرهون العرب، ويحطون من شأنهم دائما – ومن عترته محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذبيح من هَاجر المصرية – كما أوضحت الأحاديث النبوية الصحيحة – وأول أبناء ابراهيم عليه السلام، والمعروف تاريخيا التضحية بالابن الأكبر فى معابد الآلهة فى بابل، والطبرى أيضا مؤرخ، ولابد أنه كان يعلم ذلك..

فكر القطيع:

اتباع القطيع، والموروث من التفاسير، وكتب التاريخ، أمة تعيش فى بطون الكتب القديمة، ولاتتجاوزها بعقولها التى غابت بين طياتها، فقتلت نصوصها نحتا، وبحثا، وتأويلا حتى انصرفوا عن النصوص الأصلية فى القرآن، والسنة التى لايفهمونها كثيرا، وليس لديهم أى نية، أو استعداد لفهمها الا بعقول أصحاب هذه الكتب، فهل هذه العقليات، وهذا الفكر سيدخلنا زمن النانوتكنولوجى التى لايعرفون معناها، ولاحتى كيفية نطقها فقد أصبحوا:

-"**كمثل الحمار يحمل أسفارا**" الجمعة ٥..

لاينتصرون للدين للأسف، ولكن الكل ينتصر فقط لجماعته، وحزبه حتى لو خرج عن الاسلام، فكل حزب قد اجتزأ من الاسلام مايوافق أطماعه، ومصالحه، وهو ليس من الاسلام فى شىء بعد أن برأ الله رسوله منهم:

-"**ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء**" الأنعام ١٥٩..

الخصام والخلاف:

الخصام فى الدين، والاختلاف وقع أصلاً بين الفقهاء الذين تحالفوا مع الأسر المتصارعة على السلطة منذ العصر الأموى؛ فعملوا على تطويع الدين لخدمة الطغاة ببدع لم تكن فى الدين:

- الافتاء بشرعية الحكم الوراثى..
- اعتماد نظرية أن الخلافة فى قريش..
- اهدار دم المعارضين السياسيين..
- اطلاق حرية التسرى بالجوارى، وجلب العبيد حتى قامت لهم دولة فى الاسلام(دولة المماليك فى مصر والشام) امتدت أكثر من ثلاثة قرون، وامتد أثرها إلى يومنا هذا..
- فرض الحجاب المعنوى، والجسدى، والعقلى على المرأة، واهمالها بزعم أنها مخلوق ليس مسئولاً أمام الله مثل الرجل، لأنها كائن غير مسئوول عن نفسه كالحيوان، وباقى الأشياء..
- إباحة قتل المسلم لأسباب عقائدية مثل قتل الحلاج..

إن وصاية رجال الدين على الاسلام مأخوذ عن نظام الأحبار اليهود، والكهنة القدماء، ونقله عنهم أيضاً رجال الكنيسة، والاسلام لم يفرض إلا إمام الصلاة وقت الصلاة، والحاكم المسئوول عن الرعية، والرعية المسئوول فيها كل فرد عن نفسه..

عن رسول الله:

-"لا تكتبوا عنى شيئاً إلا القرآن، فمن كتب شيئاً فليمحه"..

وعن آية الرجم التى ادعوها على القرآن، ونسخوا بها آية الجلد، وهى رقم(٢) من سورة النور تقول عائشة:

-"لقد نزلت آية الرجم، وكانت فى ورقة تحت سريرى، فلما اشتكى رسول الله - تقصد مرض - تشاغلنا بأمره، فأكلتها ربية لنا" تعنى نعجة..

والآية التى اخترعوها تقول:

-"الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة"..

وهى آية دسوها على الله، ورسوله كذبا، وبهتانا ، وعلى أفاضل عاشوا مع رسول الله، ولاتليق بالاقتراب من بلاغة، وقوة، وسلاسة كلام الله، ورسوله الذى أوتى جوامع الكلم، وهو ماأكده القرآن من أن الكفار لم، ولن يستطيعوا أن يأتو بآية من مثله، ولكنهم لما أتوها بعد وفاة الرسول بدت مسخا لم يتجرأ مسلم حقيقى بضمها الى القرآن، ولمن قال بها فما هو الا مسخ عقلى لايمت لطائفة البشر، ودليلنا قوله تعالى:

-"والله لايستحى من الحق" الأحزاب ٥٣.. فلماذا استحى الله منها؟!..

أوردها مسلم فى حديث عن مالك بن أنس عن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس، وهم يحكونها على نظام كتاب السينما، والمسرح فى العصر الحديث مما يدل على أنها حكاية طريفة تروى كالقصص، ولكن فيها مافيها من السموم العقلية الصادمة:

-"جلس عمر على المنبر، فلما سكت المؤذن قام فأثنى على الله بما هو أهل له، ثم قال: أما بعد أيها الناس فإنى قائل مقالة قد قدر لى أن أقولها فمن وعاها، وعقلها فليحدث بها حيث انتهت راحلته، ومن لم يعها فلا أحل له أن يكذب على

الله عز وجل، بعث الله محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها، ووعيناها، وعقلناها، ورجم رسول الله، ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل لا نجد آية الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم فى كتاب الله حق"..

ولانعتقد أن عمرا تفوه بهذا الغثاء، عمر الذى كان يتوقع آيات القرآن قبل نزولها بحسه المنطقى، وتفكيره المنظم يشكك فى كتاب الله، ويدعون على لسانه أنه ناقص، ثم ماهذه المقدمة الطويلة فى التحدث بالتنزيل، والتى تشى بالكذب على الله الا لادراك المتحدث أن أحدا لن يصدقه، فعمر بن الخطاب - كما يدعون - لم يحدد لنا لماذا نزلت؟.. وفيمن نزلت؟.. وفى أى السور، وهو الذى كان يتحرج من الرواية عن رسول الله، وينهى عن ذلك خوفا من الاختلاط بالقرآن، فربما لهذا السبب وضعوا هذه التهويمات على لسانه..

ظهرت أول المذاهب فى أواخر عهد الراشدين قسمها كتاب "حكم الانتماء الى الفرق" سياسيا الى:

- القدرية.. - الشيعة.. - المرجئة.. - الخوارج..

وعقديا الى:

- المعتزلة.. - الأشاعرة.. - الماتريدية..

ومسلكيا؛ الى الصوفية بفرقها، ثم متعصبة الفروع من الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، والظاهرية..

ثم دخلت الحمية، والعصبية فى الآراء بعد الترجيحات؛ فظهر غلاة التعصب المذهبى فى الفروع حتى وقعت الفتن، والحروب الكلامية التى ولدت أفكار التكفير، والمقاطعة، والقول بتحريم التزاوج بين الشافعى، والحنفى مثلا، وبطلان الامامة فى الصلاة من أحد المذاهب على الآخر، حتى دخلت فى أتون الحروب، والمعارك الدموية؛ كما حدث بين "الأحناف"، و"الشافعية" فى المشرق "بأصبهان"، و"الرى" كما ورد فى "معجم البلدان"..

حديث الامام أحمد:

-"من دعا بدعوة الجاهلية فهو من جثاء جهنم؛ وان صام، وصلى، وزعم أنه مسلم، فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها؛ المسلمين عباد الله".. وروى البخارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

-"لاتزال طائفة من أمتى منصورين على الحق؛ لايضرهم من خالفهم، ولامن خذلهم"..

-"لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون"..

ومن المسلمين من يخرج أيضا على جماعتهم، ويسمون أنفسهم أهل "السنة والجماعة" على زعم أنهم يأخذون "بالكتاب"، و"السنة"، والبعض منهم يضيف اليهما "الاجماع"، ولم يسم الرسول جماعة بعينها، ولايعرفها، وتلك هى جماعة المسلمين الذى نوه عنها الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه مصداقا للقرآن الكريم:

-"**هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس**" الحج ٧٨..

الاسلام السياسى، والاسلام الاجتماعى، والاسلام التعبدى، والاسلام الاقتصادى، تقسيمات غريبة، مريبة ابتلى بها المسلمون؛ فالاسلام شىء واحد لايتجزأ، وقد حولت هذه التقسيمات الاسلام الى نوع من النظريات السياسية، وكهانة معقدة أخذوها من الكهانات القديمة من قاموا منهم بتقسيم المسلمين الى طبقات سموهم الاسلاميين، والعلماء، والعامة، وأقاموا الحواجز، والجدر النارية بين الطبقات الثلاث، فاذا قام من ينتقد الاسلاميين، والعلماء قامت الدنيا، ولم تقعد؛ فهو فى عرفهم ينتقد الاسلام؛ فكأنهم اتخذوه درعا حديديا يحميهم من العامة، ويستبيحونهم، ومايملكون باسم الاسلام؛ فحذوا حذو المنافقين كما قال تعالى فيهم: -"**اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ماكانوا يعملون**" المنافقون ٢..

واذا تعرض لهم من دونهم - حسب تقسيمهم للمسلمين - من العامة لاحقوه بالتحذير بأن "لحوم العلماء مسمومة"، وهى قولة أطلقها "الحافظ ابن عساكر" الشافعى المذهب عندما نشبت بينه، وبين "الحنابلة" خلافات فقهية انتقدوا فيها

اجتهاده، فأراد أن ينتهرهم بهذه المقولة ليمنعهم من نقده، وهو ضرب من الارهاب الفكرى لمن أراد أن يتحصن - وهما - بالعلم من العلم؛ فأخذها عنه الحنابلة بما تعنى قداسة اجتهادهم فى احتكار فهمهم للاسلام، فلا حق لأحد فى فهم الاسلام الا هم فاشترطوا "المناولة" أى الأخذ عن عالم منهم، مع أن الاسلام أبسط كثيرا فى الفهم من أوهامهم التى يدعونها علما، والا لما بعث الله به نبيا أميا من عامة الناس على أميين مثله، وكان من الأوفق، والأسهل نزولها على أهل الخبرة من أهل الكتاب الذين أتخذوه قراطيس يبدونها، ويخفون منه الكثير:

-"**تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا**" الأنعام ٩١..

وكان منهم الأميون الذين لايعلمون الا اليسير من الكتاب:

-"**ومنهم أميون لايعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون**" البقرة ٧٨..

ثم جاء فى العصر الحديث من زاد الطين بلة ليعيد التصنيف، والتقسيم لهذه الأمة المنكوبة؛ فيخرج طبقة العامة من الاسلام كلية، وينعتهم بالكفار، فوجب مناصبتهم العداء، وقتالهم على اعتبارهم اما مرتدين، أو لم يدخلوا فى الدين أصلا؛ أما الاسلاميين، والعلماء فيتم فرزهم طبقا لالتقاء المصالح، واقتسام الغنائم، ومشايعة الحكام، والا فاخراجهم من الاسلام أولى، فيقول سيد قطب فى ظلاله(أو فى ضلاله):

-"ويدخل فى اطار المجتمع الجاهلى (الكافر) تلك المجتمعات التى تزعم لنفسها أنها مسلمة، لا لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله، ولكنها تدخل فى هذا الاطار لأنها لاتدين بالعبودية لله وحده فى نظام حياتها"..

وهى بغبغة، وترديد لأوهام محمد بن عبد الوهاب، ومذهبه فى تكفير المسلمين، ووجوب قتالهم، كى يتفادوا قتال غير المسلمين الذين يكيدون للاسلام، والمسلمين، فهم يستحلون - بكل سهولة، وبرود أعصاب، وبدم بارد - دماء المسلمين السهلة، وأعراضهم، وأموالهم، لأنهم قطاع طريق؛ استسهلوا النهب، والسلب المقدس، وجمع المال من كل طريق، وهم الذين لم يجرؤا حتى على ابداء الرأى فى قتال أعداء الأمة من اليهود خنوعا، وجبنا خشية منهم، ورعبا من

بأسهم، وتطور أسلحتهم الفتاكة نظرا لتقدمهم، وتطور أفكارهم مع الزمن، بل مالأوهم، وهادنوهم، وتآمروا معهم ضد المسلمين أمثالهم، وتاريخهم يمتلىء بالأمثلة مما يندى له الجبين..

انه من العار أن نختزل الاسلام العظيم فى مصطلحات صماء تخدم مصالح دنيوية بحتة تحقق أهداف من وضعوها فقط مثل من يقول - جهلا، وغباء - "المشروع الاسلامى"، وماكان الا دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا، وماكان من المشركين، ولم يكن محمد صاحب مشروع، ولايدرى عن هذا الافك، والافتراء على ماأنزله الله هدى لعباده، ولاتنفع المشاريع الا للطبقة التى قامت من أجلها، ولكن الاسلام جعله الله للناس كافة، وماكان عتاب القرآن الشديد للرسول الكريم عندما أراد أن ينزع منزع أهل السياسة، والسلطة فى استمالة صناديد قريش للاسلام دون البسطاء الا ليلفت نظر الرسول الكريم الى أن الاسلام ليس طبقيا، ولا لأسياد يفرضونه على عبيدهم بالأمر، فكل البشر عند الله سواء، وكلهم مسئول عن أعماله؛ فيقول:

-"**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا**" الكهف ٢٨.. ويقول:

-"**أما من استغنى**(٥) **فأنت له تصدى**(٦) **وما عليك ألا يزكى**(٧) **وأما من جاءك يسعى**(٨) **وهو يخشى**(٩) **فأنت عنه تلهى**(١٠)" عبس..

تقسيم التوحيد:

التوحيد لدى الأشاعرة هو اعتقاد الوحدانية فى الذات، والصفات، والأفعال، ولم يفرقوا بينها، فاستدلوا على توحيد الذات من الآية:

-"**قل هو الله أحد**" الاخلاص ١..

واستدلوا على توحيد الصفات من:

-"**ليس كمثله شىء**" الشورى ١١..

-"**ولم يكن له كفوا أحد**" الاخلاص ٤..

كما استدلوا على توحيد الأفعال من:

-"**الله خالق كل شيء**" الزمر ٦٢..

-"**والله خلقكم وماتعملون**" الصافات ٩٦..

وقد قسم ابن تيمية - امام التكفيريين - التوحيد الذى هو واحد فى الأصل، ولايصح تقسيمه الى ثلاث تواحيد - ان صح هذا الجمع، فهى كلمة غير قابلة للجمع للتعبير عن الوحدة أصلا، فربما تأثر الشيخ بالتثليث المسيحى فى اعتبارهم أن المثلث هو أقدس الأشكال - دون استقراء، أو فهم لآيات القرآن، انما هو هذيان شيخ طعن فى السن، وطعن فى الفكر، فقال بتوحيد الربوبية، أو توحيد الأفعال، وتوحيد الألوهية، أو توحيد العبادة، وتوحيد الأسماء، و الصفات، فجعل من الاله الواحد ثلاثة كما فعل النصارى..

فلا يصح المقارنة بين الألوهية، والربوبية لكونهما مترادفين كما تدل آيات القرآن الكريم..

والمعروف أن الربوبية من التربية، والرعاية حتى اكتمال الشىء، أما الالهية، أو الألوهية فتعنى العبادة، والتنسك كما تدل على ذلك كتب اللغة..

للرد على التكفريين، ورائدهم "ابن تيمية" حول نسبة التوحيد، والاعتراف بوجود الله من قبل كفار مكة الذين قال الله عنهم:

-"**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله**" العنكبوت ٦١..

وهناك عدة تحديات تحدى بها الله تعالى الكفار على مر العصور وهى :

- أن يسمى أحدهم نفسه أو ابنه "الله"..
- أن ينسبوا أى خلق مهما قل لغير الله، أو إدعاء أن هناك من خلقها من دون الله..
- أن يأتوا بالقرآن، أو بشئ منه مثل أية على سبيل المثال..

وليس الأمر كما فهم ابن تيمية أن الله تعالى أصبغ عليهم شيئاً من الايمان، والاعتراف بوجوده، وإلا لماذا لم يهدهم الله تعالى وهم قد اعترفوا به، وبأنه هو الخالق فلماذا لم يؤمنوا به؟!..

هل يمكن لانسان عاقل أن يقتنع بشئ، وهو لا يقتنى هذا الشئ، ويستطيع الحصول عليه بسهولة؟..

والدليل على كفرهم البواح اتخاذهم الأصنام ليشيروا بها إلى اسلامهم، والى الملائكة الذين كانوا يعتقدون قربهم من الله لأنهم بناته، ومن ثم فإن الأصنام ما هى الا واسطتهم الى الله:

-"**ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى**" الزمر ٣..

وهو ما كانوا يعتقدونه من عدم الاعتراف بالنبى محمد، وأنه أقل من أن يكون رسولاً من عند الله، فهو ليس مَلكاً من بنات الله القريبين منه، ولكنه بشر مثلهم، فاتهموه بكل النقائص التى يأتى بها البشر مثل الشعر، والسحر، والكهانة لدين اخترعه هو..

لقد كانت منظومة الكفر كبيرة، ومتجذرة فى وجدان أهل مكة، وعقيدة تضرب فى أعماق التاريخ، ولها روافدها، وأسبابها، ولم يكن من السهل إزالتها، ومحوها؛ بل كان منهم من تمسك بها حتى النهاية(الموت)..

ومن هنا جاء كلام الله تعالى لسيدنا محمد:

-"**إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء**" القصص ٥٦..

لا يريد الله تعالى أن يقول لنبيه أنك لا تفعل شيئاً بل أنا الذى أفعل، ولكنه يريد أن يقول لنبيه ان المسألة ليست عقلية بالمرة، وليست إقناعاً، واقتناعا، ولكنه قلب، وهداية، وإلا لو كانت عقلية، واقناع لآمن أبو لهب، وأعلن اسلامه بعد نزول سورة تفضحه، هو وزوجته، وتبشره بالنار ذات اللهب(سورة المسد)، بمعنى أنه سيظل كافراً ويموت أيضا على الكفر..

ومن هذا التقسيم دخل ابن تيمية المنطقة الخطرة؛ وهى تكفير المسلمين، ومقارنتهم بمشركى مكة الذين أنكروا البعث أيضا، وقالوا:

-"**وقالوا ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا الا الدهر**"الجاثية ٢٤..

جاء أمية بن خلف بقطعة من العظم بالية، وفركها لدى رسول الله، وهو يستنكر بعثها مرة أخرى وهى على هذه الحال، فنزل قوله تعالى يجيب:

-"**وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم**(٧٨) **قل يحيها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم**(٧٩)" يس ..

فهل ينكر المسلمون البعث كما ادعى عليهم ابن تيمية؟..

وهو بذلك قد أنكر تبليغ الرسول الكريم للرسالة، أو تقصيره على الأقل، وهو قد بلغ، وأكمل بشهادة الله عز، وجل، ولم يترك صلى الله عليه وسلم المسلمين على الشرك، وكفى بالله شهيدا لنبيه..

ودخل به هذا التقسيم غير المستند الى القرآن الكريم الى فتنة التشبيه الذى وقع فيه هو وأتباعه، فيقول فى مجموع الفتاوى عن الجلوس على العرش:

-"حدث العلماء، والأولياء أن محمدا رسول الله يجلسه ربه معه على العرش"..

وأشار تلميذه ابن القيم الى ذلك فى "بدائع الفوائد"، وهى مقولة مأخوذة عن الانجيل بعد استبدال المسيح ابن الله بالنبى محمد..

وكالعادة يقحم ابن تيمية، وأتباعه العلماء، والأولياء دون ذكر لأسماء من قال هذا، أو حدث به، ولكنه يوحى بنفس الجملة التى يمررون بها ادعاءاتهم، ونظرياتهم "باجماع الأمة، والعلماء" دون ذكر من هم هؤلاء الذين قالوا، ومن هم الذين أجمعوا..

يقول فى كتابه "التأسيس فى رد أساس التقديس بجواز اطلاق أن الله تعالى جسم":

-"وليس فى كتاب الله ولاسنة رسوله ولاقول أحد من سلف الأمة، وأئمتها أنه ليس بجسم، وأن صفاته ليست أجساما، ولاأعراضا".. ويقول أيضا:

-"لو شاء الله لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته، ولطف ربوبيته، فكيف على عرش عظيم، والاستقرار من لوازم الجسمية"..

وفى كتابه "بيان تلبيس الجهمية":

-"فاسم المشبهة ليس له ذكر بذم فى الكتاب، والسنة، ولافى كلام أحد من الصحابة، والتابعين"..

بعنى أنه لابأس من التشبيه على خلاف أهل السنة، وعلى خلاف القرآن:

-"**ليس كمثله شىء**" الشورى ١١..

-"**ولم يكن له كفوا أحد**" الاخلاص ٤..

ثم جاء بعده تلميذه محمد بن عبد الوهاب فلم يجد فى الصحراء مايقيم أوده، وهو يريد الثراء، والنفوذ، فهجر أئمة الفقه المعروفين، ولجأ الى ابن تيمية الذى كان مهجورا لآرائه المخالفة ايثارا للشهرة، والنفوذ أيضا، وقال بل المسلمون أشد شركا من مشركى مكة فى الجاهلية، فهم كفار، ولزم قتالهم، وبالتالى استحل دمائهم، وأموالهم، ونسائهم، فاعتبرهم غنائم هذه الصحراء القاحلة، ولعله وجد فى نظرية ابن تيمية حلا اقتصاديا لفقر الجزيرة وقتها، والتى كانت لاتجود الا بالرمال القاحلة، والشمس الحارقة، وليس حوله الا المسلمون المساكين يقتات من حربهم، والاستيلاء على مايملكون لسد رمقه كما كان العرب قبل الاسلام..

تناقض الروح البدوية روح الاسلام الذى يدعو الى التواضع، واللطف، والتقوى، والعدل، والمساواة بين الناس..

يقول البروفيسور فيليب حتى:

-"ان نزعة القتال أصبحت عند البدو حالة عقلية مزمنة، فحياة الصحراء على حافة المجاعة دائماً، والقتال يكون هناك بمثابة صمام أمن يمنع السكان من التكاثر، ولهذا أصبح الانتقام، وطلب الثأر أقوى نظام دينى، واجتماعى فى مجتمع البداوة"..

يقول همفر الجاسوس البريطانى ابان القرن ١٨ فى مذكراته:

-"لقد وجدت فى الشاب المغرور محمد بن عبد الوهاب ضالتى المنشودة، فان تحرره، وطموحه، وتبرمه من مشايخ عصره، ورأيه المستقل الذى لايهتم حتى بالخلفاء الأربعة تجاه مايفهمه هو من القرآن، والسنة كان أكبر نقاط الضعف التى كنت أتمكن التسلل منها الى نفسه، وكان يقول عن نفسه:

-"اننى أكثر فهما من أبى حنيفة".. ويقول أيضا:

-"ان نصف كتاب البخارى باطل""..

ويتحدث همفر عن شخصية محمد بن عبد الوهاب:

-"كنت أنفخ فيه باستمرار، وأبين له أنه أكبر موهبة من علىّ، وعمر، وأن

الرسول لو كان حاضرا لاختارك خليفة له دونهما".. ويقول:

-"وقد قررت أنا، ومحمد أن نتناقش فى تفسير القرآن على ضوء أفكارنا الخاصة، لا على ضوء فهم الصحابة، والمشايخ، والمذاهب، وكان يسترسل فى قبول آرائى ليظهر نفسه بمظهر المتحرر، وليجلب ثقتى أكثر فأكثر"..

ويقول مستر همفر عن خطة انجلترا(فى كتاب وزارة المستعمرات السرى - الذى كان تابعا لها - "كيف نحطم الاسلام") فى تقويض مظاهر القوة لدى المسلمين لسهولة السيطرة على العالم الاسلامى التى كان منها زيارات مقابر النبى، وآل بيته الصالحين(خاصة الشيعة، والمتصوفة من السنة منهم)، فتكون مركزا لتجمعهم، وانطلاقهم:

-"أما المقابر فاللازم هدمها بحجة أنها لم تكن فى عصر النبى، وأنها بدعة، كما أن اللازم صرف الناس عنها، وتحريم زيارتها، وذلك بالتشكيك فى كون هذه المقابر أصلا للنبى، والأئمة الصالحين(تماما كما يدعى من يطلقون على أنفسهم السلفيين، وهم من أتباع محمد بن عبد الوهاب، أو الاسلام الانجليزى أن المدفون بضريح الحسين أحد جنود الفرنسيين بلا دليل مادى، أو تاريخى)"..

ويقول فى مذكراته على لسان سكرتير وزارة المستعمرات البريطانية:

-"عميلنا فى أصفهان تكلم معه(محمد ابن عبد الوهاب الذى عاش فى البصرة بالعراق فترة من شبابه تعرف عليه فيها هذا الجاسوس) بصراحة، وقبل الشيخ العرض على شرط أن نحميه من الحكومات، والعلماء الذين لابد أنهم سيهاجمونه بكل السبل عندما يقوم بنشر آرائه، وأفكاره، وأن نمده بالمال الكافى، والسلاح اذا اقتضى الأمر، وأن نجعل له امارة صغيرة فى أطراف نجد، وقد قبلت الوزارة كل هذه الشروط".. ثم أوصى الجاسوس همفر:

-"ان الشيخ أفضل شخص يمكن الاعتماد عليه ليكون مطية لمآرب الوزارة" وذلك لتنفيذ النقاط الآتية ضمن مهامه:

- تكفير كل المسلمين، واباحة قتلهم، وسلب أموالهم، وهتك أعراضهم، وبيعهم فى أسواق النخاسة، وحليّة جعلهم عبيدا، ونسائهم جوارى..

- هدم الكعبة باسم أنها آثار وثنية ان أمكن، ومنع الحج، واغراء القبائل بسلب الحجاج، وقتلهم..

- السعى لخلع طاعة الخليفة(العثمانى)، والاغراء بمحاربته، وتجهيز الجيوش لهذا الغرض، ومن اللازم أيضا محاربة أشراف الحجاز بكل الوسائل الممكنة، والتقليل من نفوذهم..

- هدم القباب، والأضرحة، والأمكان المقدسة عند المسلمين فى مكة، والمدينة، وسائر البلاد باسم أنها وثنية، وشرك، والاستهانة بشخصية النبى محمد، وخلفائه، ورجال الاسلام بما تيسر..

- نشر قرآن فيه التعديل الذى ثبت فى الأحاديث من زيادة، ونقيصة(وهو ماقامت به أمريكا هذه الأيام من نشر "الفرقان الأمريكى"، وتكمله قوات داعش المرتزقة من تعديل سورة الكافرون، والغاء آيات الجهاد، فجهادهم ضد المسلمين فقط)".. ويعلق همفر:

-"استبعد الشيخ أن يقدر على هدم الكعبة عند الاستيلاء عليها، كما لم يبح أنها عند الناس وثنية، وكذلك استبعد قدرته على صياغة قرآن جديد، وكان أشد خوفه من السلطة فى مكة (أشراف مكة الهاشميين)، وفى الأستانة (الخلفاء العثمانيين)، وقال له الشيخ:

- "اذا أظهرنا هذين الأمرين لابد وأن يُجهز لنا جيوش لاقبل لنا بها"..

وقال همفر أنه قبل منه العذر لأن الأجواء لم تكن مهيأة"..

وكان همفر هذا الذى أُعد اعدادا دينيا اسلاميا جيدا، وأتقن اللغات العربية، والتركية، والفارسية قد استعانت به بريطانيا العظمى فى التجسس على أحوال المسلمين على المستوى الشعبى، بالتجول فى العواصم الاسلامية متقمصا شخصية تاجر من أصفهان اسمه محمد، وهو الذى رافق محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية بعد ذلك لنشر المذهب الوهابى..

مابعد الشرك:

انتهى الدين الاسلامى فى القرآن الكريم الى فداحة الشرك بالله - وهو

أكبر الكبائر - وهو العمل، أو الاعتقاد الذى يخرج المسلم من الدين الذى هو اسلام الوجه لله، فاذا اختلط الشرك مع الاعتقاد بوحدانية الله تعالى فى الفعل أصبح العمل غير خالص لله، ولكن ماستجد هذه الأيام هؤلاء البشر الذين وضعوا أنفسهم شركاء لله، وهم لايدركون أن مصيبة فرعون - الذى حدثنا عنه القرآن كمثل لهؤلاء - أنه لم يشرك بالله أحدا، ولكنه أشرك نفسه، وأحيانا يضع نفسه بديلا عن الله، وماكانت اشارة القرآن الى أنه قال "**أنا ربكم الأعلى**".. الا أنه تدخل فى حياة الناس تحت هذا المسمى، وهو مايحدث الآن، فان منهم من يعتقد ماهو أبعد من فرعون؛ وهو امتلاكه لمفاتيح الجنة، والنار، ورمى هذا بالكفر، والضلال، والانعام على هذا بالايمان، والالتزام، وهنا المصيبة الكبرى فعند انتقادك لهذا الرجل منهم أو ذاك فأنت بذلك تنتقد الاسلام نفسه؛ بل وتنتقد رب الاسلام فى شخص هذا الرجل..

ويمكنك أن تغتر بالله تعالى حتى تصبح شيطانا، كما حدث من ابليس الذى اغتر بوصوله الى مصاف الملائكة المقربين باجتهاده فى العبادة، فاعترض على أحكام الله فى خلق آدم، ثم السجود لهذه الخلقة الربانية التى كان يحتقرها فى الأساس قبل أن ينفخ الله فيها من روحه، كما اغتر بنو اسرائيل بأنهم شعب الله المختار، وأن الله تعالى فضلهم فعلا على العالمين حتى خرجوا من دائرة الدعوة الى الله برسالته الى دائرة غضب الله، ولعن أنبياء الله لهم، ثم جاء المسلمون ليحذوا حذوهم فاعتبروا أنفسهم أصحاب الرسالة المفضلة، وتجاهلوا أنها رسالة واحدة جاءتهم كما جاءت لمن قبلهم، وماهم الا أتباع خاتم الرسالة..

وهم اذا أصيب أحدهم بأذى قالوا ابتلاء، واذا أصيب من هم ضدهم قالوا بلاء، وانتقام من رب العباد، ثم ينتقلون بهذه المفاهيم التوراتية من الأفراد الى الدول، فيتشفى أحدهم فى مصرع رئيس سابق، وينسى بجهل، وغباء مصرع الخلفاء الراشدين، وآخر يتشفى فى هزيمة ٦٧(السبب فى تحديث الجيش المصرى أفرادا، وعتادا) وينسى هزيمة المسلمين فى أُحد، وقتل الكفار لخيرة أصحاب رسول الله، فهل - بهذا القياس - كان الله تعالى غاضبا على نبيه، وأصحابه، راضيا عن أبى سفيان عندما انتقم من المسلمين فى أُحد لمن مات من

كفار مكة فى بدر؟!..

ويأتى آخر أشد جهلا، وغباء ليكتشف أن تدهور مستوى المعيشة، وارتفاع الأسعار ماهو الا غضب الهى لابتعادنا عن شرع الله، وينسى بحور السمن، والعسل التى يغرق فيها كفار أوروبا، وأمريكا والذين يسعون اليهما جاهدين ليعيشوا نعيم الكفار المقيم، وكأنهم يرمون رب العالمين - حاشا لله - بالظلم، والتحيز، وينسى أيضا أن عام الرمادة حدث أيام أعظم خلفاء المسلمين عمر بن الخطاب الذى ضُرب به المثل فى العدل، ورد الحقوق، واقامة الحدود، وماذا عن الوباء الذى حدث فى عهده أيضا؟!.. هل - بنفس المنطق - كان الله تعالى يعاقبه على عدله، ورد حقوق عباده، واقامة حدود دينه؟..

فهل استعاروا لنا صفة اله بنى اسرائيل فى التوراة الذى كان ينفعل لأعمال العباد بسبب، وبغير سبب، فكان دائما بين المكافأة لهم، والانتقام منهم، على غير ماجاء فى أول آيات القرآن من أنه "الرحمن الرحيم"..

حصد الطاعون ربع سكان أوروبا فى منتصف القرن الرابع عشر، وكان تعليل الأصوليين المسيحيين هو:

-"أن الرب ساخط على الساحرات اللآتى يخرجن على هيئة قطط، أو يمتطين عصى المكانس لكى يزنين مع الشيطان فى حفلات ليلية صاخبة"..

ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ):

أفكار ابن تيمية الذى عاصر اجتياح المغول للعالم الاسلامى بعد اسقاط الخلافة العباسية فى بغداد، والحملات الصليبية فى كتابه "السياسة الشرعية" - الذى يعتبر قرآن الوهابية التى تولى أهمية كبرى للجهاد - حتى أنه يساوى بينه وبين الصلاة، ويكاد يضعه فوق أركان الاسلام المقررة سلفا، ويجعل من محاربة الكفار احدى وظيفتى ولى الأمر؛ الأولى تأمين انتصار الفضيلة داخل الأمة(اقامة الحدود)، وخوض الجهاد المقدس خارج دارالاسلام(وتجاهل دخول التتار فعلا ديار الاسلام، فأسقطوا الخلافة، ومزقوها، كما شن الصليبيون حملات كثيرة على بلاد المسلمين احتلوا فى واحدة منها بيت المقدس، وبلادا اسلامية أخرى، اذن فالحرب، والجهاد فى دار الاسلام أولى، وليس خارجه)..

وهو يظن أن امكانيات الامارة ماليا، وعسكريا يجب أن توضع كلها فى خدمة الدين لضمان الدنيا، والآخرة وبذلك يتجنب المجتمع الفصل بين السياسة، والدين -على حد زعمه- ويبتعد عن الوقوع فيما أخطأت فيه اليهودية، والمسيحية فأصيبتا بعاهات منعتهما من اقامة الصرح الدينى، فقد سلكتا طريقين خاطئين - حسب زعمه - الطريق الأول ادعاء الدين دون التمكين من توظيف السياسة، والمال، والسلاح لخدمته، ولعل الشيخ يجهل تماما اقامة مملكة داود، وسليمان على أرض فلسطين، أما الطريق الآخر فهو امتلاك السلطة، والمال، والسلاح دون السعى الى تخصيصه لاقامة الدين، أو نصرته، وأيضا يجهل الشيخ جهلا تماما أن المسيحية الأوروبية شنت عدة حملات قاسية على العالم الاسلامى على مدى ٢٠٠ عام، ثم بعد ذلك يسمى اليهود المغضوب عليهم، والمسيحيين بالضالين دون نص، أو دليل، بمعنى أن الشيخ يضع للمسلمين دينا موازيا على الرغم من جهله المطبق بمن حوله من اليهود، والمسيحيين، وكأنه وضع نفسه اماما للمغيبين حتى يومنا هذا، وقائدا للعالم الافتراضى فى أذهان هؤلاء الناس..

وطبعا لم يوفق ابن تيمية فى تحليلاته المصابة بالخلل، والتمحور حول الذات عندما أصبح اليهود على ماهم عليه، وعن المسيحية، وقوتها الضاربة فى أيامه، وعن العالم الاسلامى البائس سياسيا، وعسكريا؛ حتى أننا يمكن أن نقول - بميزان ابن تيمية - أن المسلمين الآن هم من جمعوا الصفتين معا المغضوب عليهم، والضالين..

فلا شك أن ابن تيمية لم يمثل فى عصره الا رأيا من الآراء التى يمكن اعتبارها استثنائية، عادة ماتتبلور فى ظل الهزائم، والانحطاط الحضارى؛ وكأن الجماهير كانوا فى حاجة لمن يثير حماسهم حتى لو بالشاذ من الآراء؛ خاصة اذا كانت مصبوغة بالدين المهزوم فى هذا العصر التعيس، كما أثار شذوذه هذا قلق العلماء، والفقهاء فكان سببا فى انقسام المسلمين؛ فانقسمت بلادهم، وأصبحت أشلاء بين المستعمرين من الشرق، والغرب..

عذب المغول فيمن عذبوا والد ابن تيمية(تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحرانى ١٢٦٣ - ١٣٢٨م) فنقم عليهم لما فعلوه بأهله، وبالناس وقتها، ولم يشفع اسلامهم عنده فى التغاضى عما فعلوا، فقد أصبحوا مسلمين، والاسلام

يجُب ماقبله - كما هو معلوم عن رسول الله - ولكن جروح النفس العليلة كانت أشد عليه من تعاليم الرسول الذى نال من التعذيب مالاتطيقه الجبال؛ فأطلق معذبيه فى فتح مكة بعد أن تمكن منهم، ولم يفرض عليهم اسلاما، ولكن ابن تيمية راح ينقب عن الآراء التى تنتهى الى الطعن فى اسلامهم، واعتبارهم غير مسلمين حتى لايدين لهم المسلمون بالاذعان، والطاعة، فقال ان اغفال أى أمر من أمور الاسلام، أو اهمال أى شأن من شئون الشريعة كفر يؤدى الى الخروج من الملة، بدلا من أن ينصح لهم كفقيه، ويلقنهم صحيح الاسلام وتعاليمه، وهو ماقال به الفقهاء من قبله، والا انسحبت أقواله على الخلفاء من أول الدولة الأموية، وعلى المسلمين كافة، وفقهائهم، خاصة أن الله مكن لهؤلاء المغول المسلمين ملكا امتد قدرا كبيرا من الزمن تجاوز بكثير أعمار الممالك الاسلامية التى قامت فى أرجاء المعمورة، فقد ظلت دولتهم فى الهند الى العصر الحديث(أكثر من ثمانية قرون)، كما يشكل الجنس المغولى الغالبية العظمى من مسلمى العصر الحديث، وأكثر المسلمين تطلعا للحضارة الحديثة والأخذ بأسبابها، ولكنه الجهل، والمرض النفسى..

لقد تجاوزت أحكام ابن تيمية التى لاحق بها حكام المغول المسلمين فى عصره كل حكام المسلمين حتى العصر الحديث، فلابد للحاكم من تطبيق أحكام الشريعة كلها، فان لم يطبق ولو حكما واحدا أصبح كافرا مرتدا يتعين على المسلمين مقاومته، وقتله، ومن هنا وضع ابن تيمية الأسس الشرعية - من وجهة نظره - التى توجب قتال المسلم للمسلم حاكما كان، أو محكوما لمجرد الاشتباه فى اسلامه حتى يومنا هذا، ومنه أيضا جواز انصراف المسلم عن قتال العدو الطبيعى من يهود، وكفار ممن يبغون ديار المسلمين، وثرواتهم حتى ينتهى المسلم من تصفية أخيه المسلم الذى يشتبه فى اسلامه أولا، وهو الفكر الذى يكون اللبنة الأول من أفكار جماعات الارهاب باسم الدين من أجل السلطة، وجمع الأموال، وهو نفس الفكر الذى اعتمدت عليه المخابرات الغربية فى الدول الاستعمارية لدعم هذه الجماعات التى بدأت بتهديد القيادات الوطنية، والعمل على تصفيتها، الى تهديد كيان الدولة نفسها التى نشأت فيها لاسقاطها، ورجوعها الى الصحراء مثل الصومال منذ سنوات، ثم افغانستان، ثم العراق، ثم

سوريا، ثم اليمن، ثم حاليا ليبيا، والباقى فى الطريق، وهى لعبة مخابراتية جهنمية يظنون الوقاية منها اذا ماارتدوا القفازات، ولكنهم ربما لم يعرفوا المثل العربى القديم:

-"سمن كلبك يأكلك"..

لم يذكر ابن تيمية فى كتابه "السياسة الشرعية" شيئا عن نوع الحكم فى الاسلام، ولم يذكر الخلافة كنظام حكم حتى باللفظ، ولكن الكتاب اشتمل على أحكام عامة استقاها من الكتاب، والسنة مثل تأدية الأمانات الى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، وهما عنده جماع السياسة العادلة، والصالحة بالنسبة للحكام، وأولياء الأمور، أما المحكومين فعليهم الطاعة لأولى الأمر المؤديين للأمانات، والحاكمين بالعدل مالم يأمر بمعصية..

ونلمس غوغائية المتابعين لابن تيمية فيما يحكيه الرحالة ابن جبير سنة ١٣٦٩م فى كتاب رحلاته:

-"كنت فى دمشق فحضرت يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع، ويذكرهم؛ فكان من جملة كلامه أن الله تعالى ينزل الى السماء الدنيا كنزولى هذا، ونزل درجة من درجات المنبر؛ فأنكر عليه فقيه مالكى معروف "بابن الزهراء" فقامت العامة الى هذا الفقيه، وضربوه بالأيدى، والنعال ضربا كثيرا حتى سقطت عمامته، واحتملوه الى قاضى الحنابلة فأمر بسجنه، ولكنه عزّره بعد ذلك، وأمر بسجن ابن تيمية فى القلعة حتى مات"..

ومن القصة نرى مدى فعل هؤلاء الشيوخ (شيوخ الفتنة) فى اثارة العامة من الناس منذ قديم الزمان الى حد تجرؤهم على العلماء الحقيقيين، ورميهم بالنعال؛ فهؤلاء الغوغاء لديهم قدرة عظيمة على حشد الناس بالجهل، والباطل، بالألفاظ، والايحاء، والاشارات، وفى هذه الآيام كان الاختبار الصعب لشيوخ الفضائيات قبل أحداث ٢٥ يناير ٢٠١١، حيث استعان النظام عن طريق نفس الفضائيات بهؤلاء الشيوخ حتى يثنوا الناس عن النزول الى الشارع، وبعضهم كفّر من يفعل ذلك لخروجه على الحاكم، وكان نتيجة كلامهم مزيدا من النزول، حتى أن هؤلاء الذين نزلوا بعد رجاء هؤلاء المشايخ هم من حسموا الأمور بما نحن فيه الآن..

المصادر:

١- د.عبد الوهاب الكيالى.. تاريخ فلسطين الحديث.. الطبعة الحادية عشرة (١٩٩٩)..

٢- جرجى زيدان.. تحقيق د.محمد حرب.. مصر العثمانية.. الطبعة الثانية(١٩٩٧).. سلسلة كتاب الهلال..

٣- د.أحمد المجدوب المستشار بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.. مقال بجريدة الأهرام بتاريخ ١٦ من نوفمبر ٢٠٠١..

٤- منى نشأت.. مقال بجريدة الجمهورية.. ٢٠٠٦/٩/١٤..

٥-كمال الدين محمد بن موسى الدميرى.. حياة الحيوان الكبرى.. دار التحرير للطبع والنشر.. كتاب التحرير(١٩٦٥)..

٦- عباس محمود العقاد.. عبقرية الامام.. دار المعارف.. سلسلة "اقرا"..

٧- عبد الله سعيد محمد الغامدى.. جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين(رسالة دكتوراه).. جامعة أم القرى(١٤٠٧هـ)..

٨- د.رفعت السعيد.. وهم الخلافة..

٩- حسين بن غنام .. تاريخ نجد.. تحرير وتحقيق د.ناصر الدين الأسد.. دار الشروق.. الطبعة الرابعة(١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)..

١٠- بكر بن عبد الله أبو زيد.. حكم الانتماء الى الفرق والأحزاب والجماعات الاسلامية.. الطبعة الأولى(١٤١٠هـ).. الرئاسة العامة لادارة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد.. السعودية..

١١- الفارابى.. السياسة المدنية(المدينة الفاضلة)..

١٢- محمد عثمان الخشت.. روجيه جارودى- لماذا أسلمت؟(نصف قرن من البحث عن الحقيقة).. مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع..

١٣- أحمد عبد الرحيم مصطفى.. فى أصول التاريخ العثمانى.. دار الشروق.. الطبعة الثانية(١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)..

١٤- د.خليل انالجيك.. تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الى الانحدار.. ترجمة د.محمد الأرناؤوط.. دار المد الاسلامى.. الطبعة الأولى(٢٠٠٢م)..

١٥- د.محمد بن عبد الهادى بن رزّان الشيبانى.. موقف المعارضة فى عهد يزيد بن معاوية(٦٠ - ٦٤هـ)(رسالة ماجستير).. دار طيبة للنشر والتوزيع.. الدمام.. الطبعة الثانية(١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م)..

١٦- على عبد الرازق.. الاسلام وأصول الحكم.. الهيئة المصرية العامة للكتاب.. مكتبة

الأسرة(١٩٩٦)..
١٧- محمد عبده.. الأعمال الكاملة.. الهيئة المصرية العامة للكتاب..
١٨- سامى بن عبد الله المغلوث.. أطلس الحملات الصليبية على المشرق الاسلامى فى العصور الوسطى.. مكتبة العبيكان.. الرياض ١٤٢٩هـ..
١٩- ثروت الخرباوى.. سر المعبد.. الأسرار الخفية لجماعة الاخوان المسلمين.. دار نهضة مصر.. الطبعة الأولى(٢٠١٢)..
٢٠- أبو الحسن الأشعرى.. مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين.. الطبعة الثالثة- تحقيق هلموت ريتر.. دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادون(١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
٢١- عباس محمود العقاد.. ذو النورين عثمان بن عفان.. مكتبة دار العروبة..
٢٢- عبد الوهاب المؤدب.. أوهام الاسلام السياسى.. ترجمة محمد بنيس والمؤلف.. دار النهار للنشر.. بيروت.. الطبعة الأولى(٢٠٠٢)..
٢٣- د.فتحى زغروت.. النوازل الكبرى فى التاريخ الاسلامى.. الأندلس للنشر والتوزيع.. شبرا مصر.. الطبعة الأولى(١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م)..
٢٤- القلقشندى.. صبح الأعشى فى صناعة الانشا.. طبعة دار الكتب.. القاهرة(١٩٢٨)..
٢٥- السيوطى.. تاريخ الخلفاء.. مراجعة وتعليق جمال محمود مصطفى.. دار الفجر للتراث.. الطبعة الأولى(١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)..
٢٦- المقريزى.. السلوك لمعرفة دول الملوك.. تحقيق مصطفى زيادة.. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.. القاهرة..
٢٧- سعد بن محمد حذيفة الغامدى.. سقوط الدولة العباسية.. مؤسسة الرسالة..
٢٨- فلاديمير ستوف.. ترجمة سعد بن محمد حذيفة الغامدى.. حياة جنكيز خان الادارية والسياسية والعسكرية.. الطبعة الأولى(١٩٨٣)..
٢٩- ابن الأثير.. الكامل فى التاريخ.. تحقيق أبى صهيب الكرمى.. بيت الأفكار الدولية.. السعودية والأردن..
٣٠- د.حسن ابراهيم حسن.. تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى.. طبعة القاهرة(١٩٦٢)..
٣١- الطبرى.. تاريخ الأمم والملوك.. تحقيق أبى صهيب الكرمى.. بيت الأفكار الدولية.. السعودية والأردن..
٣٢- ابن خلدون.. العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر.. دار الكتاب اللبنانى(١٩٨١م)..
٣٣- المسعودى.. مروج الذهب ومعادن الجوهر.. المكتبة العصرية.. بيروت.. الطبعة الأولى(٢٠٠٥)..

٣٤- جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى.. النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب.. منشورات وزارة الثقافة والارشاد.. مصر..
٣٥- ابن كثير.. البداية والنهاية.. دار المنار للطبع والنشر والتوزيع.. الطبعة الأولى(١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)..
٣٦- أحمد كمال حلمى.. السلاجقة فى التاريخ والحضارة.. دار البحوث العلمية.. الكويت.. الطبعة الأولى(١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)..
٣٧- د.حسين مؤنس.. تنقية أصول التاريخ الاسلامى.. الهيئة المصرية العامة للكتاب.. مكتبة الأسرة(٢٠٠٥م)..
٣٨- د.حسن أحمد محمود.. العالم الاسلامى فى العصر العباسى.. دار الفكر.. القاهرة..
٣٩- د.محمد بن مسفر بن حسين الزهرانى.. نفوذ السلاجقة السياسى فى الدولة العباسية(٤٤٧ - ٥٩٠هـ)(١٠٥٥ - ١١٩٣م).. مطبعة المدنى.. القاهرة.. الطبعة الثانية(١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م)..
٤٠- مذكرات السلطان عبد الحميد.. ترجمة وتحقيق د. محمد حربى عبد الحميد.. دار الأنصار - القاهرة(١٩٧٨م)..
٤١- د. عبد الجليل التميمى.. الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين فى الأندلس.. منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية - زغوان(١٩٨٩م)..
٤٢- محمد عبده حتاملة.. التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكيين.. عمان - الأردن(١٩٨٠م)..
٤٣- د. حسان حلاق.. العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب.. اصدارات الدار الجامعية..
٤٤- رحلة ابن جبير.. تحقيق د.حسين نصار.. مكتبة مصر بالفجالة(١٩٩٢).. القاهرة..
٤٥- سعيد عاشور.. بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى.. نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين.. الطبعة الثالثة..
٤٦- أسامة بن منقذ.. كتاب الاعتبار أو حياة أسامة بن منقذ.. طبعة جامعة برلستون.. الولايات المتحدة الأمريكية(١٩٣٠)..
٤٧- أبو شامة.. كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية.. مطبعة وادى النيل.. مصر(١٢٨٧هـ)..
٤٨- فتحى يكن.. القضية الفلسطينية من منظور اسلامى.. مؤسسة الرسالة..
٤٩- ابن الخطيب.. الاحاطة فى أخبار غرناطة.. تحقيق د.محمد عبد الله عنان.. مطابع الشركة المصرية.. القاهرة(١٩٧٥م)..
٥٠- د. محمد كمال شبانة.. يوسف الأول بن الأحمر سلطان غرناطة.. مكتبة الثقافة الدينية.. الطبعة الأولى(١٩٩٨م)..

٥١- د. محمد عبد الله عنان.. دولة ملوك الطوائف من قيامها حتى الفتح المرابطى.. طبعة القاهرة(١٩٦٠)..
٥٢- د. محمد عبد الله عنان.. عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس.. القسم الأول والثانى.. طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر(١٣٧٣هـ - ١٩٦٤م)..
٥٣- د. حسين مؤنس.. فجر الأندلس.. دار الرشاد..
٥٤- د. أحمد هيكل.. الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة.. دار المعارف بمصر.. الطبعة السادسة(١٩٧١)..
٥٥- عبد الواحد المراكشى.. المُعجب فى تلخيص أخبار المغرب.. تحقيق د.صلاح الدين الهوارى.. المكتبة العصرية.. الطبعة الأولى(١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م)..
٥٦- ياقوت الحموى.. معجم البلدان.. تحقيق فريد عبد العزيز الجندى.. طبعة دار الكتب العلمية.. بيروت(١٤١٠هـ)..
٥٧- ستيفن رانسمان.. تاريخ الحروب الصليبية.. ترجمة د.السيد الباز العرينى. دار الثقافة.. بيروت(١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)..
٥٨- ناصر خسرو.. سفرنامة.. ترجمة د.يحيى الخشاب.. طبعة القاهرة(١٩٤٨)..
٥٩- أحمد مختار العبادى.. دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس.. مؤسسة شباب الجامعة.. الاسكندرية..
٦٠- صلاح الدين نوار.. العدوان الصليبى على العالم الاسلامى.. دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع..
٦١- عبد السلام بن محسن آل عيسى.. دراسة نقدية فى المرويات الواردة فى شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الادارية.. الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة.. الطبعة الأولى(١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)..
٦٢- جوزيف نسيم.. العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى.. مؤسسة شباب الجامعة.. الاسكندرية(١٩٨٣م)..
٦٣- د. محمد سالم العوفى.. العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية فى العصر السلجوقى(١٩٨٢م)..
٦٤- ويل ديورانت.. قصة الحضارة.. ترجمة لجنة من الكتّاب.. الهيئة المصرية العامة للكتاب.. مكتبة الأسرة(٢٠٠١)..
٦٥- ابن حوقل.. صورة الأرض.. دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر(١٩٩٢م)..
٦٦- حسن ابراهيم حسن.. تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى.. مكتبة النهضة المصرية.. الطبعة الأولى(١٩٦٧م)..
٦٧- ابن منظور.. لسان العرب.. تحقيق د.أحمد سالم الكيلانى، د.حسن عادل النعيمى..

مركز الشرق الأوسط الثقافى.. الطبعة الأولى(١٤٣٢هـ - ٢٠١١م)..
٦٨- سيد قطب.. معالم فى الطريق.. دار المعارف بمصر..
٦٩- د.عبد الرزاق أحمد السنهورى.. فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية(بحث نشر بالفرنسية سنة ١٩٢٦).. ترجمة نادية عبد الرزاق السنهورى.. مراجعة وتقديم وتعليق د.توفيق محمد الشاوى.. مكتبة الأسرة.. الهيئة المصرية العامة للكتاب(٢٠١٣)..
٧٠- د.محمد حسين هيكل.. الحكومة الاسلامية.. الطبعة الثانية.. دار المعارف بمصر..
٧١- محمد رشيد رضا.. الخلافة.. الزهراء للاعلام العربى(١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)..
٧٢- خالد محمد خالد.. من هنا نبدأ.. دار الكتاب العربى.. بيروت.. الطبعة الثانية عشرة(١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م)..
٧٣- سيد قطب.. العدالة الاجتماعية فى الاسلام.. دار المعارف بمصر..
٧٤- عباس محمود العقاد.. الحسين أبو الشهداء.. نهضة مصر.. الطبعة الثانية(١٩٩٨)..
٧٥- أبو يوسف.. الخراج.. تحقيق محمد بن على جيلانى.. المكتبة التوفيقية.. الطبعة الأولى(٢٠١٣)..
٧٦- ابن عبد ربه الأندلسى.. العقد الفريد.. تحقيق محمد سعيد العريان.. المكتبة التجارية الكبرى..
٧٧- طه حسين.. الفتنة الكبرى(١- عثمان، ٢- على وبنوه).. دار المعارف بمصر..
٧٨- جرجى زيدان.. تاريخ التمدن الاسلامى.. مراجعة وتعليق د.حسين مؤنس.. دار الهلال..
٧٩- د.أحمد أمين.. ضحى الاسلام.. الهيئة المصرية العامة للكتاب.. مكتبة الأسرة(٢٠٠٢)..
٨٠- الأصفهانى.. الأغانى.. اعداد لجنة نشر الكتاب باشراف محمد أبو الفضل ابراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب(١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م)..
٨١- د.صالح أحمد العلى.. التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى(رسالة دكتوراه).. بغداد(١٩٥٣م)..
٨٢- د. أحمد شلبى.. موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية.. مكتبة دار النهضة المصرية - القاهرة.. الطبعة الثامنة(١٩٩٠م)..
٨٣- هـ. ج. ويلز.. موجز تاريخ العالم.. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة محمد مأمون نجا.. الهيئة المصرية العامة للكتاب.. مكتبة الأسرة(٢٠٠٣م)..
٨٤- ابن اسحاق.. سيرة ابن هشام.. تحقيق د.أحمد حجازى السقا.. دار التراث العربى..
٨٥- أحمد معمور العسيرى.. موجز التاريخ الاسلامى منذ آدم الى عصرنا الحاضر.. مكتبة الملك فهد.. الدمام.. السعودية(١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)..
٨٦- محمود شاكر.. التاريخ الاسلامى.. المكتب الاسلامى.. الطبعة الثامنة(١٤٢١هـ ٢٠٠٠م)..
٨٧- د.محمد عمارة.. كتاب الاسلام وأصول الحكم للشيخ علىّ عبد الرازق.. دراسة

ووثائق.. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.. بيروت.. الطبعة العربية الجديدة(٢٠٠٠)..
٨٨- د.محمد عبد الله عنان.. الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية.. مطبعة المدنى - المؤسسة السعودية بمصر.. الطبعة الثالثة(١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م)..
٨٩- د.حسين مؤنس.. أطلس تاريخ الاسلام.. دار الزهراء للاعلام العربى..
٩٠- فيليب حتى.. تاريخ العرب المطول.. دار الكشاف.. بيروت(١٩٥٤م)..
٩١- المقريزى.. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا.. طبعة بولاق(١٢٧٠هـ)..
٩٢- د.حسن ابراهيم حسن.. تاريخ الدولة الفاطمية.. الطبعة الثالثة(١٩٦٤)..
٩٣- د.حسين أمين.. تاريخ العراق فى العصر السلجوقى.. مطبعة الارشاد.. بغداد(١٩٦٥م)..
٩٤- د.السيد محمود عبد العزيز سالم.. المغرب الاسلامى.. دار ومطابع الشعب.. سلسلة كتاب الشعب(١٣٨)..
٩٥- ابن خلدون.. المقدمة.. دار الشعب..
٩٦- الشيخ مصطفى صبرى.. النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة.. دار الدعوة.. الاسكندرية.. الطبعة الأولى(١٩٨٥)..
٩٧- د.محمد عبد الله عنان.. نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين.. الطبعة الثانية.. مصر..
٩٨- د.حسن أحمد محمود.. قيام دولة المرابطين - صفحة مشرقة من تاريخ المغرب(١٩٥٧)..
٩٩- جوستاف لوبون.. حضارة العرب.. ترجمة عادل زعيتر.. الهيئة المصرية العامة للكتاب.. مكتبة الأسرة(٢٠٠٠)..
١٠٠- د.على الوردى.. وعاظ السلاطين.. دار كوفان للنشر.. لندن.. توزيع دار الكنوز الأدبية.. بيروت.. الطبعة الثانية(١٩٩٥)..
١٠١- حسام تمام.. تسلف الاخوان(صعود السلفية فى الجماعة).. وحدة الدراسات المستقبلية(مراصد ١).. مكتبة الاسكندرية(٢٠١٠)..
١٠٢- د.صالح بن غانم السدلان.. الائتلاف والاختلاف - أسسه وضوابطه.. دار بلنسية للنشر والتوزيع.. الرياض.. الطبعة الثانية(١٤١٧هـ)..
١٠٣- محمد فريد وجدى.. مقدمة المصحف المفسر.. مكتبة دار الشعب..
١٠٤- مصر بين الدولة الاسلامية والدولة العلمانية - مناظرة معرض القاهرة الدولى للكتاب فى ٨ من يناير ١٩٩٢ أدارها د.سمير سرحان بين كل من الشيخ محمد الغزالى، المستشار المأمون الهضيبى، د.محمد عمارة، د.محمد خلف الله، د.فرج فودة.. توثيق مركز الاعلام العربى بالقاهرة..
١٠٥- د.فرج فودة.. الحقيقة الغائبة(١٩٨٦)..
١٠٦- د.فرج فودة.. حوار حول العلمانية(١٩٩٣)..

١٠٧- محمد حسان.. القتنة بين الصحابة.. مكتبة فياض للتجارة والتوزيع(١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م)..
١٠٨- د.فرج فودة.. قبل السقوط.. دار ومطابع المستقبل بالفجالة والاسكندرية، ومكتبة المعارف ببيروت(٢٠٠٣)..
١٠٩- عباس محمود العقاد.. فاطمة الزهراء والفاطميون.. دار الهلال(١٩٧١)..
١١٠- الشهرستانى.. الملل والنحل.. تحقيق محمد سيد كيلانى.. مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى(١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م)..
١١١- عبد الحميد جودة السحار.. أبو ذر الغفارى(مصدر يبحث الاشتراكية فى الاسلام).. الطبعة العاشرة.. مطبوعات مكتبة مصر..
١١٢- د.محمد الملاح.. المسلمون المعاصرون(الوهم والجمود).. الطبعة الأولى(٢٠١٣)..
١١٣- محمد شاكر الشريف.. حقيقة الديمقراطية..
١١٤- مالك بن نبى.. انتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الاسلامى الحديث.. دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع.. بيروت.. الطبعة الأولى(١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م)..
١١٥- د. فرج فودة.. الارهاب.. الهيئة المصرية العامة للكتاب(١٩٩٢)..
١١٦- حضرة عزتلو يوسف بك آصف.. تاريخ سلاطين بنى عثمان من أول نشأتهم الى الآن.. تقديم د.محمد زينهم محمد عزب.. مكتبة مدبولى(القاهرة).. الطبعة الأولى(١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)..
١١٧- عبد الرحمن الشرقاوى.. أئمة الفقه التسعة.. دار الشروق.. الطبعة الأولى(١٤١١هـ - ١٩٩١م)..
١١٨- ايرينا بيتروسيان.. الانكشاريون فى الامبراطورية العثمانية.. تقديم ومراجعة قسم الدراسات والنشر - معهد الدراسات الشرقية - المجمع العلمى الروسى(سان بطرسبرج) ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - دبى(١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)..
١١٩- ابن سعد.. الطبقات الكبرى.. دار صادر.. طبعة بيروت(١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م)..
١٢٠- ابن تيمية.. السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية.. منشورات دار الآفاق الجديدة.. بيروت.. الطبعة الأولى(١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)..
١٢١- الماوردى.. الأحكام السلطانية والولايات الدينية.. تحقيق د. أحمد مبارك البغدادى(جامعة الكويت).. دار ابن قتيبة.. الكويت.. الطبعة الأولى(١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م)..
١٢٢- محمد الغزالى.. من معالم الحق فى كفاحنا الاسلامى الحديث.. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.. الطبعة الرابعة(٢٠٠٥م)..
١٢٣- محمد الغزالى.. الاسلام والاستبداد السياسى.. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.. الطبعة السادسة(٢٠٠٥م)..
١٢٤- تقرير حول "اسرائيل الكبرى" نشرته صحيفة "هاموديا" الصهيونية صدر فى منتصف

سنة ٢٠١٤م..
١٢٥- عبد الله الرشيد.. "على عبد الرازق" مشروع مبكر فى نقض الاسلام السياسى.. جريدة المجلة فى ٢٨ من أغسطس ٢٠١٣.. لندن..
١٢٦- د.حسين مؤنس.. دستور أمة الاسلام(دراسة فى أصول الحكم وطبيعته وغايته عند المسلمين).. الهيئة المصرية العامة للكتاب.. مكتبة الأسرة(٢٠٠٠م)..
١٢٧- محمود عوض.. أفكار ضد الرصاص.. دار المعارف(اقرأ).. الطبعة الرابعة(١٩٩٤م)..
١٢٨- د.موسى موسى نصر.. صفحات مطوية من تاريخ مصر العثمانية.. الهيئة المصرية العامة للكتاب(المكتبة الثقافية).. (١٩٩٠م)..
١٢٩- د.غالى شكرى.. من الحق الالهى الى العقد الاجتماعى.. الهيئة المصرية العامة للكتاب(المواجهة).. (١٩٩٣م)..
١٣٠- محمد سعيد العشماوى.. اسلاميات واسرائيليات.. دار المعارف(١٩٩٩)..
١٣١- غالب بن على عواجى.. الخوارج.. تاريخهم وآراؤهم الاعتقادية وموقف الاسلام منها.. رسالة ماجستير فى العقيدة.. كلية الشريعة.. جامعة الملك عبد العزيز.. السعودية(١٣٩٩هـ)..
١٣٢- ناصر بن سليمان بن سعيد السابعى.. الخوارج والحقيقة الغائبة.. رسالة ماجستير.. جامعة آل البيت الأردنية.. الطبعة الأولى(١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)..
١٣٣- ابن كثير.. تفسير القرآن العظيم.. دار التراث العربى للطباعة والنشر والتوزيع..
١٣٤- أحمد بن زينى دحلان.. أمراء البلد الحرام.. الدار المتحدة للنشر.. بيروت..
١٣٥- أحمد بن زينى دحلان.. الدرر السنية فى الرد على الوهابية.. المطبعة البهية(١٩٥٢م)..
١٣٦- محمد بن عبد الله الحنبلى.. السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة.. دار ابن حزم.. بيروت..
١٣٧- حسام العقاد.. حلقات ممنوعة.. دار الصحابة بطنطا..
١٣٨- محمد صديق القنوجى.. الدين الخالص.. دار الكتب العلمية.. بيروت..
١٣٩- روبرت دريفوس.. لعبة الشيطان(دور الولايات المتحدة فى نشأة التطرف الاسلامى).. ترجمة أشرف رفيق.. تقديم ومراجعة مصطفى عبد الرازق.. مركز دراسات الاسلام والغرب.. الطبعة الأولى(٢٠١٠م)..
١٤٠- مذكرات مستر همفر(الجاسوس البريطانى فى البلاد الاسلامية).. ترجمة د.ج.خ...
١٤١- وحيد الدين خان.. التفسير السياسى للدين(ملخص التفسير الخاطىء).. الرسالة للاعلان الدولى.. الطبعة الأولى العربية(١٤١١هـ - ١٩٩١م)..
١٤٢- وحيد الدين خان.. خطأ فى التفسير.. الرسالة للاعلان الدولى.. الطبعة الأولى العربية(١٩٩٢م)..
١٤٣- محمد بن سنان.. المجموع المفيد فى عقيدة التوحيد.. مكتب دار الفكر.. الرياض..

١٤٤- ت.أ.لورانس.. أعمدة الحكمة السبعة.. المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع.. بيروت.. الطبعة الأولى(١٩٦٣م)..
١٤٥- أندريه زكى.. الاسلام السياسى والمواطنة والأقليات(مستقبل المسيحيين العرب فى الشرق الأوسط).. مكتبة الشروق الدولية.. الطبعة الأولى(١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)..
١٤٦- ابن قتيبة.. الامامة والسياسة.. طبع وتصحيح وشرح محمد محمود الرافعى(١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م)..
١٤٧- د.عبد الرحمن على الحجى.. التاريخ الأندلسى من الفتح حتى سقوط غرناطة(٩٢ - ٨٩٧هـ) (٧١١ -١٤٩٢م).. دار القلم.. دمشق -بيروت.. الطبعة الثانية(١٤٠٢هـ - ١٩٨١م)..
١٤٨- محسن محمد.. أصول الحكم(تاريخ مصر بالوثائق البريطانية والأمريكية).. دار المعارف..
١٤٩- على محمد محمد الصلابى.. الدولة العثمانية(عوامل النهضة وأسباب السقوط).. دار التوزيع والنشر الاسلامية.. الطبعة الأولى(١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)..
١٥٠- محمد فريد.. تاريخ الدولة العلية العثمانية.. تحقيق د.احسان حقى.. دار النفائس.. الطبعة الأولى(١٤٠١هـ - ١٩٨١م)..
١٥١- ابن القيم.. الطرق الحُكمية فى السياسة الشرعية.. تحقيق نايف بن أحمد الحمد.. دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع..
١٥٢- أمانى بنت جعفر بن صالح الغازى.. دور الانكشارية فى اضعاف الدولة العثمانية(الجيش الجديد).. دار القاهرة.. الطبعة الأولى(٢٠٠٧م)..
١٥٣- أبو الأعلى المودودى.. المصطلحات الأربعة فى القرآن.. تعريب محمد كاظم سباق.. المطبعة الشامية.. دمشق..
١٥٤- أبو الحسن الندوى.. التفسير السياسى للاسلام(فى مرآة كتابات المودودى وسيد قطب).. دار آفاق الغد(١٩٨٠م)..
١٥٥- ابن شاكر الكتبى.. عيون التواريخ.. تحقيق حسام الدين القدسى.. مكتبة النهضة المصرية(١٩٨٠م)..
١٥٦- عباس محمود العقاد.. أفيون الشعوب.. مكتبة الأنجلو المصرية..
١٥٧- د.محمد السيد الوكيل.. جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين.. دار المجتمع للنشر والتوزيع.. الطبعة الخامسة(١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)..
١٥٨- عبد الرحمن الكواكبى.. طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.. كلمات عربية للترجمة والنشر.. ٢٠١١م..
١٥٩- د.شوقى أبو خليل.. أطلس التاريخ العربى الاسلامى.. دار الفكر-دمشق.. الطبعة الثانية عشر(١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م)..
١٦٠- الصادق النيهوم.. اسلام ضد الاسلام.. رياض الريس للكتب والنشر.. الطبعة الثالثة (٢٠٠٠)..

١٦١- د.على شريعتى.. دين ضد الدين.. ترجمة حيدر مجيد.. مؤسسة العطار الثقافية.. الطبعة الأولى(٢٠٠٧م)..
١٦٢- د.فرج فودة.. الأقليات وحقوق الانسان فى مصر.. الملتقى الفكرى الثالث.. المنظمة المصرية لحقوق الانسان..
١٦٣- سامى بن عبد الله بن أحمد المغلوث.. أطلس حروب الردة فى عهد أبى بكر الصديق.. مكتبة العبيكان.. الطبعة الأولى(١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م)..
١٦٤- سامى بن عبد الله بن أحمد المغلوث.. أطلس الخليفة عمر بن الخطاب.. مكتبة العبيكان.. الطبعة الأولى(١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م)..
١٦٥- سامى بن عبد الله بن أحمد المغلوث.. أطلس الخليفة عثمان بن عفان.. مكتبة العبيكان.. الطبعة الأولى(١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)..
١٦٦- سامى بن عبد الله بن أحمد المغلوث.. أطلس الخليفة علىّ بن أبى طالب.. مكتبة العبيكان.. الطبعة الأولى(١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م)..
١٦٧- د.يوسف زيدان.. اللاهوت العربى وأصول العنف الدينى.. دار الشروق.. الطبعة الثانية(٢٠١٠م)..
١٦٨- عباس محمود العقاد.. الاسلام فى القرن العشرين.. الهيئة المصرية العامة للكتاب(١٩٩٣م)..
١٦٩- د.مصطفى الفقى.. الاسلام فى عالم متغير.. الهيئة المصرية العامة للكتاب(١٩٩٣م)..
١٧٠- د.ابراهيم أحمد العدوى.. تاريخ العالم الاسلامى.. المعهد العالى للدراسات الاسلامية(١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م)..
١٧١- عبد الرحمن الشرقاوى.. ابن تيمية الفقيه المعذب.. دار الشروق.. الطبعة الأولى(١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)..

172- Gilman.. The Saracens..
173-Gawen.. A history of religion..
174-Gibb,H. .. "Some consideration on the sunni theory of the caliphate".. Studies on Islamic Civilisation, 1969, p.192..
175-Gibb, H. .. "Constitional Organisation".. Law in the Middle East, V. 1, 1995, p.18..
176-–Clinton,H. R..."Hard Choices", Simon & Schuster, UK Ltd, 2014..